امرأة من طابقين

رواية

امرأة من طابقين

رواية

هيفاء بيطار

• روائية من سورية

• صدر أيضاً للروائية هيفاء بيطار:

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ISBN 978-9953-29-688-3
9 789953 296883

منشورات الاختلاف
14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة
البريد الإلكتروني:
revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

ISBN 9953-29-688-X

طبعة الدار العربية للعلوم الأولى
1426 هـ - 2006 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

كل شخصيات الرواية

من الخيال....

www.mlazna.com-RAYAHEEN

امرأة من طابقين

كنت عائدة لتوي من عملي منهكة من البطالة، رميت ثيابي على سريري كيفما اتفق، كنت جائعة وكان تناول الطعام هو الفعالية الأكثر إيجابية من يومي، وقد تحوّل رغماً عني إلى هدف وغاية، كنت أفكر وأنا أسخن طعام الغداء، بأن جوعي ربما يندرج تحت جوع الذل أكثر مما هو جوع المعدة، لأنني كنت دائماً أتسلى بالطعام والشراب في وظيفتي الوهمية، كنت – وزملائي – نشرب الشاي والقهوة مراراً، ونأكل السندويش المسخّن وبعض الحلويات، وأحياناً نشتري معجنات ساخنة ونتقاسم ثمنها، ورغم كل هذه التسليات الطعامية التي ما كانت تترك معدتي بحالة راحة، كنت أعود ظهراً إلى بيتي وأنا بحالة جوع شديد، إذاً كنت أمعن في فكرتي بأن جوع الذل هي حالتي، شعور الذل اللطيف، الأخرس، الذي يذكرني من غير أن ينهرني ودون أن يعلو صوته، بأن راتبي لا يكفي ليطعمني طعاماً محترماً لمدة عشرة أيام... هذه الحقيقة التي كنت أتنفسها باستمرار كانت وحدها سبب جوعي...

ما إن بدأت بالتهام قطعة اللحم الشهية مع البطاطا المقلية حتى علا رنين الهاتف، كان صديق والدي، الذي غدا صديقي بعد وفاة والدي، وكنت أعتز بصداقته بسبب مثاليته النادرة في هذا العصر الذي سلّع كل شيء حتى الأخلاق، ولعلمه وثقافته الواسعين، كنت أسميه في سري (الرمز) قلت آلو وأنا أبتلع لقمتي الثانية، وأتاني صوته عميقاً دافئاً كعادته قائلاً: لك عندي مفاجأة سارة.

قلت وقد انتقل إليّ ابتهاجه: حقاً!!

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قال: كاتب البلاد الشهير: في مكتبي، وقد حدثته عنك و..

قاطعته بلهفة قلقة: وماذا قلت عني؟

ضحك قائلاً: قلت له بأنك مشروع كاتبة كبيرة، ومثقفة، وفأرة كتب.

سالت: أهو عندك الآن؟

قال: وكلانا بانتظارك لنشرب القهوة معاً.

انتفضت عن الكرسي قبل أن أغلق الساعة، وبدأت بفك أزرار قميصي، قلت: خلال دقائق سأكون عندك.

توقف إحساسي بالجوع حالاً، أسرعت ألبس ثيابي الأكثر أناقة، وأجدد خط الكحل على عيني، ابتسمت لصورتي في المرآة وسألتها: هل يهمك أن يراك كاتب البلاد العجوز جميلة؟! إنه يكبرك بأربعين عاماً على الأقل! أجابتني المرأة التي أخذ وجهها يتوهج طارداً سحنة البلادة: تحب الأنثى لفت نظر الرجل حتى لو كان على فراش الموت، بالتأكيد سيسعد الكاتب أن يتأمل وجهاً جميلاً لامرأة تتقصد أن تتعرف إليه.

كثّفت عطري وأحمر شفاهي، ونزلت الدرج، رميت بنفسي في أول تكسي صادفته، وانطلقت إلى مكتب صديقي الذي يزيد عمر صداقتنا على عشر سنوات فكّرت أن هذه الصداقة تعمقت بحادثتين جوهريتين، الأولى وفاة والدي والثانية طلاقي، ورجحت أن السبب الثاني أقوى من الأول، عكست المرآة الأمامية للسائق صورة ابتسامة عريضة مرتسمة على وجهي، ترى لمن كنت أبتسم؟ للماضي الذي مرّ بسرعة السيارة أمامي خاطفاً وبعيداً ومنسياً، للرجل الذي كان زوجي، وأحس نحوه باحتقار شديد، أم ابتسمت لإحساسي بأنني لو لم أكن مطلقة لما تعمقت صداقتي مع الرجل (الرمز) صديق والدي، وأتاني إلهام أكيد أن المطلقة تتمتع بسحر وجاذبية لا يقاومان بالنسبة للرجال، وبأنها من غير أن تعلم

تمتلك موهبة الرقة والرهافة بعد تحررها من أسر رجل، كان يعرقل انطلاق كل مشاعرها العفوية والإيجابية في الحياة، وبأنها تعلمت بعد طلاقها كيف تعطي ذاتها بسخاء وتواضع.

كنت قد قدمت العديد من القصص القصيرة، ومشروع رواية لصديقي، وقد فاجأته موهبتي الأدبية واعترف لي بأنه بكى حين قرأ بعضها، وبأنه كان على درجة عالية من التشوق لدرجة لم يستطع التوقف عن القراءة حتى نهاية القصة، وقد وعدني أن يرسل هذه القصص إلى صديقه منذ نصف قرن، كاتب البلاد الشهير.

قبل أن أترجل من التكسي أحسست بانطفاء تام لرغبتي بالتعرف إلى كاتب البلاد، وعجبت لمدى حماستي العظيمة للتعرف به، ومرّت أمام ناظري صوري أتعطّر وأقفز الدرج مسرعة للقائه، سخرت من نفسي قائلة: لم كل هذه العجلة، ماذا لو أكملت تناول غدائي أولاً؟

وضعت قطعة من السكاكر في فمي، وانتظرت المصعد الذي ما أن فتح ذراعيه لاستقبالي حتى اقتربت من مرآته أتمعن في صورتي، أظهرت الرضى للهيئة التي سأقابل بها كاتب البلاد، وتذكرت كما لو أنني أطل من علٍ على رواياته كلها، بأن معظمها يعتمد على الهاجس الجنسي، تحسه يصف باستمتاع لقاء الجنسين معاً، في الغابة، على الرمل، قرب شاطئ البحر، وفوق الفراش، لأول مرة أنتبه لفكرة بدت لي بديهية إنما لم تخطر لي من قبل: هي أن انتشار رواياته السريع يعود إلى الزخم الجنسي الكبير الموجود فيها، هاجسنا الأول في الشرق المكبوت. صفعتني ذاكرتي بصورة أحد أصدقائي في الجامعة الذي اعترف دون خجل، أنه كان يضطر لممارسة العادة السرية بغزارة حين قرأ رواية كاتب البلاد والتي تدور أحداثها في مغارة، لجأ إليها رجل وامرأة هاربين من العدالة، وكانا يمارسان الجنس بكثافة، كوسيلة

لمقاومة الخوف، وللإحساس بالحياة، يومها أحسسنا بالاشمئزاز والقرف من اعتراف صديقنا، وصرنا نتهرب من لقائه... لكني أحس الآن بمدى الظلم الذي أوقعناه به، أما كان محقاً وصادقاً، ترى لماذا شكّلونا بطريقة تجعلنا ننبذ الصادقين والبسطاء؟!

انفتحت دفتا المصعد، اتجهت إلى مكتب صديقي الودود، لفحتني رائحة دخان كثيف يملأ فضاء الغرفة، كان كاتب البلاد بكامل أناقته، يدخّن، وقد امتلأت منفضة السجائر أمامه بالأعقاب ورغم ضباب الدخان بيننا، إلا أنني لاحظت أنني وقعت وقعاً حسناً في نفسه، جلست مقابله مستمتعة كونه رمق ساقي بإعجاب لم يتعمد إخفاءه.

وجدتني أقول له ببداهة ودون تفكير بأنني سعيدة جداً بالتعرف إليه، وبأنه شرف كبير لي أن يهديني بعضاً من وقته الثمين.

لم أستطع أن أمنع موجة غثيان حادة من اختراق أعماق روحي، وأنا ألفظ هذا الكلام، الذي لو سمعت امرأة أخرى تتلفظ به لاحتقرتها، لكن لم يكن هناك مجال للغوص في تفسير كلامي هذا، كنا قد تربينا على ضرورة التملق، حتى غدا عصباً أساسياً في حياتنا وشخصيتنا.

قال صديقي بود: أنا قمت بواجبي وأتممت تعارفكما.

قال كاتب البلاد بصوت رخيم سحرني: في الواقع أنا أتشرف بالتعرف بالسيدة نازك. لقد قرأت عدداً غير قليل من قصصك، وبغير قليل من التركيز والانتباه، وبرغبة صادقة في إبداء بعض الملاحظات المفيدة، ووجدت أنني في وضع معكوس، فأنت سيدتي من يجب أن تلاحظ، وأنا من ينبغي له أن يتلقى ملاحظاتك المفيدة أو التي يمكن عبر الحوار أن تكون مفيدة لنا معاً، وقد كتبت لك رأيي ظناً مني أني لن ألتقيك.

مدّ لي ورقة مطوية بأناقة أخرجها من جيبه، تناولتها وأنا أدخل في

حالة من هياج السعادة وقلبي يطرق بعنف كأنه يقلع في حب جديد.

كانت صفحة بيضاء كبيرة، امتلأ نصفها بكتابته الأنيقة، مع مديح صريح لأسلوبي وإعجاب شديد بموهبتي ذكر لي بعض الملاحظات، وهي أن إحدى القصص تصلح لتكون رواية، وبأن إحداها تحتاج للتعميم الفني، وأخرى لإشباع المواقف، لم أكن أفهم المعاني الواسعة والحقيقية لهذه العبارات، ومع ذلك ملأني الرضى والغرور أيضاً، وكنت أحس بنشوة من تكرار كلمة سيدتي في رسالته، للحظة أحسست أن أبواب الشهرة والمجد تنفتح لي غير بعيدة، وبأنها تلوح لي مباشرة خلف الكاتب، كانت دفتا النافذة العريضة المضاءة بوهج الظهر تبدوان لي كدفتي باب المجد.

دمعت عيناي من كثافة دخانه، كان يشعل سيجارة من عقب أخرى، قدّمت لنا السكرتيرة القهوة أخذ الكاتب نفساً عميقاً، ونظر إليّ من خلال ضباب دخانه قائلاً بأن طقوسه في الكتابة هي إغلاق النوافذ وإسدال الستائر والإكثار من القهوة والتدخين، وبأنه مستهتر بصحته وبآراء الأطباء، لعن الكتابة وقال بأنها عمل كئيب وحزين، وهممت أن أقاطعه وأقول رأيي بأن الكتابة تدخل البهجة إلى قلبي، لكني ابتلعت كلماتي عن سطح شفتي وأنا أتهيب من الكلام أمام كاتب ذائع الصيت، مترسخ الشهرة، أحسست أن كلامي سيتناثر كفقاعات الصابون، سرعان ما تنفجر متلاشية في العدم. قال بأنه يسعده أن يقدّم لي بعض الملاحظات التي قد تفيدني ككاتبة، وبأنه إكراماً لصديق عمره، قرأ بعض كتاباتي رغم أن وقته لا يسمح له حتى بمراجعة طبعات رواياته، تبادلا نظرة تواطؤ، وضحكة قصيرة، قال الكاتب مداعباً صديقه: أنت دوماً موفق في اختيار صديقاتك. أرضى غروري الإطراء المبطن، علّقت قائلة: بأنني أعتبر نفسي محظوظة بصداقة رجل مميز كالسيد زاهر صديق أبي.

قال الكاتب: معك حق، زاهر إنسان نادر، نزاهته وصدقه يثيران العجب، ربما تأخذ هذه الصفات بعدها العميق لأنه محامٍ، رفع يده وحركها ببطء عالياً وكأنه يشمل ماضياً شاملاً، وقال بصوته الرخيم المخرم بالشيخوخة: ياه، كم جمعني بزاهر تاريخ طويل طويل، كم دخلنا السجن أنا وزاهر أيام الاستعمار، كم تعرضنا لاضطهاد، لكن.. أخذ يضحك حتى دمعت عيناه، يبدو أن عمر الشقي بقي.

سادت برهة صمت ثقيلة كنت أنصت فيها لصوت رشف القهوة الخافت الذي أحسسته وسط سديم دخان الكاتب وحالتي المعنوية المرتفعة، أشبه بحفيف القبلات، أحسسته ممتلئاً بنفسه، كطاووس كهل منفوش الريش غروراً، ابتدرني بجملة من الأسئلة، أشعرني أنني تلميذة في حضرة أستاذ يمتحنني:

– هل تقرئين كثيراً؟

– أجل.

– هل تقرئين بشكل يومي؟

– أجل.

– بمن من الكتّاب تأثرت؟

– تأثرت بعمق بدوستوفيسكي وبلزاك.

أحسسته ممتعضاً كوني لم أذكر اسمه.

– هل قرأت كتباً من التراث العربي!

– للأسف لم أقرأ الكثير من كتب التراث لأنها غير متوفرة.

– هل تقرئين الشعر؟

– أجل.

– الشعر القديم أم الحديث؟

– كليهما.

– هل يعجبك الشعر الحديث؟

– القليل منه يعجبني.

– من شاعرك المفضّل؟

– محمود درويش.

ضحك قائلاً: معك حق.

لا أدري لماذا شعرت فيما هو يسألني سابراً ثقافتي أنني امرأة من ضباب، فيما هو رجل من صخر، كنت نكرة، وكان معروفاً ومقروءاً لدى الملايين، حاجز الشهرة ينتصب بيننا، يحفر له جذوراً راسخة، بينما أنا قادمة من عزلة قوقعتي وأوراقي التي لم يقرأها أحد، لكن فجأة هزتني نبوءة مفاجئة بأنني أكثر أهمية من الكاتب، كانت نبوءة على درجة من القوة والتأكيد لدرجة آمنت بها أنا التي لم أكن أومن بتلك الأحاسيس الطارئة، لعلني لمحت بعيني النفسيتين هول المخزون من الانفعالات الإنسانية المحتبس بداخلي، كنت أشعر بما يشبه اليقين أن في داخلي بئراً لم أسبرها بعد، فجأة تكشف لي عمقها، أطللت لبرهة على هوّة الأحاسيس الغنية التي أخزنها وأنساها، تنبهت للكاتب يقول بأنه حين كان في عمري – أي في الثامنة والثلاثين – لم يكن قد بدأ الكتابة بعد، عزّاني كلامه، أحسست بالسعادة التي يولدها في نفسه ألق شبابي، لم يكن يخفي ألمه من الشيخوخة، خاصة حين علّقت مازحة بأن طريقته في التدخين كافية لتوليد ضباب حقيقي في الغرفة، وبأنني أعجب لحال رئتيه كيف تحتملان ضباب الدخان.

ردّ ساخراً: أي سخف أن أداري صحتي بعد هذه الشيخوخة اللعينة، خير لعجوز مثلي أن يموت. كان صادقاً في تمني الموت، وحده الصدق كان يلامس قلبي مباشرة، فأعرف أن صاحبه لا يغش. قلت له بأنني لا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أوافقه على تمني الموت طالما أنه يعيش مرتاحاً ومشهوراً، وله جمهور واسع من المعجبين.

قاطعني متهكماً: أية شهرة يا ابنتي، هل أصدقك القول أنا لا أستحق كل هذه الشهرة، لست أنا سوى رجل محظوظ.

تساءلت بدهشة: رجل محظوظ!

قال: أجل، صدقيني أنا لا أستحق كل هذه الشهرة، لكني محظوظ كما قلت لك.

لفّتني الحيرة، أتراه يعني كلامه حقاً؟! هزّ رأسه وهو يثقب عينيّ بنظرته التي أشعرتني بمدى معاناته من الشيخوخة، قال: صدقيني يا ابنتي أنا أتمنى الموت، ما عدت أرغب بشيء من الحياة، أنا الآن عجوز ومريض، أعيش في الضواحي القصية للحياة.

أدهشني أنه يفكر بالموت ببساطة ودون خوف، وكأنه شيء خبره مسبقاً، أراد صديقنا أن يعيد مسار الحديث إلى الأدب، خوفاً أن يقودنا الحديث عن الموت إلى منزلقات مأساوية قاتلاً، وموجهاً الحديث إلى كاتب البلاد: قدّمت لي السيدة نازك مشروع رواية، أعتقد أنه هام جداً، فعدا أسلوبها الجذاب، فإنها تتمتع بالقدرة على الولوج إلى عمق النفس البشرية، إنها تحاول الغوص في فكرة شائكة، إلغاء الفروق الطائفية، والتزاوج ببساطة بين الأديان.

هزّ الكاتب رأسه مراراً وهو يكرر: جميل، جميل...

تشجعت وسألته: هل يسمح لك وقتك بقراءة ما كتبته.

قال: بكل سرور، سأقرأ باهتمام خاص كل حرف كتبته وستكتبينه.

أحسست بامتنان شديد للكاتب، فلم أتوقع أن يكون سخياً معي لهذه الدرجة. قلت له: لكنني أشكو من علّة لا أعرف كيف أعالجها.

قال ضاحكاً: أمر رائع أن يحس الإنسان بعيوبه.

قلت": الرواية تنفلش بين يدي، أتوه في مسالكها.

تنحّى في جلسته، أخذ نفساً عميقاً فتمدد كرشه بالهواء، وقال بلهجة الأستاذ الواعظ:

يجب أن تضعي خطة للرواية، أن تبنيها حجرة حجرة، أن يكون لكل فصل مدخله الذي يشد القارئ ويأسره، الرواية عمارة حقيقية، لقد اضطررت ذات مرة إلى إعادة كتابة مئتي صفحة في إحدى رواياتي، لأنني لاحظت أنها انحرفت عن الخط العام للرواية.

قلت بحماسة: والله أنا أحاول ألا أخرج عن الخط العام، لكن... كنت أبحث عن التعبير الأكثر مناسبة حين قال: يجب أن تهتمي كثيراً بقراءة الروايات، أن تقرئيها قراءة دقيقة، وأن تتأملي كيف يخلق الكاتب شخوصه، ويفاعلها مع بعضها ومع الزمان، والمكان، أي أن تقرئي قراءة تحليلية، يمكنني أن أفيدك وأعطيك بعض الكتب الهامة مثل كتاب (أصول الرواية ورواية الأصول) لمارت روبيرت، لكن الأهم يا ابنتي كما قلت لك أن تكثري من قراءة الروايات.

وددت لو أقاطعه وأقول بأنني لا أفعل شيئاً ذا أهمية في حياتي سوى القراءة. امتلأت المنفضة أمامه بأعقاب السجائر، أحسست أنني سأختنق من الدخان، وددت لو أقوم إلى النافذة أفتح مصراعيها، تمنيت في ضيقي أن أرمي بنفسي في الفضاء النقي في الخارج، علا رنين الهاتف، رفع السماعة صديقنا الودود، أكد أنهما – الكاتب وهو – لن يتأخرا عن موعد الغداء.

استأذنت بالانصراف وأنا أحضّر كلمات مفخمة مصطنعة ألقيها على مسمع الكاتب لأشكره، خاطبني السيد زاهر، مهلاً سنوصلك في طريقنا، أعطاني الكاتب بطاقته الخاصة المسجل فيها أرقام هواتفه، وقال بأنه لا يعطيها إلا لقلة، رقّ صوته الرخيم وهو يطلب مني بكل ودّ أن

أتصل به ساعة أشاء، شكرته بحرارة صادقة، ولم تخف عني نظراته النهمة التي كان يفترس بها وجهي وساقي وهو يتأملني بالمرآة الأمامية للسيارة، شعّت روحي بابتسامة ساخرة، تساءلت: يبدو أنه لا يزال يملك شهية للمرأة وللحياة وهو في هذا الأفول السريع والمهين لكل ما له علاقة بالحياة.

حين دخلت بيتي بدا لي غارقاً في السكون والنسيان، كان طعامي بارداً ولم يحرّك في نفسي أية شهية كانت كل أجهزتي مشغولة بهضم كلمات الكاتب وتمثلها، وقفت أمام مكتبتي وبحثت بنظري عن بعض كتبه كنت قد اشتريته وأنا في العشرين، سحبت إحدى رواياته، قلّبتها، وجدتني أوافقه بأنه لا يستأهل كل هذه الشهرة، وجدتني أستدير فجأة وأحدّق في ساعة الجدار الكبيرة وأتساءل: كيف حقق إذاً هذه الشهرة؟! هل كنت أسأل العقارب التي تدوّر الزمن؟ أم أن استدارتي القوية كانت بسبب عمق تساؤلي الذي هزّ كياني كله، اتجهت صوب خزانة ثيابي الكبيرة، في قاعها كنت أرتب أوراقي وكتاباتي، جلست أرضاً وأخذت أقلب، فيها فتنتني بعض العبارات، وأضحكتني أخرى، لما فيها من سذاجة وعدم الإمساك بزمام أفكاري جيداً، دمعت عيناي، ثم تساقطت دموعي، لا أعرف لماذا، كان لهيب الإلهام يعصف في داخلي، أسمع دويه، كنت متوحدة مع الكتابة بكل حواسي، لدرجة كنت أردد بيني وبين نفسي أنا الكتابة والكتابة أنا... أعدت الأوراق إلى مدفنها الدافئ، تساءلت بقلق كبير: كيف ستخرج هذه الكتابات إلى النور؟ من سيتعهدها؟ من سيساعدني؟ والنشر مكلف وفوق طاقتي؟ ترى هل سيمد لي يد المساعدة كاتب البلاد الشهير؟! أليس من واجبه أن يساعدني ويتعهدني كما ساعده الكثيرون؟!

لكن خيالي عكس لي صورة سببت لي أذى كبيراً إذ صوّر لي كيف

تبتلع الأسماك الكبيرة، الأسماك الصغيرة. هل كان خيالي يتنبأ بالمستقبل، أم يملك حدساً استثنائياً لمعرفة ما سيحدث، في كل الأحوال كنت أحس برضى وترقب لأمور كثيرة غامضة ستحدث بيني وبين كاتب البلاد الشهير.

بدأت مع كاتب البلاد عهداً جديداً، تبادل الرسائل، هو من أوحى إليّ بهذه الفكرة، لم يخطر ببالي أبداً أن أراسل كاتباً شهيراً، أحسست بفخر وهو يقول لي: أكتبي لي يا ابنتي، قولي كل شيء، دون أن تتحرجي من أي حدث مرّ معك أو حتى بخاطرك، كانت مجرد فكرة مراسلة كاتب شهير، تحريض هائل على الكتابة لدي استنفار لكل الطاقات الذابلة والمتراخية في أعماقي، هيجان لكل المفردات والتعابير التي تنتظر أن تصوغها أفكاري وأحاسيسي، وقد بدأت بالكتابة له فعلاً بعد ساعة من لقائي الأول معه، أحضرت أوراقي وانسكبت على الورق، لم أكن أعرف ماذا يخط قلمي، فلم يكن بذهني موضوع محدد، ولم أكن أحاوره كشخص، أحسست كأنه زرقني بجرعة من دواء منشط، ولّدت حماسة عجيبة في ذهني ويدي، فأخذت أملأ السطور والصفحات، حتى أحسست بتعب شديد في عضلات يدي، وبدت لي روحي أنها نفقت على دفعات، لكنني أحسست بعدها براحة هائلة، إذ بدوت في نظر نفسي خفيفة، متحررة من عبء الخلق، قمت أحضّر قهوتي التي نبهني فورانها إلى أنني أجهل ما كتبت، عدت إلى أوراقي أقرأ كلماتي الراكضة اللاهثة، كنت قد كتبت صوراً من سيرتي الذاتية التي كان غبار النسيان، وصدأ الروتين، قد محواها، ابتسمت راضية، تخيلت الكاتب الكبير يتسلم هذه الأوراق حين أرسلها له بالبريد المسجل إلى بيته الفخم في العاصمة، رأيته بعين خيالي كيف سيبهر بها، في الواقع كان شعوراً جديداً طاغياً يتكون خلسة في نفسي، كنت أدخل في لعبة التحدي مع الكاتب الشهير،

وكنت أريد عبر سلسلة من الرسائل غير العفوية، والتي أتقصد أن تكون نصوصاً أدبية عالية المستوى، أن أتحداه، أن أصارعه وأهزمه، بموهبتي التي تفوق موهبته، كنت أريد أن أحاصره بثقافتي المتجددة والواسعة، وأضعه وجهاً لوجه أمام شيخوخة فكره وذبول موهبته، ولا جدوى معظم أعماله الأخيرة. التي يطرحها كتاباً وراء كتاب، فلا تحس بالفرق بين كتاب وكتاب، بل تحس أنك غارق في كلام ممجوج، ربما بالنتيجة كنت أريد الانتقام من زمن أعطاه أكثر مما يستحق بكثير، مجحفاً بحقي أنا التي يوقظني هوى الكتابة من عزّ نومي، لأكتب أوجاع وأحلام البسطاء والمهمشين بنزاهة ورهافة نادرتين...

لكن ما كانت كتاباتي تجد لها مكاناً في الركام الذي ينشر في الصحف والمجلات، كنت أعرف أننا في زمن لا يستطيع الشخص ذاته أن يثبت موهبته ويجبر الآخرين على سماع صوته، إن لم يسنده طرف قوي، قوة ما يجب أن تساعدني، لكني لا أعرف كيف أجدها، ولا صفاتها الحقيقية... كنت في آن واحد محبطة بشدة وذات طموح لامحدود من جهة أخرى، وكان اجتماع هذين الشعورين القويين والمتنافرين يتركانني في حالة من الضياع والإعياء، لكني وجدت متنفساً الآن، سأثبت موهبتي الأصيلة للكاتب الكبير سأحاصره بموهبتي من جهة، وأنوثتي – من جهة أخرى – التي أثارت أمواجاً من الحنين لشبابه، عندها سيضطر لمساعدتي، سيتعهدني ويعرّفني بناشره الأكثر شهرة وثراء بين الناشرين. عندها ستفتح في وجهي أبواب الصحف والمجلات، وقتها سأحس بالرضا وبأن الزمن أنصفني، كانت أحلام يقظة كثيفة تحف برأسي كأسراب من الفراشات الملونة، فأتخيل مقابلات صحفية وتلفزيونية معي بعد أن تمسني عصا الشهرة، وكيف سأتكلم بثقة الناجح عن أعمالي، وكيف سأنوه للكاتب الشهير الذي ساعدني،

وسأشكره بأنه يتعهد المواهب الناشئة والشابة، وأتخيل أنني سأرثيه رثاء رائعاً بعد موته، وسألقي كلمة مؤثرة في حفل تأبينه، وسأحصد تصفيقاً قوياً.

وصلته رسالتي بعد ثلاثة أيام، اتصلت به في مكتبه لأتأكد من وصول أوراقي، آه نسيت أن أقول بأن له عقلية خاصة وغريبة، ومضحكة أيضاً، فهو لا يتصل بسيدة أبداً، وحين ألححت في معرفة السبب قال بأنه لا يحب أن يسبب أي إحراج للأنثى، أمام أب أو أخ أو زوج أو ابن.. قلت له بسخرية مبطنة:

– لكني أعيش وحيدة، لا أب لي، لا زوج ولا ابن.

– ليكن، هذا مبدأ اتخذته في حياتي.

لكني فهمت موقفه، وعزوته لسبب وحيد هو شهرته، فهو لا يتنازل للاتصال بأنثى، يحب أن تبادر النساء للاتصال به، يسكره شعوره أنه زير نساء، يتلقى مكالماتهن ومجاملاتهن وشهوتهن للتحدث إليه.

حين أتاني صوته رخيماً ومتعباً، حدست مدى إعجابه بأوراقي، وبادرني بقوله: في الواقع أنا أحسدك على قدرتك الهائلة على التعبير، أنت تملكين موهبة عظيمة.

لأول مرة منذ زمن بعيد، بعيد، أضحك ضحكة خارجة من قلبي مباشرة، ضحكة النصر، صوّره خيالي رامياً سلاحه – قلمه – أمامي، قلت بدلال مفتعل: أرجوك لا تجاملني.

رد بصوت واثق متعب: أكتبي لي دوماً يا ابنتي، بوحي لي بكل ما يخطر ببالك، فكلماتك تجعلني أقاوم حقارة الشيخوخة.

لا أعرف لماذا غاب عن ذهني أن رجلاً مشهوراً يمكن أن يصاب باكتئاب شديد، تدفق حزنه فجأة عبر أسلاك الهاتف وغمرني، سألته برقة: تبدو شديد الانزعاج والتعب..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قاطعني: الشيخوخة يا ابنتي لا ترحم، منذ يومين أفقت على ألم صدري لا يرحم، تمنيت لو أموت، لكنهم أنقذوني، أخذ ثلاثة أطباء يجاهدون لإبقاء الروح في صدري المتعب، لو تركوني أموت أما كان أفضل.

كانت لهجة الاستخفاف الذي يولده يأسه العميق تتدفق في صوته، وتنتقل إليّ لتسري كقشعريرة برد في جسدي.

قلت له بانفعال مبالغ: أعوذ بالله من تمنياتك، أنت غالٍ جداً جداً، ثم أنا لا أفهمك، لماذا تتمنى الموت بهذه الشهية؟ بصراحة أنا لا أقتنع أن الإنسان يريد حقاً أن يموت.

– آه، يا ابنتي، أنت لا تزالين صغيرة، صعب عليك فهم معاناة عجوز مثلي أظنك تعرفين أن همنغواي انتحر بسبب الشيخوخة.

قلت وقد أحسست أنه سدّ عليّ كل الطرق: لكن شهرتك، ومحبة الناس لك.

قاطعني بقهقهة عالية: أية شهرة زائفة هذه يا نازك تتحدثين عنها! المهم نظرة الإنسان إلى نفسه، الإنسان قد يخدع كل الناس، لكنه لا يستطيع خداع نفسه.

قلت وقد دبّت فيّ الحماسة: ليكن ما حقيقة نظرتك إلى نفسك؟

قال بلهجة قطعية: في الواقع أنا أكره نفسي.

لهجة الصدق تلامس القلب مباشرة، لعلّ موهبتي الفعلية كانت في تحسس الصدق، وجدتني منشدة له أكثر بعد أن باح لي بكرهه لنفسه، كنت أحس أنه لغز عليّ كشفه، ترى لماذا يكره نفسه؟! كانت خيوط حياتنا تتشابك، كنت أحسّ بالقدر يلهو بنا من بعيد، بجهاز تحكمه الخفي، ترى ما الذي سيتولد بيني وبين الكاتب الشهير؟! لم أكن أعرف شيئاً، سوى أنني أريد أن ألعب معه وعلى انفراد، لعبة ليّ الذراع، وبأنني

سأكسب الجولة أخيراً.

فاق افتتانه برسائلي توقعاتي، اعترف لي مراراً عبر أحاديثنا الهاتفية المتزايدة، بأنه لا يكتب لي لأنه لا يستطيع أن يكتب بهذا المستوى الرفيع من التعبير، كان يحفظ بعض عباراتي التي بهرته مثل (كنت مرمية خارج ذاتي) و(أظن أن الله خلقني بجبل التراب والدمع) حدثني عن انتظاره الفرح لرسائلي، وعن طقوسه الخاصة في قراءتها، قفل الباب، منع أي شخص من اقتحام عزلته، رفع سماعة الهاتف، إشعال سيجارة، وكان يعيد قراءة الرسالة مراراً، ثم يحفظها في مغلف خاص ويودعها الدرج الذي يحفظ فيه أوراقه الهامة. كنت قد نجحت في انتزاع إعجابه الشديد بكتابتي، وتقديره لموهبتي، وكان يلمّح أنه سيساعدني إنما في الوقت المناسب، وكانت كرامتي تمنعني من سؤاله متى يكون الوقت المناسب؟ لكن لا أعرف أية نجاسة كانت مختبئة في روحي حين أخذت كتابتي له تأخذ منحى غزلياً عشقياً، صرت أبثه أشواقاً لا أحسها، وعتابات مفتعلة كونه لا يتصل بي ولا يكتب، في الواقع لم يكن يعنيني هل كتب لي أم لا، لأن غايتي في الكتابة إليه كانت منافسته في أدبه، لعبة ليّ الذراع كما أحب أن أسمي ما بيننا، لقد أثرت به رسائلي، وتعمّدي أن أظهر عمق ثقافتي وقراءاتي الغزيرة، وتحليلاتي النقدية لدرجة صرّح لي ذات يوم بأنه يفكر أن ينشر هذه الرسائل تحت عنوان: رسائل امرأة، بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة فقط، خاصة حين ذكر بعض الأصدقاء المشتركين بيننا، فكّرت بأن رسائلي سوف تزيد من شهرته فيما لو نشرها هو، أما إذا نشرتها أنا فستحتاج لزمن طويل كي تلفت الأنظار إليها.

بدأت أقدّر طاقاتي حق قدرها، وأنا أجد أنني بهرت أديباً يقترب من عقده الثامن، إذاً كيف عساني أصوغ موهبتي؟! كنت أعرف أنه يتوجب

عليّ أن أحارب مرضاً مزمناً أشكو منه هو الإحباط، الإحباط الذي عمره قرون، كما يتوجب علي أن أعالج صدأ الروتين القاتل الذي ينسج أيام حياتي بشكل خيوط متراصة متلاصقة تحكم الإطباق على عنقي وتتركني بحالة ضيق نفسٍ شديد، إنما لا تميتني، كنت أحتاج أن أستعيد القدرة على الابتسام الحقيقي، ذلك الذي يشع كالنسمة من الروح. كنت أقضي ساعات طويلة كل يوم بوجه ذابل متجهم، كأنه لم يبتسم يوماً، وفي حالات كثيرة كنت أخشى أن أنظر في المرآة كي لا أرى هول الحزن المترسب في عيني، والمتسربل بملامح وجهي، محصلة كل شيء كان الإنهاك، ذلك الشعور المدمر الذي تخلقه البطالة. في لحظات كثيرة كنت أحس بكره لامحدود للكاتب الشهير. وأغضب من نفسي لدرجة احتقارها كوني أدخل السعادة إلى قلبه الكهل، وأبثه أشواقاً حارة كاذبة يصدقها ويبتهج كونه لا يزال قادراً على تسخين مشاعر امرأة، كان حدس عميق يؤكد لي أنه لن يساعدني أبداً، وبأنه يغار مني، ويحسب حساباً لتفتّح موهبتي الكبيرة، لكن سلوكه كان ملتبساً، إذ كان يشجعني كثيراً على الكتابة، في الوقت الذي يقول فيه بأنه لم يحن الوقت المناسب ليقدمني لناشره.

هل كنت أريد أن ألهو به، أن ألعب بالنار كما يقولون، وأؤجج مشاعر حبه لي، هو الذي كان يعتبر دوماً بأنه لم يحب امرأة في حياته، لأنه لم يصادف المرأة التي جعلته يركع، هل كنت أريده أن يركع؟ ربما، أم أن شعوراً مهزوماً في داخلي تجاه زمن يسحق إنسانيتي وموهبتي وكرامتي، ويجعلني كقربة جوفاء، يملؤها الذعر من كل محاولة صادقة للتعبير عن الذات. أعتقد أنني في غزلي الكاذب له، وادعائي أنني أفكر به، ورش قبلاتي الحارة في رسائلي إليه، كنت أعترف بهزيمتي تجاه زمني الذي كان يجسده هو، كنت أتصرف كمُنتهكة، كنت أحس أن

الزمن الذي يضطهدني هو الزمن الذي يُمجّده وبالتالي كانت شهرته تذلني بطريقة ما، كنت أحياناً أجبر نفسي على مراقبة تصرفاتي وإخضاعها لفحص دقيق، أدهشني عمق الذُعر والإحساس بالذل المعششين في أعماقي فذات صباح تعرضت لظلم قاس وغير مبرر من قبل مديرتي في العمل. وبدل أن أواجهها وأوضح لها حجم الظلم الذي لحق بي، وجدتني أقدّم لها هدية وأنا أبتسم لها ابتسامة ودّ وامتنان أتقنتها عضلات وجهي من كثرة التدريب، وكانت النتيجة أن قبلت الهدية ولم ترفع الظلم عني.

فكرت أن أهم شعور يميز الإنسان، ومن دونه يكون مسخاً هو الإحساس بكرامته الشخصية بأنه محترم ومحصّن ضد الإهانات، كنت ضحية شعورين متناقضين في آن، أولهما أنني لا أساوي شيئاً، وثانيهما أنني أمتلك موهبة كامنة في أعماقي، كدرّة لا تقدر بثمن، وكنت أستطيع أن أعيش الشعورين في وقت واحد، وكان الزهو الذي يولده إحساسي بموهبتي يتأبط إحساسي بعدميتي وتهميشي في مجتمعي كنت مجرد موظفة، عملي في الواقع هو البطالة الأبدية، وراتبي حقير، وحياتي الاجتماعية مقفرة لسبب رئيسي هو شح الراتب الذي كان يضطرني أن أبقى بحالة شلل، لكن رغبتي بالكتابة كانت تطفو فوق شخصيتي وفوق حياتي، كنت قادرة أن أكتب حتى وأنا أحتضر من العذاب، حتى وأنا أتخذ قرارات بتبرير انتحاري، كانت الكتابة شيئاً لا علاقة له بما حولي، هوى قائم بذاته، نقطة من ماء إلهي نزلت في روحي، لا تجف ولا تنضب مهما اشتدت حرارة القهر الخارجي، كانت الكتابة أشبه بالمغناطيس يجرني باتجاهه، لكني لا أعرف أين يختبئ؟ كان هوى الكتابة يقودني إلى مقاهي الرصيف، ويجعلني أسكب روحي على الورق، وغالباً أضطر لطلب أوراق من النادل، وإذا لم تتوفر لديه، كنت

أكتب على المناديل الورقية في حقيبتي متحاشية ثقبها بالقلم، كنت أسيرة تلك القوة الإلهية التي تسمى الموهبة، وكان يحلو لتلك القوة أن توقظني من عزّ نومي لتقودني إلى أوراقي، كي يتدفق نسغ روحي حبراً، وإذا كان البعض يعتقد أن الكاتب يحتاج لمؤثرات خارجية كي يكتب، فإنني كنت أخضع لمؤثراتي الداخلية أكثر بكثير من المؤثرات الخارجية، كنت أنصت مبهورة لهذا الهدير الأشبه بصوت المياه الجوفية أو مياه الينابيع المتدفقة في أعماقي، وكانت اللغة ترتطم بذهني كرذاذ مطر لا يتوقف، كنت أتوه في المعاني والمفردات والتركيبات اللغوية، وكانت اللغة أشبه بقطرة زئبق كبيرة كلما أردت حبسها بيدي تفتتت إلى مئات الكرات الصغيرة، فأعيد لحمها وأحاول مجدداً السيطرة عليها، كنت على صراع مرير مع اللغة، أريدها أن تصير حالة، أن تصبح صورتي، هويتي، حزني، قلقي، فرحي وموتي، كنت أغرق نفسي في قراءات تحليلية لروايات العظماء، وأترك نفسي تنسحر بالتراكيب اللغوية، وكنت بعد قراءات طويلة لنتاج هؤلاء المبدعين، أدخل بحالة تشبه الغيبوبة، كنت أنصت فيها لبقبقة التفاعلات الداخلية، ثم كنت أبدع لغة تشبهني وتحمل بصمتي.

كنت أغرق ساعات في ظلال روحي، بحالة ترقب وانتظار لمجهول أؤمن به ولا أعرفه، وكانت عيناي تومضان ببريق نجاحات قادمة أحدسها بطريقة ما، وأحياناً كنت أتوه وراء أحزان لا حصر لها. تمكنت من دفنها عن طريق نسيانها، كنت أسارع إلى ذر الرمال في عيون أحزاني كي لا تتهيج مجدداً، كنت أمسك قلمي بوضعية الاستعداد، وأحضر أوراقي ناصعة البياض والتي أشترط ألا تكون مخططة كي لا يحد أفكاري عائق حتى لو كان خطاً باهتاً، وكنت أحاول أن أسكب هذا المخزون العاطفي الكوني اللامحدود والأبدي على الورق، وبواسطة

الحبر، كنت أشعر بحزن وإحباط شديدين، تجاه ما يمور بداخلي عاصفة من الكلمات، وتشكيلات لغوية لانهائية، وصور تتساقط في خيالي من كل الاتجاهات، وكنت أقتنع كلما أمعنت في الكتابة معتصرة روحي أن الصمت هو أكثر بلاغة من كل الكلمات، وأن الله حين خلق الكون كان صامتاً، ذلك الصمت الذي يفتق كل المعاني الساحرة، والذي يولّد في الروح الموسيقى الكونية التي يعزفها الصمت وحده، لكني كنت أشعر بالنتيجة بشيء من الرضا كوني أقمت علاقة ودية مع اللغة، كوني استرضيتها وطوعتها بين يدي، ولأنها قبلت صداقتي، وارتضت أن تأخذ شكل أفكاري وأحاسيسي.

كانت روحي بعد مخاض طويل، وبعد أن تهيم في الفضاء بين المجرات، محاولة حلّ لغز الحياة والخلق، تعود بلغة جديدة، هكذا كانت الكتابة بالنسبة لي، سرد أشياء حياتية إنما برؤية مُخلّص.

• • •

لم يكن لرسائلي له ترتيب معين، ولا نهج، ولم أكتب أية رسالة بناء على فكرة مسبقة، كانت رسائلي عبارة عن أوراق مبعثرة من حياتي، من نظرتي وحكمي لما مرّ معي، وأنا أطل من منتصف عمري على ما مرّ معي، رسالتي الأولى التي اعترف لي أنها فتنته، وكان يستعيدها كل يوم بدأتها بشحنة قوية من الانفعالات الغامضة، وانتبهت عرضاً إلى أن دموعي كانت تتهمر وأنا أكتب، حين لمحت الحبر يذوب في نقاط الدمع المتساقطة. كنت أحب أن أتحدث عن نفسي بضمير الغائب، الذي كان يعطيني حرية أكبر في التعبير.

(كان والدها حفيد كاهن، يفهم الكون كله من وجهة نظر الروم الأرثوذكس، حتى علاقات الكواكب مع بعضها كان ينظر إليها نظرة دينية، كان يكره كل الأديان الأخرى، والطوائف المسيحية أيضاً، كان

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يتهم الموارنة بالتسلط، والبروتستانت بالكذب والسطحية، خاصة حين يصرون على تجنب القسم باسم الله، ويقسمون بالصدق، كان يقول لنا – نحن أولاده الذين نعيش تحت خيمته الفكرية – بأنهم حين يحلفون بالصدق فهم كذابون.

وكان والدها مؤمناً بأهمية دخول أولاده في جمعيات التعليم الديني التابعة لكنيسة الروم الأرثوذكس. والتي يديرها أشخاص جامعيون عادة يسمونهم (الأخوة) كانوا يدرّسون الدين المسيحي لطلاب أصغر سناً. ويعظون في الأخلاق المسيحية، وكيفية العيش حياة مسيحية حقة، والأخوة أنفسهم يحضرون اجتماعات يديرها رهبان ومطارنة، وآباء روحيون – من حين لآخر –.

ومنذ طفولتها تعوّدت أن تحضر اجتماعات الجمعية الأرثوذكسية التي تجري عادة في قاعة الكنيسة خارج أوقات القدس الإلهي، حيث تتجمع كل فئة مع مرشد أو أخ. كانت قصص القديسين تحتل القسم الأعظم من الدرس، قصص متشابهة تملؤها غماً ورعباً من بشر اضطهدوا، وتعرضوا للحرق والتعذيب ولافتراس الوحوش الجائعة، لكنهم استمروا سعداء بإيمانهم، كانت مفاصلها تتقصف رعباً، وقشعريرة الرعب تهزّ جسدها وهي تصغي لهذه القصص، وتتخيل مشاهد التعذيب المرعبة، وغالباً ما كانت تدخل حالة أشبه بالغيبوبة وهي تصغي لهذه القصص، إذ تختلط أصوات الأخوة في قاعة الكنيسة، ذلك أن كل فئة كانت تنحي زاوية في قاعة الكنيسة الكبيرة – وكانت صور الأيقونات بعيونها الواسعة المحدقة بها والتي توبخها لأنها تحزر أنها لا تؤمن في العمق بما تسمعه، وروائح البخور الكثيفة في هواء الكنيسة المحصور تجعلها في حالة أقرب للغياب. لكن لم يخطر لها يوماً أن تناقش جدوى مدارس التعليم الديني، كانت شيئاً مسلّماً به، كالمدرسة تماماً، وكانت

تخشى أن تعترف أمام والدها أنها تحس بوطأة الخوف والقلق بسبب هذه الدروس، التي جعلتها تشعر أن الله يتربص بها في كل لحظة، ويسجل في دفتر كبير خطاياها، ليحاسبها يوم القيامة، كانت تكره سر الاعتراف، حين تضطر مرة في الشهر أن تركع أمام الكاهن لتعترف بذنوبها، كانت تختلق ذنوباً كي لا تظل ساكتة، وحين كان رأسها يتحرر من قبضة الكاهن التي تضغط على رأسها من خلال قطعة قماش طوال وقت الاعتراف، كانت تقوم لتتنفس الصعداء، بعد أن يطلب منها الكاهن أن تردد ثلاث مرات وبخشوع: (يا الله اغفر لي أنا عبدك الخاطئ).

ظل ذهنها الطفولي سجين ثنائية الخطيئة الأصلية، ويوم القيامة حيث ستجرى محاكمة جماعية للبشرية كلها، ما كانت تعرف لماذا عصا آدم وحواء مشيئة الله وأكلا من الشجرة المحرمة؟ ولماذا ترتب عن سقوطهما سقوط ذريتهما؟!

ذات يوم سألت الأخ المرشد: ما ذنب أولاد آدم وحواء كي يرثوا الخطيئة الأصلية؟

قال بإيمان أعمى: لأنهم ورثوا طبيعتهما الفاسدة، ولأن الطبيعة الفاسدة تعني المرض والألم والعذاب والموت.

كانت تشعر بحزن ثقيل وهي تحس بانقضاض الظلم الكبير عليها، هي الخاطئة التي لم تخطئ، كان عليها كل صباح ومساء أن تقف بخشوع لتتلو الصلاة الربانية، وتستغفر الله عن ذنوبها الموصولة بذنب آدم وحواء اللذين خالفا مشيئة الله وأكلا من فاكهة الشجرة المحرمة، كانت مؤمنة أن آلام الدورة الشهرية هي بسبب السقوط، نوع من العقاب كون أجدادها عصوا أوامر الله.

لكن كان لهذه الجمعيات الدينية ميزة رائعة دفعتها للتعلق بها بقوة، هي أنها المنفذ الوحيد للاختلاط بالجنس الآخر، فالاجتماعات مختلطة،

والنشاطات الاجتماعية والمخيمات مختلطة، كان الجنس الآخر المغيّب في الواقع والمدرسة والذي تتوق للاقتراب منه، تجده لصقها في جمعيات التعليم الديني، فتحس بسعادة غامرة وكأنها تهمس لنفسها بنشوة: هذا هو الذكر، هذا هو الشاب البعيد البعيد، إنه قربي الآن، أستطيع أن أكلمه وأنظر في عينيه.

أجمل أيام سنتها الدراسية كانت حين يصحبهم الأخوة لقضاء بضعة أيام في أحد الأديرة، أو القرى حيث يعلمون أطفالها التعليم الديني، كانت تحس بنشوة مستمرة من العيش ضمن جماعة متكاملة من الشبان والشابات، الاستيقاظ الباكر، تناول الفطور، الصلاة الجماعية، ثم السير في الطرقات الجبلية ساعة أو ساعتين، وبعدها قراءة إصحاح في الإنجيل وتفسيره من قبل الأخوة، وفي فترة بعد الظهر كانوا يعدون لمسرحيات ونشاطات برعاية الأخوة، وفي اليوم الأخير للمخيم كان حزن الفراق يعتصر القلوب الفتية، وينتزع الدموع من العيون التي تعودت أن ترنو إلى بعضها بخفر ونشوة.

في نهاية مرحلتها الثانوية، توضحت صورة الله أكثر في نفسها، صار النهي الذي يلعبه في حياتها محدداً أكثر، وأحست أنها محاصرة ضمن قوسين، الحرام والحلال، كانت تلك المرحلة تحمل حرباً مبطنة للغريزة الجنسية، لكنها لم تكن تعي بوضوح ما يعتمل في نفسها من مخاوف، وكيف تتشكل العقد، الإرهاب الحقيقي الذي كانت تحسه هو في ساعات الرياضة الروحية التي بدأت تمارسها مع فرقة المحبة – وهو اسم فرقة التعليم الديني التابعة لها – في المرحلة الثانوية، كان الإخوة المرشدون يطلبون من أفراد الفرق الدينية، الركوع وإغماض العينين، والخشوع التام والصمت المطبق، ثم التأمل العميق والتدريجي بالذات والآخر، والكون، ليتمكن كل فرد بالنتيجة من محاسبة نفسه في ابتعادها

عن الله وفي محاولة الاقتراب من الخالق، والتوبة العميقة، ولمحاولة تنقية الروح والذهن من الأفكار الشيطانية والشهوات التي تهب بزخم عنيف، ويصعب ضبطه في مرحلة المراهقة كان يفترض بها أن تتذوق حلاوة الله وتحس بمحبته اللامتناهية للخلق وهي مغمضة العينين. كانت تمتثل لأوامر الأخوة بضرورة التركيز الذهني العميق، ونسيان العالم الخارجي وطرد صوره التي تحفّ بذهنها، لكنها كل مرة كانت تُروّع حقاً من هجوم صور جنسية شديدة الإثارة إلى ذهنها، كانت ترتعد خوفاً من نظرات الله المسلطة عليها في فضاء المكان، ولا تعرف سبباً لتلك الإثارة الجنسية التي تحسها وهي تركع بين رفاقها مغمضة العينين فيما صمت مطبق يسربلهم كوشاح من حرير، كان حفيف أنفاسهم يتناهى إليها كحفيف قبل تتمنى لو تكتشفها وكانت تسترق النظر إلى أجساد أصدقائها من خلال أهدابها التي تتجرأ وتفك اشتباكهما، فترى جمال النشوة المرفرفة حول وجوههم، إغماضة عيونهم الحالمة، ونقاء بشرتهم الحريرية، والشفاه المغلقة باستسلام المنداة، كأنها تنتظر قبلة، كانت تعنّف نفسها بقسوة من دنس أفكارها، وكيف أنها لا تستطيع مقاومة الشيطان الذي يهاجمها في أنقى لحظات حياتها، مفسداً نشوتها الروحية التي تجبر نفسها أن تحسها لكنها لا تشعر في الواقع سوى بنشوة جسدية، كانت تتخيل أجساداً عارية شفافة بيضاء، من نور، لشابات وشبان، تتداخل، تتعانق، تتلامس في وضعيات ملتوية رائعة، كأنها ترقص رقصاً إيمائياً، ما كانت تعرف أن ما تتخيله وقتها هو النشوة الروحية وبأعمق درجاتها، ترى أليست النشوة الجنسية نشوة روحية أيضاً؟ بعد تلك المرحلة بسنوات، تتذكر دهشتها العظمى حين قرأت كتاباً وقع بيدها بالصدفة عن المتصوفين، والرهبان الذين يقضون حياتهم بعيداً عن الناس

في صومعة في جبل أو دير كيف أنهم في لحظات توحدهم الكلي مع الله، وتحولهم إلى صلاة، كانوا يصابون بالانتصاب والقذف! صعقت حين قرأت هذه الحقيقة، وبدت لها مهينة، بل أحستها عاراً حقيقياً، احتاجت لسنوات طويلة كي تفهم أن الروح والجسد صديقان وليسا خصمين. لكن جوهر التعاليم الدينية كما نشأت عليها كان يعتمد على قهر الجسد واحتقار شهواته وضرورة محاربتها وسحقها والتطهر منها. طوال سنوات مراهقتها كانت تشعر رغماً عنها بحقارة الجسد ورفعة الروح. لم تجر مرة واحدة مناقشة مواضيع حياتية جنسية مع المراهقين الذين كانت تتفجر في أجسادهم الرغبات، ويستسمحون الله على هيجان جسدهم البكر، بدفق الشهوات العذراء المتفجرة في غددهم، كان الأخوة المرشدون يغيّبون موضوع الجسد، لدرجة كان يعتقد كل عضو في فرقة التعليم الديني أنه وحده الشاذ الذي يفكر بالجنس الآخر، وشياطين الشهوة تتنطط في ذهنه، أما رفاقه الآخرين فليسوا مدنسين مثله.

ما كان يعذّبها في العمق كونها لم تنج من شعور الإثم، الذي يولده تفتح الشهوة في جسدها، وتشعر بندم حارق حين يضطرها الشوق العميق للرجل إلى ممارسة العادة السرية، كانت تنتهي من فعلها الآثم مبللة بالخجل، لدرجة كانت تغمض عينيها خجلاً حين تلمح الإنجيل حزيناً على طاولة دراستها فتشعر أنها خيبت أمل الله فيها، كانت تحس بنظرات الله تحرق كتفيها، ترصدانها بألم واحتقار وهي مكورة حول نفسها غارقة في فعلها الآثم.

مراراً كانت تتمنى لو تصرخ في وجه المرشد الروحي أو الكاهن: لماذا خلقنا الله هكذا؟ لماذا هناك صراع مرير بين الروح والجسد؟! ولماذا يدفعنا الجسد في طريق، بينما الروح تدفعنا في الطريق المعاكس.

تكللت خيبتها حين التقته، اعتقدت أنها صادفت الحب العظيم، كان

يكبرها بعامين، يدرس الفلسفة في جامعة بيروت، ويحضر من وقت لآخر الاجتماعات الدينية الأسبوعية لفرقة المحبة المكونة من خمسة عشر شاباً وشابة، لم تستطع أن تمنع عينيها من التحديق بوجهه المتسربل بالنور والمشع بالسلام الذي لا يتأتى إلا من ضميره المرتاح، شعرت بمدى انجذابه إليها من الاحمرار المباغت لأذنيه، ولاضطراره من حين لآخر إلى رفع نظارته ومسح نقاط العرق المتجمعة في زاويتي عينيه، أمكنهما أن يصغيا إلى الخفقات الأولى الخجولة لقلبيهما، وحين ضمتهما الرياضة الروحية، كانت المسافة بينهما أقل من نصف المتر، كانا راكعين على العارضة الخشبية لمقعد الكنيسة مغمضي العينين، مطالبين بالغوص في دواخلهما طوال ساعة كانت صور محمومة تحفّ بذهنها، وكانت تتخيل دون حول ولا قوة، عناقاً محموماً بينها وبين ذلك الأخ الغريب، الذي حرّك هوى الأنثى الأصيل في روحها للالتحام برجل، كانت حمرة داكنة تصبغ وجنتيها وهي تتخيل متحرقة بالشهوة. يديه الناعمتين بأصابعهما الرشيقة الطويلة، كأصابع عازف البيانو، تهصران نهديها المكورين الذين لم يريا النور الساقط عليهما من حدقتي رجل. كانت مرتبكة بجسدها الذي يزداد رطوبة في بعض مناطقه الأكثر نبذاً في الكنيسة، وكانت تشعر بشهوته المنتقلة إليها بكثافة رغم إغماضة عينيه واستغراقه في تأملاته من حين لآخر. كان يتناهى إليهما صوت المرشد الروحي الوقور الحالم: يا إخوتي يجب أن نواجه أنفسنا بصدق، وأن نطلب المغفرة من الله على خطايانا الكثيرة، كم كانت بعيدة عن الأجواء الروحية الخرافية، وهي تحس بحلاوة إثمها العنيد والمشاكس، أسعفها الحظ بالتعارف إليه عن كثب، لأنه شارك في رحلة إلى دير مار جرجس التي اشتركت فيها فرقة المحبة مع فرقة الرحمة. جلس إلى جوارها في الباص واستمرت شهيتهما للكلام ثلاث ساعات، كانت تشعر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بنشوة تهريب الأشواق بينهما عن طريق نظراتهما النهمة، بينما عقلهما يضطرهما لقول كلام مدروس ومنمّق وشديد التهذيب، تمنّت في لحظات كثيرة، لو تسند رأسها إلى كتفه، لو تداعب ذقنه الخفيفة المشذّبة، لو تقبل شفتيه الشديدتي الحمرة. وكانت تشعر بنظراته تتلوى على شعرها المسدل بصورة فوضوية على كتفيها، وكيف يتشممه خلسة، استمرت لعبة تسخين العواطف بينهما طويلاً، كان في سنته الثالثة في دراسة الفلسفة متخماً بالأسئلة والشكوك، بدآ بعد تلك الرحلة عهداً جديداً من الصداقة المميزة التي تحتل الرسائل عصباً هاماً فيها، ما كان يغيظها كونه يبدأ الرسائل بتعبير أختي نازك وبختمها بعبارة ضبابية (مع محبتي) كانت تفسر تعابيره بأنه يخجل من البوح لها بحبه، وكانت أفكاره وعواطفه تتدلق بسخاء على الورق، وكان يراسلها بغزارة من بيروت، وفي كل مرة يلتقيها يهديها كتباً تدخل عظيم البهجة إلى قلبها، هي بدورها كانت تراسله وتبثه أشواقها البكر، ومع كل رسالة تتلمسها منه كانت تترقب بقلب واجف أن يبوح لها بحبه، ولكن انتظارها لهذا الإعلان العاطفي طال، حتى أخذت تدخل بنوبٍ من العصبية المفاجئة التي تثير دهشة أسرتها وأصدقائها، وخلال عام كانا قد كتبا أكواماً من الرسائل، واحترقا برغبات وأشواق هائلة، كانت تنتظر المبادرة منه، وتحدث نفسها بأن المبادرة يجب أن تكون من الرجل دوماً، كانت تشعر بمدى شوقه لها حين يلتقيان بعد غياب أسابيع، وحين يتصل بها لتسارع إلى لقياه، كانت تشعر أن قلبها يقفز أمامها كجرو صغير، لم تعد تطيق الصبر، تجرأت وسألته ذات يوم إن كان قد أحب. نظر إليها بحنان غامر، وكأنه يمسح وجهها بطيب نظرته وقال بصوت عميق خارج من دهاليز روحه: إن طريقي ليس طريق الحب البشري.

فغرت فاها دهشة وسألت: ماذا؟! ماذا قلت؟!

قال وتعبير السلام يشع من ملامحه: طريقي محدد، لقد اخترت طريق الحب الإلهي.

سألت وقد أحست أنها تتجفف بنار اندلعت فجأة في جوفها وأحرقتها: ماذا تقصد؟

ابتسم بوداعه وقال: المسيح هو طريقي.

ودت لو تصفعه، لو تبصق بوجهه، لو تشتمه وتصرخ بصوت كالجعير: والرسائل، والأشواق، والنظرات الملتهبة، والحب الخجول، كيف عساني أفهم كل هذا الخليط؟ ألا ترى أننا متحابان؟! كيف تضلل نفسك هكذا؟ لكن ما علاقة مسيحك بالحب؟ هل ينهاك أن تحب فتاة؟

لكنها أفلحت في كظم ثورة غضبها، وسألته ببقايا صوت تشظى من الخيبة: كيف تفكر أن تعيش حياتك؟

– سأترك دراسة الفلسفة، لأنها لم تعطني سوى الشكوك والألغاز، سأسافر إلى اليونان لأدرس اللاهوت، ولا أزال متردداً إن كنت أصلح لأكون كاهناً أم لا.

رددت كلامه بدهشة عظيمة: أنت تصير كاهناً!

قال بوداعة والابتسامة لا تفارق وجهه: أجل.

شعرت أنه يسخر من ألمها الذي ما عاد محتملاً، سألته سؤال اليائس: إذاً ألا تفكر بالزواج؟

قال: إطلاقاً، المسيح هو طريقي.

وبشجاعة اليائس سألته: وهل يمنعك المسيح أن تحب وتتزوج؟

ابتسم، لم يجب، كان يتأملها بوله عشقي ولا يقول شيئاً. رشقته بنظرات متألمة، فهم أنها تعاتبه وتسأله تفسيراً عن كل ما بينهما، عن عالم الأحاسيس المحبوسة في قمقم والتي تنتظر شرارة الاشتعال.

قال لها وقد حاصرته نظرتها: أنت أخت غالية جداً يا نازك، أتمنى لك السعادة من كل قلبي، وأتمنى أن تجدي طريقك في الحياة، صدقيني أنا أحس بدعوة لا تقاوم لأتبعه، لقد تركت دراسة الفلسفة لأجله، وأدرس اللاهوت لأجله، إنه حياتي التي لا معنى لها بدونه.

سألت بسذاجة: من هو؟

قال مؤكداً: المسيح، المسيح.

ودت لو تصرخ: لكن هل المسيح يريدك مخصياً.

تحول الصراخ لدموع رشفتها إلى بلعومها، مانعة إياها من الانسكاب على خدها.

كانت هذه أول خيبة عاطفية تعيشها مع شاب خصاه إيمانه.

لكن، ماذا يمكن أن تسمي ما بينهما سوى حب؟ كان عويل في داخلها يشتد حتى الجنون، وتارة تدخل روحها في أنفاق الذهول، عجباً كيف يكون الحب إن لم يكن كالعلاقة بينهما؟ تذكّرت ذات أصيل، كانا في إحدى القرى النائية التي لا يعرف مسيحيوها الكنيسة لعدم وجود كنيسة في قريتهم والقرى المجاورة، كانت تجمع أطفال القرية بناء على تعليمات مرشدها الروحي وتحكي لهم قصصاً من الإنجيل، كانت تملك موهبة القصّ لأن عيون الأطفال تظل معلقة بها لا ترف، متلهفة لمزيج من القصص، كيف شفى المسيح الأعمى والأبرص، كيف قام بمعجزة إكثار الخبز والسمك، وقد سألها أحد الأطفال لماذا لا تتكرر هذه العجائب، خاصة معجزة إكثار السمك؟! ووسط ضجيج الضحك، وسخرية رفاقه عليه، أحست بارتباك ولم تعرف كيف ستخرج من مأزق السؤال، ولا بماذا عليها أن تجيب؟

كان وقت الغروب ساحراً حقاً، والشمس تتبدى بلون برتقالي محمرّ من خلال أغصان أشجار الصنوبر والسنديان، كانت تقف أمام الأطفال

الذين يفترشون الأرض ويطالبون بالمزيد من الوعظ الشيق، وهو غير بعيد عنها، يجلس على صخرة واطئة ويتأملها بوجدٍ لا يفتر، وقد رسم وجهه ابتسامته الوديعة المنتشية، كانت تبدع في قصصها لأنها تحس أنها محتواة في حنان نظرته، وحين انتهت من حكاياتها المُستقاة من الإنجيل، تحلّق الأطفال الصغار، الفقراء وأشباه العراة، يلمسونها ويقبلونها ويعبرون لها عن حبهم الكبير، بكت تأثراً، ضمت أجسادهم النحيلة بحب لامحدود شمل القرية كلها والكون بأسره، حب كوني كما أحسته يطوف من قلبها الصغير وينتشر مع الأثير، انتابتها قشعريرة وهي تدرك أن هؤلاء الصغار الأميين والمعزولين قد مستهم كلمة الله وسحرتهم، وهي الوسيط الذي سكب كلام الله في قلوب الصغار، لقد تكلم المسيح من خلالها، لم تستطع منع دموعها الروحية من الانسكاب، كان نشوة روحية تهز جسدها كله، وهي ترنو لأجساد الصغار تبتعد عنها وضحكاتهم وصيحاتهم تتباعد، ويترجّع صداها سياجاً من الأمان يحيط بها. اقترب منها، وجثا على ركبتيه بجوارها، ومسح دموعها بظاهر كفه، ثم قدّم لها منديلاً قائلاً بصوت يتعبد عشقاً: لا تبكِ يا نازك، أنت رائعة حقاً، أنت مدهشة، كانت تجلس على حجر كبير عاجزة عن السيطرة على هيجان مشاعرها وكانت سعادتها تعادل تعاستها في تلك اللحظة، أسعدها أنها أدخلت الفرح إلى قلوب الصغار، وأتعسها مدى بؤسهم وجهلهم، لكن كيف عساها تفسّر ذلك الموقف؟ إنه يجثو أمامها، يتأملها بعينين دامعتين من الوجد أيعقل أن يكون هذا حباً أخوياً؟ لو تجسّد المسيح في تلك اللحظة أما كان يبارك حبهما؟ هل كان يمانع لو ارتميا على العشب ومارسا لغة الحب الروحية الجسدية، أو الجسدية الروحية؟! ترى ما الفرق بينهما؟ ألا يشبه ذلك النقاش العقيم حول من سبق في الوجود البيضة أم الدجاجة؟! وحين يلتحم جسدان عاشقان وتخضهما نشوة

واحدة، ألا تكون هذه هي النشوة الروحية؟ أما تكون روحاهما منطلقتين من أسر الملل واليأس والوحدة إلى فضاءات نورانية ساحرة، أجمل ما فيها الانصهار بالآخر ومتعة المشاركة؟

إنها لا تصدق أنه نذر نفسه للعذرية، وبأنه سيموت دون أن يعرف امرأة! يا للجنون! يا للأسف الذي يصل حدّ الاحتقار؟ أي سخف أن يقهر الإنسان جسده، طاقة الشهوة التي ما هي سوى القوة المحركة للحب والاستمرار، ما معنى أن يسافر إلى أحد الأديرة البعيدة في اليونان يتعبد لإله يطلب منه أن يسحق جسده كدودة، كرهته بقوة حبها له، الحب والكره وجهان لعملة واحدة، كان خيالها يحاول خلق صور لتعزيتها، إذ تتخيله راجعاً إليها بعد فترة يتوسل إليها أن تسامحه ويعترف لها بحبه الكبير، عندها سترشقه بنظراتها الحاقدة وستطرده، وستتركه للندم ينهش في روحه... وحدها هذه الصور كانت تفلح في التخفيف من شدة غيظها ونقمتها عليه.

تركها دون تعزية، تسترسل مع أحزانها دون شريك، يملأ غرف روحها أسى لا محدود، سافر دون أن يكتب لها رسالة، تهرّب من لقائها على انفراد، ودّع فرقة المحبة التي جمعتهما عاماً كاملاً، وانسل هارباً متحاشياً أن تلتقي عيناها بعينيه، كانت تمر بلحظات تشعر فيها أنها تطل على عالم الجنون، وعاجزة عن الفهم، كانت تتفرج على انسحاق حبها، عقلها يرجوها أن تنسى تلك التجربة، لكن قلبها يعوي ألماً، والجسد يتأوه من الحرمان، بدا لها من الجنون حقاً أنه لم يحاول لمسها مرة واحدة، وأن شهوته لعناقها لم تدفعه لاختراق حاجز عذريته النفسية وشقّه، أي ضلال هذا كبح شهوة الحب باسم المسيح؟! وفي نهاية رحلة آلامها كان المسيح ينتصب بينهما بريئاً من عواطفهما، شفافاً وحزيناً، كان يستسمحها نيابة عنه، لكن مسيحه كان يكافؤه على صموده في وجه

الشهوة، تلك القوة الشيطانية التي تعلّم أنه يجب أن يعيش عمره ليخنقها... نازك هي الشهوة، الشيطان يدفعه لاشتهائها، للرغبة بوصالها، لكنه سيقهر الشيطان، وسيختار المسيح!!

• • •

تركها تتوه بين الأسئلة، ابتدأت بالسؤال الذي لا مفر منه لكل بشري في مرحلة ما من حياته: من أنا؟ لكم بدا لها هذا السؤال ساذجاً ومخيفاً في آنٍ؟ كانت تطرق متسائلة من أنا؟ وتجيب باستخفاف: أنا. أنا. لكن الضباب بدأ ينقشع عن ذهنها، وبدأت تعي أنها مركبة قطعة، قطعة وفكرة فكرة من قبلهم، وبأن أفكارها منسوجة من خيوط أفكارهم، لكن كيف عساها تعرف ذاتها الحقيقية؟ كيف ستعود إلى البذرة الأولى التي تبرعمت منها، وما وسائل المعرفة لديها سوى وسائلهم أيضاً، لكن لا يجب أن تستسلم، إنها تكتشف الآن الخطوط الأولى في شخصها وهي الرفض، أجل لولا الرفض لما أمكن تطوير الحياة، إنها ترفض أناها الذي شكلوه هم، وترفض التعليم الديني الذي أرهق روحها وأعصابها بمفهومي الحرام والحلال، تتوق حلمتاها لشق القميص والتعمد بنور الشمس، تتوق شفتاها لقبلة تعطي فيها روحها وتأخذ روح الحبيب، الفم لم يخلق للطعام بل للقبلة، واليدان لم تخلقا للاشتباك والصلاة فقط، بل لاحتضان جسد الحبيب وتحسّسه، ثورة الحواس تتفجر من مسامها، لم يعد شبح الدين قادراً على قمعها، جسدها مشبع بهورمونات الحب، غددها الفتية تفرز عسلاً فيزداد الهدير الشبق في دمها، الحياة تدعوها للارتماء في حمام النور والهواء، والتمرّغ في متع الحواس، فكيف ستقاوم؟ أي سخفٍ أن تقاوم؟ ولماذا عليها أن تبكي حبيباً خصاه إيمانه، لكنها لا تزال تتزف ألماً وهي تستعيد موقفه الأخير بأنها أخت له وليست حبيبة، طار صوابها من موقفه، يا للنفاق والكذب والخداع في سبيل

مسيح مُبتدَع لا يهمه سوى دفع الشباب إلى الأديرة ليقضوا حياتهم يصارعون شيطان الشهوة حتى تهزمهم الشيخوخة، فيعتقدون أنهم وصلوا للطهارة والعفة الحقيقيتين!

قذفت بنفسها في مخيم جامعي للشبيبة الأرثوذكسية لمدة خمسة أيام، في أحد الأديرة؛ كانت في حالة من الهياج والرفض والمشاكسة لكل شيء تسمعه، لم تكن تشارك في الصلوات، بل تتظاهر أنها تشارك فيها، كانت مشاعر النقمة تفترس روحها، وكانت تشعر بالاشمئزاز من منظر الشبان والشابات يتحلقون حول المرشد الروحي يطرحون عليه أسئلة معتقدين أنه سيحصنّهم بأجوبته ضد صعوبات الحياة. ودت لو تصرخ بهم، الحياة ليست هنا، ليست هنا، بل هناك، لكن هذا (الهناك) ظل غامضاً بالنسبة لها، كانت تتخيله صراخاً من الألوان والشهوات والعواطف الجامحة.

كانت عواطفها في حالة غليان حين التقته، كان أخا صديقتها التي تعرفت بها حديثاً في المخيم الجامعي، ورغم أنه يصغرها بثلاث سنوات، إلا أن رجولته المتفتحة ألغت كل التحفظات والممنوعات التي كانت مضطرة إليها بحكم تربيتها، كانت تجلس تحت شجرة السنديان الضخمة تتأمل قوامه الممشوق وعضلاته المتينة المفتولة، وشعره الأسود الكثيف المجعد، وعينيه اللامعتين الداكنتين، وحين انحنى ليقبّل أخته ويضع الأغراض على الأرض، كشف شق قميصه مساحة واسعة من صدره الفتي تكسوها أشعار ناعمة سوداء، للحال اخترقها سهم حارق شطرها نصفين، أهو سهم الشهوة؟ قدّمته صديقتها لفرقة المحبة، وحين انحنى شبه جاثٍ ليسلم عليها، غمرته عيناها بضياء اشتياقها للرجل، أحست أن الرسالة وصلته تماماً لأنها شعرت بالرعشة الخفية التي هزّت كيانه، استجاب جسده لنداء جسدها، ودعته دون تحفظ لحضور السهرة، حيث

سيشعلون النار في الغابة قرب الدير، ويغنون ويدبكون، ويرتلون أيضاً... قدّرت سروره العظيم وهي تدعوه للسهرة وأثناء صلاة الغروب كانت تقف في الصف الأخير في كنيسة الدير، تتحرق شهوة لجسده المتناسق الذي كان محصوراً في قميص قطني ضيق، وبنطال جينز أسود، وحين ركع على عارضة المقعد الخشبي واتكأ بمرفقيه على مسند المقعد أمامه، انحسر قميص كاشفاً مساحة من ظهره الأسمر، تمنت بكل شوقها الدفين لو تداعب بحنان بالغ تلك المساحة الساحرة من جسده.

تحلقوا مساءً حول النار وأخذوا ينشدون تراتيل دينية، كانوا يجلسون على بعض الأغطية الصوفية، لفت نفسها بغطاء صوفي وانسحبت بعيداً متعمدة أن تمرّ بجواره لتحفزه على السؤال إلى أين؟ وحين سألها، ابتسمت قائلة: أتأتي برفقتي لنراقب القمر؟ انقاد وراءها كأنه منوّم مغناطيسياً، لم يلحظ أحد انسحابهما، ولم يشك أحد أن أختاً في فرقة المحبة تعلّم الأطفال الدين وتقص عليهم العجائب التي قام بها المسيح، يمكن أن تخطف مراهقاً لتغويه تحت ضوء القمر، متلهفة لاكتشاف جسده. ولاكتشاف جسدها عبر جسده.

من أين أتتها الجرأة لتتمدد على العشب وتغطي نفسها بالغطاء الصوفي وتدعوه للجلوس بجانبها، مبهوراً منفتناً، كانت تشعر أنها بلمسة واحدة ستكومه جبلاً من الشهوة فوق جسدها، لكنها كانت تستمتع بتأجيل قصير لشوقها، كان صوته أقرب للفحيح وهو يسألها إن كان الغطاء يدفئها؟ قالت: إن كنت تشعر بالبرد، اسحب الغطاء وغط جسدك، تمدد إلى جانبها، تلامسا على طول جسديهما، وسرت الشرارة من الكتف إلى الفخذ، وأخذ القمر على عاتقه إحداث شرارة الاشتعال الأولى بينهما، وجدا نفسيهما يلتهمان بعضهما في قبلٍ محمومة، وأنين أعمى من النشوة، وحين كانت تفتح عينيها السابحتين في النشوة، كانت تلمح حبيبها

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الأول يتعبّد محارباً طيفها في أحد أديرة اليونان، كانت تشعر بسخرية شديدة منه، وتعطي نفسها بزخم أكبر للشاب الذي خرقت عذرية جسده، ودعته لخرق عفتها الزائفة.

حين عادا للانضمام لحلقة المرتلين، أحست بسخرية لامحدودة منهم، ودّت لو ترقص حول النار هي وعاشقها الطارئ الذي اصطادته لتعرف عن طريقه لغة الجسد، أمسكت حفنة من الأوراق اليابسة المتساقطة من الأشجار، ورمتها في النار، ضحكت كانت تشعر أنها تحرق كل ما تعلّمته في جمعية التعليم الديني، كانت مذعنة لثورة الحواس. وعكس ما توقعت لم تشعر بأي ندم أو تأنيب ضمير فيما بعد، لم تلتق الشاب الفاتن مرة ثانية، لأنه يسكن في مدينة بعيدة، ولم تتمنى لقاءه، كانت تحتاجه لاكتشاف أبجدية الحب، كان قرار صامت يتشكل في روحها بأنها تريد أن تعيش بجسدها وروحها معاً، متصالحين، ومتساويين في القيمة والجوهر.

• • •

لم أكن أجرؤ بالبوح للكاتب بعدد الرجال الذين عرفتهم، أو الذين تمنيت لو أعرفهم، وحتى الذين حلمت بهم، كنت أحس بضرورة تقديم براءة ذمة أمام كل رجل أتعرّف به، براءة ذمتي من التجارب العاطفية التي يخمّنها هو معتمداً على حريتي الظاهرة وسنوات شبابي، وكوني مطلّقة. كان كل رجل أتعرّف إليه يُشعرني بطريقة مـــا، أنه يقدّر كم رجلاً عرفت، وكنت أتململ محاولة اتخاذ وضعية المرأة المهيضة الجناح التي لم تعرف رجلاً سوى زوجها، وكنت أحتقر نفسي في نفاقها، لكن كان ما أشعره ثقيلاً ويصعب علي الإفلات من وطأته، كنت أذعن لقوى خفية وأقوم بالدور المرسوم لي سلفاً، كنت أعيد الأسطوانة ذاتها: فشل الزواج، وهو التجربة الجنسية – العاطفية التي أستطيع التحدث

عنها بحرية لأنها شرعية، ثم التحدث بشكل مقتضب وغامض عن علاقة أو اثنتين على الأكثر مع رجل، اكتشفت بعد فترة أختصرها إلى النصف غالباً، بأنه لم يكن مناسباً، أحد الذين أعجبوا بي، كان يلحّ عليّ بسؤاله الوحيد: هل كنت أضاجع الرجل الذي أحببته بعد طلاقي؟! وحين كان يحاصرني بسؤاله الخانق، ولا أجد مفراً من الإجابة، كنت أجيب بالنفي، رغم إحساسي أنه لا يصدقني في أعماقه، إلا أنني كنت أتفرّج عليه كيف يسّر لجوابي الكاذب مرضياً ذكورته المتعجرفة، كنت أتساءل: هل يصدّق هذا الأبله أن امرأة كاملة الأنوثة، ومطلقة منذ سنوات، يمكن أن تحب رجلاً دون أن تنشأ بينهما علاقة جنسية؟!

معظم الرجال الذي تعرّفت بهم حتى الذين يحتلون منابر ثقافية، والذين فتنوا جماهير بنتاجهم الأدبي، كان هاجسهم الأول حالما يتعرفون بامرأة متحررة، خاصة إذا كانت تتعاطى بقضايا الفكر، وتؤمن بالمساواة بين المرأة والرجل، هو مضاجعتها، كنت أحس بتعابيرهم الجاهزة والتي يحفظونها سلفاً عن ظهر قلب، كيف يلقونها أمام الغنيمة، أقصد المرأة، كما ألقوها أمام عشرات قبلها، وكما سيلقونها أمام عشرات بعدها، كلمات جميلة شعرية، متخمة بالصور الجميلة ومضمّخة بالأشواق، إنما تفتقر للصدق، تفوح منها الغاية الملحة والوحيدة، مضاجعة المرأة لتحويلها إلى انتصار يضيفونه إلى قائمة انتصاراتهم، التي ما هي سوى هزائم، لأنه ليس أسهل من نيل جسد ولا أصعب من احتضان روح ومعانقتها، مشكلة الرجل أنه تكوّن عبر أجيال وأجيال أن ينظر للمرأة كموضوع متعة، ما كان يعرف كيف سيتجول في غرف الروح الخصوصية والرائعة والعميقة للمرأة.

كنت أصاب بإحباطات عنيفة من سلوك بعض المثقفين زعماء منابر ثقافية هامة، أحدهم كان محرراً في المجلة الثقافية الأكثر شهرة،

وكان يقترب من عقده السادس ولدت بيننا شرارة إعجاب تعززت عبر تبادل الكتب والحوارات الثقافية والاجتماعية، وأحياناً يستغرق حديثنا الهاتفي أكثر من ساعة، كان يسعدني أن أسمع إطراءه لشكلي وشخصي وثقافتي، وتذوقي للأدب والفن بشكل عام، كان يسعدني نقده الدقيق لكتاباتي وتوجيهاته المخلصة لي، هو من ساعدني كيف أتعرّف موهبتي وأتعامل معها، في أوقات متباعدة كنت أزوره في مكتبه في الجريدة، الذي كان يغصّ دوماً بالناس، وكنت أحس بفخر وهو يقدمني لزواره ومعظمهم أدباء، ومثقفون مرموقون، بأنني صاحبة موهبة عظيمة في طريقها لتبلور، ذات يوم زرته في مكتبه، كان وحيداً، طاش من الفرح، لا أعرف إن كان يمثل أم كان صادقاً، لكنني الآن حين أستعيد اللقطة أشعر أنه كان يبالغ في إظهار فرحه تمهيداً للوصول لغايته التي يبدو أنه صبر عليها كثيراً. فما أن جلست على الأريكة وكنت ألهث من الحر ومتضايقة من زحمة المواصلات، حتى حاصرني بقامته الفارعة منتصباً أمامي، وقد التصقت ركبتاه بركبتي، ولم أشعر إلا وقد انحنى فوقي وانقض على شفتي يعصرهما بعزم وقوة بأسنانه وشفتيه، قاطعاً أنفاسي، ثم انقضت يداه على نهدي تهرسانهما. أحسست أنني مصابة بالشلل تماماً، لم أعرف كيف باغتني وافترسني دون أن يهبني ومضة زمنية لأعرف ما يجري.

أحد المثقفين الذي طبع أكثر من خمسة عشر كتاباً، استفاض فيها في وصف الهم الإنساني، وأزمة لقمة العيش، وحكى عن الحب الشامخ الذي يطهّر الروح، ويقدّس الحبيبة، نشأت بيننا علاقة إعجاب خفية كان فقيراً ومنطوياً، ويخجل من بؤس طفولته والأعمال الوضيعة التي مارسها بهدف الحصول على لقمة العيش تلك الأعمال التي تركت ندوب ألم عميقة في روحه، لكنني أحببت فيه تحديه لظروفه، متابعته لدراسته

وتفوقه في الجامعة، كنت أقدّس الأشخاص العصاميين، أسعدنا اكتشافنا أننا نسير في طريق واحد، وتنخطف أرواحنا لهوى الكتابة، كان يسّر بنقدي لكتابته، وبدوره كان يولي كتابتي عظيم اهتمامه. كان طموحنا لامحدوداً بالنسبة للكتابة، وقد بدأ بيننا تناغم خفي لطيف خرقناه برسائل عذبة، لكن مفرداته رغم رقتها وعذوبتها وتفردها، كانت تفشل في إقناعي بصدقها، في كلامه شيء من غش وكذب، كنت أشعر أن للكذب رائحة، وللصدق رائحة، لا يمكن أن أخطئها أبداً، لم يكن يخفى عليّ أنه يختار بدقة عباراته، ويعني بأسلوبه، ويزوق عواطفه، لكني ملت مع الزمن إلى تصديقه، لأن كل شيء كان أهون من الوحدة القاتلة كنت أؤمن بقول زوربا (ليس هناك ما هو أكثر تعاسة من أن تنام امرأة وحيدة في فراشها) كنت أحس بتلك التعاسة وأنا أقبر المساءات مساءً تلو مساء، وأتفرج بعين خيالي على الشباب الذي يقاوم الذبول عبثاً، وحين رمانا وهم الحب في أحضان بعضنا، لم أكن مقتنعة أن ما بيننا حب، لكني أردت أن أوهم نفسي أنه الحب، لا أنكر أنه كان شديد اللطف والرقة في تعامله معي، لكن لمساته كانت أشبه بأسلوبه، مختارة ومدروسة سلفاً، هذا ما جعلني أتأكد أنه لا يحبني لأنه يختار الأسلوب، أما الحب كما كنت أفهمه وأحسه، فهو العفوية والطلاقة المتدفقتان من الحواس دون تصميم مسبق، أفزعني حين طلب إليّ في أكثر اللحظات حميمية أن أساعده مادياً، وكانت أصابع يمناه تداعب عقداً ذهبياً ثخيناً في رقبتي، لوهلة تخيلت أنه سيخنقني ويسرق العقد، شعرت أنني أهوي من القمة إلى الحضيض، وبأنني أتهتك وأتمزق، وزاد إحساسي بالمهانة كوني عارية تماماً بجواره، ولم يتحرج من طلب معونتي المادية صراحة، وجدتني أرد بصوتٍ ميت أنني سأعمل جهدي لمساعدته، في الواقع كنت بالكاد أنظّم شؤون حياتي، تمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني، وتمنيت لو

انتفض وألبس ثيابي وأفرّ هاربة من وطأة علاقة كشّرت عن أنيابها في أكثر لحظات الوهم سحراً. لكني بقيت إلى جواره كجثة هامدة، واستأنف غزله المصطنع لي، وطلب إليّ أن أتمتع بجسده الجميل والمتناسق كما أشاء، أشعرني أنه يهديني جسده، كعطية ثمينة، وكأنه نعمة لا تقدّر بثمن، وبأنه يهديني هذا الجسد الذي كان وسيلته مع العديد من النساء للوصول إلى غايات عديدة يضمرها سلفاً لذلك تكوّنت لديه خبرة في اللطف وفي التعامل مع الأنثى بعيداً عن بعدها الإنساني.

وددت لو أسخر منه وأقول بأنني أصغره بسنوات، وأكثر نضارة وشباباً منه وأنه يتوجب عليه أن يصحح كلامه، فهو الذي يتمتع بجسدي الفتي المتناسق واللدن، لكن ما ظل يذهلني حتى الآن هو حالة الشلل التي أصابُ بها بعد كل صدمة.

تركته يعتقد أنه يمتّع جسدي الميت، موهماً نفسه أنه سيحظى بمساعدتي المادية له، بقدر ما يمتّعني، كنت أهبه جسداً ميتاً، بلا أعصاب، وهو كان يمثل بأنه يغمض عينيه نشوة، فيما أنا أفتح عيني على وسعهما وأرمقه بخيبة واحتقار، كنت أفكر كيف أن الجنس يكون أحياناً قرباناً، وأحياناً سماً.

لقد ظلت ذكرى أصابع يديه تداعب عقدي الذهبي المحيط بعنقي تثير اشمئزازي لأشهر طويلة، لقد لملمت خيبتي بصمت وابتعدت عنه، وقد احتل رجل مثله تفكيري طويلاً، وتحمست بشدة لأكتب عنه، كيف يؤمن بحقيقة راسخة بأن رجلاً مثله يعتبر نعمة لامرأة مثلي خاصة إذا كانت مطلّقة، ومهجورة، كان يشعرني بأنه مفتاح إشباع رغباتي المكبوتة طويلاً وبأنه القادر على إطفاء ظمأي للرجل، أن المهجورة والمطلقة، بينما هو يملك زوجة، أي أنثى احتياط، يستطيع أن يلمسها وقتما يشاء بالحق الشرعي بين الزوجين.

أحد أكثر المجانين في الغطرسة، والذي كان مصاباً بالهوس الجنسي، كان كاتباً بالتراكم، طرح خلال عشرين عاماً أكثر من خمسة عشر كتاباً، بين دراسات نقدية وقصص وروايات لا تتمخض عن شيء، البعض صدّق أنه كاتب بالتراكم، وكان يحتل منبراً ثقافياً هاماً ويتمتع بامتيازات هائلة في السفر والمكافآت المادية، كان يتصرف بطريقة عارية فاحشة، ودون مراعاة أي اعتبار أخلاقي أو اجتماعي، حتى منطقي، كان جميلاً ويملك عينين ناعستين تدربتا على الإغواء، وفماً مكتنزاً بجمال وقواماً ممشوقاً، وروحاً شبقة مهووسة بالجنس، كنت أسمع الكثير من القصص الفاحشة عنه، حتى كان البعض يسخر منه قائلا: بأنه يتهيج لو لمح دجاجة تمر قربه، التقيته ذات يوم صدفة في منزل إحدى الصديقات، سقطت نظرته الأولى عليّ، كما تسقط عينا ذئب جائع على فريسته، عرض عليّ رأساً أن ينشر قصصي في العديد من المجلات والجرائد داخل القطر وخارجه، كانت المقايضة صريحة في كلامه، (أعطني جسدك، أنشر لك) وألحّ أن يوصلني إلى بيتي حين قررت الهروب من فحيحه الصامت الشبق، والذي ملأ المكان بتوترات مزعجة جعلت الهواء يبدو مشبعاً بالزئبق، لكني اضطررت إلى تلبية دعوته أمام إلحاح صديقتي وزوجها. ما أن جلست بجواره في السيارة حتى امتدت يده رأساً نحوي، بشبق ووله غير عاديين، شهقت مذعورة، ودفعت يده بعيداً، فعاودت بإلحاح غايتها المنشودة، أصابتني حالة الشلل ذاتها أمام أية مباغتة غير متوقعة، وصرخت مهددة بأنني سأفتح باب السيارة وسأرمي بنفسي إلى الخارج، لكنه لم يبال بكلامي بل امتدت يده الأفعوانية إلى نهدي تعتصره وتتحسسه كما لو أنه يجس بالوناً ويقدّر مدى انتفاخه بالهواء. صرخت لدرجة لم أتعرف على صوتي، كان أقرب للجعير: كفى يا حيوان، من تظنني؟! كيف تتصرف هكذا؟! كيف!! هل

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أنت مجنون!!

قال ببرود وهو يرمقني بنظراته الناعسة التي تقطر شهوة زنخة: لماذا تقاومين رغباتك؟!

كان قد كفّ عن عدوانه الجنسي أمام فورة غضبي التي أخافته ربما، أمرته بالتوقف حالاً وإلا رميت بنفسي من السيارة، توقف، نزلت وأنا أشعر أنني أفرّ من الجحيم، وراقبت سيارته الفخمة تبتعد حتى اختفت. في صمت غرفتي اللطيف بكيت بحرقة وجسدي يرتجف ألماً، كانت الأسئلة تحفّ بذهني: عجباً كيف يفترض أنني أشتهيه؟ وبأنني أقاوم رغباتي؟ كيف يحتل معتوه جنسي منبراً ثقافياً هاماً؟ ما كانت تهمه فضائحه، وسلوكه الذي صار مدويّاً في الأوساط الثقفية وخارجها أيضاً، هو أكثر من ينطبق عليه قول: عقل الرجل بين فخذيه، بعد سنوات عزل من منصبه بسبب سلوكه الفاحش، لكني تمنيت لو يكتب عنه رواية أو حتى مقالة، يكون عنوانها الساخر المثقف البهيمي.

سقطت زوجته ضحية شقيقة معنّدة لم تشف منها، ولم تطلب الطلاق حفاظاً على اسرتها؟! ترى أي أسرة ستنمو في كنف أب مهووس جنسياً؟!

كنت أحاول دفن هذه الحوادث في أعماق نسياني، كنت أفكر بأننا جاهزين للتحدث بكل شيء، ما عدا الحقيقة وكنت أعرف أن معظم البشر يخافون من قول حقيقة ما يجري معهم، ترى لماذا نخاف الحقيقة؟!

خلال شهرين من دفق رسائلي التي فتنت كاتب البلاد، وتزايد اتصالاتنا الهاتفية التي أبادر بها بناءً على إلحاحه، كان يحب أن يتضجّر دوماً من شهرته الأدبية، ويلعن كهولته، ثنائية مللت منها من شدة إصراره عليها، كان ألق شهرته يحيط بي، وكنت متأكدة من دون أدلّة بأنه بحالة نشوة دائمة من شهرته، وكان يشعرني بأنه ينتصر عليّ – أنا

النكرة – بأمجاد شهرته، وكان يحب أن يحكي لي بتفاصيل مملّة وبتضجّر زائف كيف يلحقه المخرجون والمنتجون لبيع قصصه للسينما والتلفزيون بمبالغ خيالية، وكان يحلو له أن يستعمل تعبير: زوّجت القصة الفلانية مقابل مهر نصف مليون ليرة، أو مليون، كنت أكتم غيظي وأنا أسمع كلامه، وألعن الشهرة في سري، يكفي أن تمس الشهرة أحداً حتى تحوّله لحصان رابح دوماً، لكن في قاع علاقتي معه كان هناك تحدٌ مبطن وحاد، آمنت أن أقوى العلاقات هي التي تقوم على أساس التحدي والمنافسة، كنت أحاربه بشبابي وموهبتي الأصيلة التي لم تشق طريقها بعد، لكني لا أتردد في الاعتراف صراحة أنني كنت أغار منه لأنه عاش خمسة وسبعين عاماً، حصد خلالها الشهرة والثروة، وحالفه الحظ لدرجة كبيرة، وأنا التي أملك من السنوات نصف عمره، أنظر بقلق إلى المستقبل، وأخشى ألا يحالفني الحظ...

بعد شهرين تلقيت اتصالاً هاتفياً من سائقه وخادمه الشخصي في آن يخبرني بأن كاتب البلاد في بيته الريفي المتواضع، وبأنه ينتظر مكالمتي، وسط دهشتي لم أسأله أين هو؟ عرفت فيما بعد أنه كان يجلس بجوار خادمه حين طلب إليه أن يتصل بي، ترى لماذا لا يكلمني مباشرة؟ هل السبب أنه يتجنب إحراجي كما يدّعي؟! لكنه يعرف أنني أسكن وحدي... عجباً، يا لغرابة هذا العجوز المشهور... اتصلت به بعد ساعة من اتصال خادمه، أتاني صوته رخيماً متعباً كالعادة بعد الرنين الأول بادرته بغنجٍ مرح: الحمد لله على السلامة...

قال: الله يسلمك يا ابنتي. اسمعي، سأرسل لك السائق الآن، فأنت ضيفتي على الغداء.

قلت: لكني أنا التي أرغب بدعوتك.

ردّ متضجراً: لا تشاكسيني يا ابنتي. حالاً سأرسل السائق إليك.

قلت: حسناً، أنا بانتظاره.

عجيب أمري، عجيب أمر الأنثى القابعة في أعماقي، لماذا أريد أن أبدو بأجمل صوري أمامه؟ هل أحاول أن أغوي رجلاً تجاوز السبعين؟ هل يحركني فضول تأمل شيخ عاشق أو مثار؟ ترى هل يشعر رجل تجاوز السبعين بالشهوة رغم السنوات التي هَزمت رجولته، أحسسته يطلّ عليّ من سنواته السبعين وأنا بعيدة بعيدة في الضفة الأخرى من الحياة، حيث يختال شبابي كطاووس متغطرس، لبست فستاناً طويلاً من الحرير الأزرق، مفتوحاً من الأمام بصف من الأزرار، وتعمّدت أن أترك الأزرار الأخيرة مفتوحة، تعطّرت بكثافة، وتأنيت في رسم المكياج على الوجه الذي فتن كاتب البلاد، أخيراً اتصلت ببائع الزهور ليعدّ لي باقة ورد، أقدمها للكهل المفتون.

كان بيته شديد البساطة، عكس ما توقعت، استقبلني بقميص صارخ الألوان يغلب عليه اللون الأحمر، ألوانه أشبه بضربات ريشة مجنونة على صفحة بيضاء، كان يرخي قميصه فوق البنطال، فيصل حتى منتصف فخذيه، ولم يحاول كبح السعادة المفتونة البادية على محياه وهو يستقبلني بقبلة على خدي، وقد طغت رائحة عطره على كثافة عطري، حدّثت نفسي: لعله يتخيل نفسه في عزّ شبابه يستقبل إحدى عشيقاته، عبرت عن إعجابي ببساطة بيته، وقلت له بأنه ذكرني بتعبير يستعمله كازانتزاكي دوماً حين يصف المنزل: كان بيتاً بسيطاً فيه كل ما يلزم الإنسان، أمر خادمه أن يحضر المزهرية ليرتب الورود بنفسه، شكرني على الورد وقال: لماذا تعذبين نفسك يا حبيبتي؟

رددت على كلامه بدعابة: كنت تقول لي، يا ابنتي، والآن يا حبيبتي!

ضحك، أسعدني مراقبة شيخٍ متصاب مفتون بامرأة، ترى أية

أسلحة غواية يملكها هذا المسكين؟

كان السائق الخادم شاباً في الثلاثين كما قدّرت، له سحنة متصلبة، لا تتفاعل مع محيطها. أشعرني أن علاقته مع الكاتب علاقة وظيفية بحتة، إنه يخدمه مقابل أجر معين، ولا يبدو أن هناك أي تفاعل أو ودّ بين الشخصين، أحسسته يحاول كبت غيظه، تساءلت: ترى لم هو مغتاظ؟! حين حدقت في ملامح وجهه المتصلبة قرأت كرهاً للكاتب، لعله يحس بالإرهاق من كثرة طلبات العجوز، لعله ضجر في هذا البيت المعزول؟ أم تراه مشتاق لخطيبته، فهو يدوّر خاتم الخطوبة بحركة عصبية في يده.

تنبهت للكاتب يسألني إن كنت أفضّل شرب القهوة، أم تذوق شراب رائع هو مزيج من عدة مشاريب قدّمها له صديق عاش سنوات في اليابان، اسمه شراب هيروهيتو.

ضحكت قائلة: سأشرب شراب الإمبراطور الياباني.

انتشى لضحكتي، أحسست بإشعاع نظرته كيف تدفق فجأة من عينيه وغمر وجهي النضر، واستقر على شفتي المكتنزتين وأسناني اللؤلؤية، وحزرت من ارتعاش نظرته المتفحصة لأسناني، بأنه يتحسّر على أسنانه، وبأنه يشعر بخجل من بدلة أسنانه، داهمت خيالي صورة خبيثة، بأني فيما لو تبادلت قبلة عميقة معه، فستسقط بدلة أسنانه، نادى خادمه وأمره أن يحضر شراب الإمبراطور هيروهيتو.

قال وهو يرتب الأزهار بعناية: كم يسعدني حضورك، أتعرفين، لم أتصل بأحد من أصدقائي بعد.

علقت بدلال: هل أفهم أنك اشتقت إليّ أكثر من أصدقائك.

كنت أتسلى بإغواء عجوز والتفرج عليه كيف يفرح بالفتات، ضحك طويلاً. ضحكة متقطعة، سمّيتها ضحكة الشيخوخة.

دخل الخادم يحمل تمثالاً فضياً لرجل طوله حوالي نصف المتر، يلبس خوذة فولاذية، ملامح وجهه صارمة، بأنف مستقيم وعينين جاحظتين، ضغط الكاتب زراً صغيراً في كتف الرجل الفضي، ففتح الصنم ذراعيه على أقصاهما، وانشق بطنه لتبدو في داخله زجاجة المشروب الدموي، المصممة بشكل زهرة التوليب، وقد رصفت كؤوس صغيرة بحجم فنجان القهوة، لها شكل زهرة التوليب أيضاً، على ذراعي التمثال.

أدهشني الرجل الفضي، أحسست أنني طفلة تفرح بلعبة مدهشة، قلت مبتهجة: رائع هيروهيتو هذا. بيدٍ مرتعشة، تفرش ظهرها بقع الشيخوخة البنية، صبّ كأسين من المشروب، شرب نخبي، قلت منتشية: لم أتذوق في حياتي أشهى من هذا الشراب، كان طعم القرنفل فيه حريفاً وشديداً، شربت الكأس حتى آخر قطرة فيه وأنا أردد: رائع هذا المشروب.

ضبطته كيف يتأملني بشبق وأنا أصب لنفسي الكأس الثانية، وأصب له كأساً أخرى انتزعها من ذراعيْ التمثال المفتوحتين حتى أقصاهما، جلست مقابله بعد أن استأذنته في إطفاء بعض أنوار الغرفة، لأنني أنزعج من البهر الضوئي لم أبال أن الفستان انحسر كاشفاً عن ركبتي وجزء من فخذي، أحسست نظراته تتمغنط حول ركبتي، قال بصوت تغزوه النشوة تدريجياً: ركبتك مضيئة، وبياضك آسر يا ابنتي، فعلاً، أنت أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

سألت بعبث لذيذ: كم امرأة قلت لها هذا الكلام!

أجاب مقطباً: أنا لا أجامل، ولا أقول سوى الصدق.

علا رنين الهاتف، صرخ منادياً الخادم، وأمره أن يقول لكل من يطلبه بأنه غير موجود.

تساءلت: أإلى هذا الحد هو مفتون بي؟! لكن أسعدني. وربما أرضى غروري أن أحس شهرته تجثو عن ركبتي... قال لي: رسائلك رائعة، إنها أهم من كتاباتك، لقد اكتشفت من خلالها موهبتك وثقافتك، لكن في الحقيقة ثقافتك معاصرة، يجب أن تقرئي كتب التراث يا ابنتي.

قلت: للأسف كتب التراث غير متوفرة، والمتوفر منها قديم ومهترئ.

أحسست أن من واجبي أن أمتدحه أيضاً، وجدت نفسي أحكي له انبهاري بروايته الأولى التي قرأتها وأنا في الثامنة عشرة، كان موضوع الرواية يدور حول معاناة رجل فقير، لم يستطع أن يتخذ زوجة بسبب فقره، وكان شهوانياً، يقضي الليل وسط أحلام شبقية زاخرة بالنساء العاريات، يشكلهن في أوضاع مثيرة، قلت له: لم أستطع أن أترك هذه الرواية حتى أنهيتها، إنها أكثر الروايات جرأة في ذلك الوقت و..

فاجأني بسؤاله الذي ألغى كل التحفظات دفعة واحدة: ألم تثيرك جنسياً أيضاً؟!

للحظة جمدتني المفاجأة، لكني قررت أن أنتصر عليه وأجيب ببساطة ساخرة: أجل، أثارتني جنسياً.

حمّلت كلامي، وبالطريقة التي لفظتها رسالة مبطنة تعني: كلماتك تثير جنسياً، أما أنت فلا.

أحسست أن رسالتي المبطنة وصلته، قام يصب بيدٍ مرتعشة الكأس الثالثة، نبهته برقة أنه قد يسكر قال معترضاً: دعيني يا ابنتي أفرح بك، أحتفل بك على طريقتي.

قلت: لكني لا أريد أن أسبب لك أي ضرر.

ضحك ضحكته الشيخية المتقطعة، التي اهتز لها كرشه الرخو خلف القميص الواسع، قال وهو يرشف محتوى الكأس الثالثة دفعة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

واحدة: أتخشين عليّ الضرر، خير لعجوز مثلي أن يموت يا ابنتي.

قلت: بعيد الشر عنك، لماذا تشتهي الموت؟

قال، كأنه لم يسمعني: ما فائدة حياتي بعد الآن، بالله عليك قولي لي، ما الذي ينتظر كهل مهترئ من الشيخوخة مثلي؟

قلت: المهم أن يكون الإنسان سعيداً، مستمتعاً بكل دقيقة في حياته، وهذا لا علاقة له بالشباب أو بالكهولة.

قال: أنت مخطئة، الشباب ثروة.

قلت: لكن كم من الشباب تعساء، أنا بددت سنوات شبابي بتعاسة مدمرة.

بدا عليه الألم والتعاطف، قال باستغراب: أنت!!

قلت: أجل، لكن أرجوك، لست راغبة أبداً، أن أتحدث الآن عن نفسي ولا عن حياتي.

قال: كما تشائين، قولي لي بماذا أنت راغبة وأنا رهن إشارتك.

ضحكت بغنج وقلت: أرغب أن أشرب المزيد من الهيروهيتو، وأن تسمعني مقاطع من قصيدتك التي كتبتها منذ ثلاثين عاماً، وربما أكثر، هل تتذكرها؟

سألني: أية قصيدة؟

قلت: سخف الذكريات.

ضحك بنشوة كبيرة وقال: ياه، أنت امرأة رائعة حقاً، هل تحبين هذه القصيدة فعلاً؟

أجبت بجدية: إنها أجمل ما كتبت.

أمسك يدي البضة بقدسية ولثمها، وخزني شاربه النحيل المصفر، أحسست بجفاف شفتيه على ظاهر يدي، صب لي شراب الهيروهيتو في

كأس جديد، وأخذ يتلو لي بصوت فخم ودافئ مقاطع من قصيدته (سخف الذكريات)، لحقتْ دوائر صوته كالمخدّرة، أحسست أنها تعلو، وتصبح خفيفة، وتطير خارج الغرفة، وتخترق الجاذبية الأرضية لتهيم بين المجرات، حدثت نفسي وقد أخذت أجفاني ترتخي، الشعر مع الخمر أفيون، الشعر مع الخمر يخدّر الحواس، تلتصق الكلمات مع الشراب الأحمر وتذوب في دمي، تغرقني في النشوة، يا لروعة الكلمات، تحملني على أجنحة من أثير، الكلمة لغز الحياة، الكلمة تصير عالماً أصرح وأبقى من كل العوالم، عالماً لا يزول... الكلمة تحيي، الكلمة تحيي.

استغل انفتاني، فأسند يده على ركبتي، تحسسها كشيء ثمين يكتشفه ويتعشّقه، تركته يفعل من باب الشفقة، ارتعشت أصابعه وهي تتحسس بحذر فخذي، كان ينظر إليّ نظرة ولَهٍ مستميت، وأنا أردت من باب الفضول أن أشاركه اللعبة، رميته بنظرة غواية قاتلة، سمعت لهاثه المتزايد، إنه صريع الشهوة حدّقت في عينيه بعد أن نزع نظارته الطبية، لاحظت القوس الشيخية المزرّقة المحيطة بقرنية عينيه، وشحوب قزحيته، تنبهت أن أشعار حاجبيه وأهدابه قد تساقط معظمها، وما تبقى منها واهنة مصفّرة.

أطرقت هاربة من تعبير الشفقة الصريح الذي ارتسم في عيني النجلاوين، لم أستطع كبح مشاعر الاشمئزاز من الكهولة بشكل عام، قرّب وجهه من وجهي وهو يتشمم رائحة جلدي الفتي الدافئ، الأكثر طغياناً من عطري الكثيف، كتمت أنفاسي هاربة من رائحته، رائحة النهاية كما أحببت أن أسميها، عجبت أن للشيخوخة رائحة خاصة منفّرة، همس بأذني بصوتٍ كالفحيح: لم يسبق لي أن بادرت مع سيدة سواك، دوماً النساء كنّ يتحرشن بي.

كبحت ضحكتي التي كادت تنفلت مجلجلة، تساءلت: أتراه نسي أنه

غدا عجوزاً، من ستبادر مع عجوز؟! أهو مجنون حتى ينتظر أن أبادر أنا – في عمر أولاده – فيما لو تزوج وأنجب، لكني أردت أن أرشه بحفنة من السعادة قبل أن يبتلعه الموت، تركته يتحسس بقدسية وشبق عارم ركبتي وفخذي، كان يشحذني، يتوسل إليّ أن أتركه يلمسني، بنظرته، بلمساته الحذرة، قررت أن أكون كريمة من باب الفضول والإحسان معاً، أريد أن أتفرج على كهل، كيف يودّع أقوى غريزة في الحياة، كيف سيلمس آخر امرأة في حياته، وكيف سيتوسل للحياة أن تسرق له تلك اللحظات من القدر.

طلب إليّ أن أجلس في حضنه، ترددت لثوان، خفت أن يتسبب وزني في آلام في فخذيه النحيلتين، لكنني أذعنت، أحاط خصري بذراعيه، ودفن وجهه في صدري، آخذاً أكبر شهيق في حياته، أهديته السعادة التي يستنشقها ويتحسسها من جسدي، فكرت أنني يمكن أن أشعر بكل شيء، ما عدا الشهوة، قال بوله: ما أطيب رائحتك.

ضحكت مدارية ارتباكي: إنها رائحة العطر.

قال: بل رائحتك الخاصة.

حاول أن يفك أول زرٍ من فستاني، فلم يفلح رغم محاولاته العديدة، كانت العروة صغيرة نسبياً على الزر، أحسست بشفقة غامرة نحوه، تذكرت ألعاب الطفولة حين يتكاشف الصبي والبنت جسديهما، اشتد لهاثه وحرجه ففككت له الزر الذي استعصى عليه تحريره من العروة، شهق بشهوة استحوذت على روحه وهو يطل على قبتي الفضة، وقد انعكست عليهما زرقة الفستان، رفع عينين تتوسلان أن أسمح له بلمس نهدي. كنت راغبة أن أتفرج على كهل يتعبد عشقاً لامرأة شابة، انغرست يده بين حمالة النهدين السوداء والنهد، طعنت الحلمة راحة يده بتحدٍ صريح، وحين أخرج الكنز من مخبئه، شهق بشبق لامحدود، أحسست أنه سوف

يموت من الإثارة، وخفت حقاً أن تطير روحه من جسده المهترئ، كنت جالسة في حضنه أطل على سنواته التي تجاوزت السبعين، وأتفرج على قبة رأسه العارية بجلدها السميك المسمر، بدا صلعه مضحكاً، دائرة كبيرة وسط رأسه خالية من الشعر، تحيطها أشعار بيضاء مصغرة، كان يتأمل بافتتان نهدي، قال: نهدك رائع، مدهش، فاتن.

ضحكت قائلة: هل ستنظم به قصيدة؟

قال: صدقيني لم أر نهدين بجمال نهديك، إنهما ثروة.

ضحكت باستهتار قائلة: ثروة قومية.

انحنى يقبلني، فسرت قشعريرة اشمئزاز حادة في جسدي، قذفتني من حضنه، انتفضت واقفة. زررت فستاني، أشعلت سيجارة وقلت بلهجة قطعية: كفى.

أصدرت أمري دون أن أخصّه بنظرة. لكني حين التفت إليه، غمرت روحي شفقة غامرة نحوه وأنا أراه بقميص المهرج الصاخب الألوان، محني الظهر، يداه ترتعشان، وأنفاسه متسرعة من الإثارة، أحسست كيف بلّله الخجل بسبب قرفي منه، داهمني يقين أنه سيموت قريباً، أحسست بعطف تجاهه، سألته برقة: متى سنتغدى؟

أجاب ململماً خيبته: حالاً.

فتح باب الغرفة، وخرج تنفست الصعداء وأسرعت أفتح النافذة لأطرد سحب الدخان ورائحة الشيخوخة، أطللت على الحديقة الساحرة لبيته، غمرني فجأة شعور قاس بالحقد، لأنه اشترى هذا البيت الرائع وحديقته الكبيرة من مبيعات كتبه، تساءلت بإحباط شديد: ترى هل سأجمع ثروة من كتابتي؟!

كان قد أعطى أوامره للخادم كي يسخن الغداء الذي أحضره من مطعم في المدينة، حين دخل الغرفة ثانية أحسست كم هو مهزوم، تراجع

حقدي نحوه للحال، وتدفقت شفقتي تجاهه، استرجعت اللقطة الأخيرة بيننا، كم بدوت فظة وقاسية، لقد صددته بخشونة فارتد إلى قوقعته صامتاً، تذكرت كيف كان يلمسني بقدسية، يا له من مسكين، ماذا لو أهديته بعض القبلات؟! أحسست كم أنتصر عليه بمجرد كوني شابة، مسحت خده المترهل بحنان، فرفع إليّ عينين ممتنتين بعمق وقال لي بصوت يشرخه الحزن: همنغواي انتحر، لأنه لم يستطع مضاجعة حبيبته.

ابتسمت مداعبة: إياك أن تحذو حذوه.

أشعل سيجارة من عقب أخرى وقال مشيراً إلى جسده: كهل مترهل مثلي، خير له لو يموت، إني أمقت نفسي، ياه لو تعرفينني حين كنت شاباً، كنت أطارد الحياة، أما الآن، فالحياة تطاردني. أمسكت يده بحنان، رفعتها إلى شفتي وقبلتها، لم أكن أعرف أن شعور الشفقة قوي إلى ذلك الحد، الذي يجعلني أيضاً أسحب السيجارة من بين شفتيه، وأقرر أن أطبع قبلة حارة على الشفتين اليابستين الضامرتين، كنت أشعر أنني أفي بالتزام لا فرار منه تجاه الكاتب المشهور، لم أكن أعرف أن مجرد قبلة ستجعله مثاراً حتى الجنون، انتفض بقوة غريبة كمن مسّه تيار كهربائي قفل الباب بالمفتاح، ووقف قبالتي شدّني من يدي، وضغطني إلى كرشه، أخذ يلهث مصدراً صوتاً كالأزيز، وددت لو أسأله إن كان مصاباً بالربو، غمر عنقي بقبلات نهمة سريعة، جعلتني أشعر كأنه ينفذ رغبته الأخيرة في الحياة قبل أن يصدر بحقه حكم الإعدام، كنت أدفعه براحتي من كرشه لكنه لا يتنحى عن عزمه في اقتناص القبلات وارتشاف نضارة الشباب مني، إنه بمواجهة كل الأشياء الرائعة النضرة والطازجة التي حرمته منها الحياة، أفلحت أخيراً في التملص من بين ذراعيه، سوّيت ثيابي وشعري، ومسحت لعابه عن عنقي وذقني وأنا أقول كي أخرق

الصمت الثقيل المشحون بلهاثه:

– أتعرف أنت قوي، أحسست أنك ستتسبب بكسور في ظهري.

لم يجب، كان أسير حالة شديدة الخصوصية تزلزله، تهاوى في مقعده لاهثاً، صعقني بتصرف سبّب لي النفور والاشمئزاز، لدرجة أنني فكرت أن أهرب وأهيم في البساتين حول بيته، أنقذني صوت الخادم يعلن بلهجة جافة: الغداء جاهز.

استنفذ قواه، خار كثور تلقى الطعنة القاتلة. زرر بنطاله، وأرخى القميص الصارخ الألوان فوقه، بحث عن نظارته، فقدمتها له، أشعل سيجارة، وقال دون أن ينظر إليّ: تفضلي إلى الغداء.

قلت محاولة خلق حوار يمتص توتر الموقف الأخير: يا للطعام الشهي، أنت سخي جداً، من سيتمكن من أكل كل هذه الأصناف؟

قال بصوته المتعب: أنت غالية جداً يا ابنتي

انفجرت ضاحكة، أحسست أنه يتوجب عليّ تبرير ضحكي، قلت: أتناديني ابنتي!! سكتُّ كي يكمل له الصمت بقية الجملة (وأنت تغرقني بقبلاتك النهمة منذ لحظات).

أصرّ أنني ابنته أيضاً، حدّثني عن شقاء طفولته، وبؤس شبابه، والأمراض التي أصيب بها، والتي جعلته يقرر عدم الارتباط، قال إنه يكره الأطفال، ولم يرغب يوماً أن يكون لديه ابن أو ابنة.

قلت له مداعبة: كتبك هي أطفالك.

قال: لا، حتى كتبي أكرهها، لست راضياً عنها.

قلت: كل المبدعين يقولون الكلام ذاته.

قال: صدقيني أنا أكره نفسي وكتابتي.

كان يطعمني ويقشّر لي حبات الفستق ملامساً شفتي بيده، أحسست

أنه منتشياً لهذه الملامسة وسعيداً بدفء شبابي، من أول مرة التقيته شعرت أنني أهديه وجهي، إنه يتملاه بسرور وشبق ممزوج بلذة خفية.

تناولنا قهوة بعد الغداء في غرفة مكتبه المطلّة على الحديقة الساحرة، أهداني روايته الأخيرة أعجبني الإهداء، قرأته بصوت مرتفع: الحياة حلوة طالما هناك وجه جميل وكتاب جميل. كنت أصغي بذهن شارد لصوته المتعب يحدثني عن غرامياته، وعن النساء اللاتي أحببنه كثيراً.

كان خدر، ونعاس متعاظمان يسريان في جسدي، فيما نظرتي تتابع الخضار المضيء للأشجار، وأشم بشهية رائحة الأرض، تمنيت لو أغفو هناك تحت شجرة السنديان الكهلة لو أغفو بين ذراعي شاب مفتول العضلات، غزتني فكرة كالومضة، إنني لم أشعر إطلاقاً بأية نشوة وأنا بين ذراعي الكاتب، لم يحرك لديّ أي شعور عاطفي أو منعكس جنسي، وحدها الشفقة دفعتني لأهديه بعض القبلات، لكن تنبهت إليه يسألني عن رأيي في الحب.

فكرت أنني يمكن أن أجيب أن الحب رائع، وأعظم شيء في الوجود، وأنني يمكن أن أقول بالحماسة ذاتها والاقتناع ذاته بأنني لا أؤمن بالحب.

قبل أن أجيب قال: صدقيني أنا لم أحب امرأة في حياتي.

سألته بدهشة: هل هذا معقول؟! لكن في رواياتك تتحدث كثيراً عن الحب...

ضحك قائلا: الكتابة شيء والواقع شيء آخر.

سألته: ولماذا لم تغرم بامرأة؟

قال: لأني لم أصادف المرأة التي تجعلني أركع.

قلت بامتعاض: وما علاقة الحب بالركوع؟!

قال: كل النساء اللاتي تعرفت بهن أحببنني بقوة، أعطينني بسخاء كل شيء، لم ألهث وراء امرأة، لم أتعب في الحصول على امرأة، لم تجعلني أي منهن أركع.

قلت وأنا أرمقه ببرود: أتعرف، أعتقد أن الحب موهبة، من المحزن حقاً أنك لم تحب.

قال وهو يرشف قهوته وينفث دخان سيجارته: كل النساء تباركن بقبلاتي.

انفجرت هذه الجملة في فضاء الغرفة بيننا كقنبلة، أحدثت دوياً مدمراً في نفسي، وددت لو أصرخ به: ألنت مجنون، فكرت أن كاتب البلاد الشهير يدخل في مرحلة جنون العظمة، وربما الخَرَف. ماذا عساني أقول له، وجدت نفسي أعيد كلماته ببطء وباستنكار: هل تعتقد أنك تبارك النساء بقبلاتك؟!

توقعت أن يتراجع عن كلامه، وأن يعتبره دعابة، لكنه أصرّ قائلاً: بالطبع، أشار إلى خريطة العالم العربي المعلقة على الحائط وقال منتفخاً غروراً كطاووس يفرد ذيله: كم رجلاً في العالم العربي مثلي؟! من يفوقني شهرة، بالكاد هناك كاتبان أو ثلاثة ينافسونني، أظنك تعرفين أن اسمي رشح مراراً لجائزة نوبل.

سألته بسذاجة: لكن ما علاقة شهرتك بفكرة أن النساء يتباركن حين تقبلهن...

رفع يده متضجراً، متضايقاً من مشاكستي الكلامية، حرك يده في الفضاء كأنه يطرد ذبابة قال لي بلهجة ختامية: كما قلت لك يا ابنتي، النساء يتباركن بقبلاتي، آه ماذا أقول لك، حتى الكاتبات، أظنك قرأت للكاتبة بزوغ رشوان، قلت له: بالطبع، وهي من أفضل الكاتبات برأيي.

ضحك كاشفاً عن لثة مهترئة وأسنان اصطناعية مصفرة: ياه، هذه

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الكاتبة كانت تتوسل إليّ كي أضاجعها...

سألته بلهجة أقرب إلى الصراخ وقد هاجت أمعائي بغثيان حاد: ماذا تقول؟

تابع ببرودة: كانت تلاحقني من مكان إلى مكان، كثيراً ما كانت تشرب الكحول لتسكن أشواقها نحوي.

إنها جميلة حقاً، عيناها لوزيتان ساحرتان، لكنني لم أحبها.

سألته باستنكار: كيف تتحدث عن كاتبة بهذه الطريقة؟

ضحك قائلاً: ما الذي يدهشك في كلامي؟

صرخت: غير معقول، ضحك طويلاً وهو يتأملني ألتهب غضباً بعينيه الحمراوين، نظر في ساعته، فذكرني بالزمن، استأذنني لإجراء اتصال هاتفي، رمقته كيف وضع فنجان القهوة بتؤدة على مكتبه، وكيف بذل جهداً واضحاً ليقوم عن الأريكة مستنداً بقوة إلى راحتيه، وكيف مشى بخطى مرتبكة كأنه يخشى السقوط، ثم كيف أضاء النور الباهر وفتش في مفكرته عن الرقم المطلوب، كنت أحدق به بعينين متفحصتين مراقبتين، حدثت نفسي وكأني أختم موضوعاً يؤرقني: ما هو سوى كهل في الخامسة والسبعين.

كان يدعو أصدقاءه للعشاء في مطعم فخم، ويضحك ضحكته المتقطعة اليابسة، الصادرة من حنجرة متآكلة من التدخين، نظرت في ساعتي، أدهشني أنني قضيت برفقته أربع ساعات استأذنته بالانصراف، وشكرته على دعوته اللطيفة للغداء، أوصلني حتى باب الحديقة، فتح لي الباب الخلفي للسيارة، وأمر سائقه الشاب متجهم الملامح دوماً، أن يتأنى في قيادة السيارة وأن يوصلني حيث أشاء.

• • •

وصلت إلى بيتي مشلولة من الخمر والنعاس والصداع، فتحت

النوافذ، وتنشقت هواءً أردته أن يطرد الدخان المتكاثف في رئتي، كانت رائحة شعري لا تطاق، حتى ثيابي الداخلية مضمخة بدخانه رميتها جانباً، وددت لو أملك النشاط لأستحم، لكني كنت أشعر أنني مهترئة كخرقة بالية، عكست مرآة غرفة النوم صورة نهديّ الفتيين، صعقني خيالي بصورة يديه المبقعتين ببقع الشيخوخة البنية تداعبهما، وصوته الرخيم يقول بشهوة كالفحيح، يا للنهدين المنتصبين الرائعين، عجباً كيف سمحت للعجوز أن يلمسني، ألأنه كاتب مشهور، تهالكت على الفراش مستوعبة كم أكثرت من شرب الكحول عنده، لكنه كان يجبرني على الشراب، يدللني دلالاً قسرياً، احتد غثياني، ولم أفلح في طرد صوته، يئن متألماً من عجزه، كدت أنفجر ضحكاً وقهراً واشمئزازاً وذاكرتي تعذبني باستعادة الصور المقززة على مهل، تساءلت: لعله خرف؟!

ضحكت وأنا أقول بصوت محمل بالخيبة: كاتب البلاد الشهير خرِف، لكن الناس لا تعرف تلك الحقيقة بعد، بل أن الصحف تنقل صوره كل يوم يُكرّم من قبل جهات مختلفة، وبأساليب مختلفة، تذكرت ذلك اليوم البعيد يوم فتنتني روايته الأولى التي كتبها بصدق وإحساس مرهف، وأفكار واضحة نقية، يومها كان فقيراً، وصاحب مبادئ، حلمت يومها كآلاف المراهقات أنني أتعرف بالكاتب وتنشأ بيننا قصة حب، لكني ألتقيه الآن عجوزاً ثرياً خرفاً، مهووساً جنسياً لا يخجل أن يحل سرواله أمام امرأة يدعوها للمرة الأولى إلى بيته ويبكي عجزه الجنسي أمامها، عجباً كم تآلفت مع شعوري بالهزائم، إن خيبات الأمل صارت شيئاً رتيباً بالنسبة إليّ، كأنها هي القاعدة، لم أعد أعرف من أين تبدأ الخطوة الصحيحة؟! أما كنت أعتقد أن التعرف بكاتب البلاد الشهير هو أهم خطوة لي في طريق الكتابة؟!! لكن ها هو ينتهكني بسنوات شهرته، بسلطة شهرته، الشهرة تَغتصب كالقوة تماماً، وربما اغتصابها يكون

مدمراً أكثر.

يا لأيامي المدماة، أحس أنني كل يوم أجرح جرحاً جديداً.

لكن كيف يمكن لكاتب مشهور أن يعاملني بهذه الطريقة؟!

سؤال صعب لست بوضع مثالي للإجابة عليه، لأن صداعي وغثياني ما عادا محتملين... لكن مهلاً، أكاد أسمع صوتاً بالغ النقاء يسألني: من هو هذا الكاتب؟! صوت الحقيقة لا يخفى، إنه يتفتق في الذهن كالبرق في الظلام الدامس، أنا أرى بقلبي الآن، كيف تغيّر الكاتب، كيف تشوّه عبر الزمن، وكيف خان مبادئه، وكيف افتقرت كتابته للصدق وللحقيقة، رغم أن الثوب ظل جميلاً، والأسلوب آسراً، لكن كتابته ما عادت تتمخض عن شيء، صار كاتب المصلحة والتملق، والأضواء الزائفة... الناس البسطاء يعرفون هذه الحقيقة ويقولون ببساطة: خير له أن يتوقف عن الكتابة لكنه يستمر في طرح كتبه بآلية سريعة، صوت الحقيقة يهمس لي ببساطة، أن الكاتب لا يعيش شيخوخته الجسدية فقط، بل شيخوخته الأدبية، للأسف عرفته في سقوطه، وتعهّر أدبه، تذكّرت حديثه عن الكاتبات، أسرعت إلى المرحاض، تقيأت طعامه وكلماته، اندسست في فراشي، كانت الدنيا تدور وتدور حولي، ولم تمض دقائق حتى كنت أغط في نوم عميق تعكّره أحلام غامضة تصور الكاتب يبكي بألم شيخوخته وعجزه.

حين أفقت، أحسست أنني مفصولة عن ماضيّ بسنوات طويلة، وبدا البارحة كيوم بعيد بعيد لم أعشه في الواقع، مع استعادة صحوي الذهني وأنا أرشف القهوة، كنت أحاول طرد مشاعر الاشمئزاز الملتصقة بجلدي من قبلات الكاتب ومداعباته، فكرت أن كاتب البلاد تحوّل إلى رمز لدى كثير من الشبان والشابات المضللين، يا للرموز المضللة، ترى ماذا سيقول التاريخ عن أدبه بعد خمسين عاماً، أو مئة عام؟!

تمنيت لو يكون التاريخ منصفاً مهما حاول البشر تضليله، لكني قرأت ذات يوم عبارة ألمتني، بأن التاريخ لا يكتبه إلا الأقوياء، والأقوياء يحرّفون الحقيقة لصالحهم، سمّرت نظري على باب الشرفة حيث ارتسمت صورة الكاتب ضاحكاً يرمقني بنظراته الشيخية الشبقة، وجدت نفسي أصرخ:

- أنت لا شيء، رجل تافه، مدعٍ ومغرور، عجوز كريه وخرف ومصاب بالهوس الجنسي، وما شهرتك سوى وهم، أنت بوق، وطبل، أتفهم، أنت حصان رابح لناشر لا يهمه سوى الربح..

كان وجهه يرتسم بذهول على باب الشرفة، صرخت بصوت مرتفع: لماذا تعهّر الأدبيات يا قذر؟! فعلاً أفضل شيء لك هو الموت، أفهم الآن لماذا تكره نفسك.

عاهدت نفسي أن أقاطعه حتى النهاية، أن أعلن عن احتقاري له فيما لو اتصل بي، قضيت يومين أغلي من الغضب، وأحاول طرد دنس روحي، بالغت في دعك جسدي بالليفة والصابون، لكن عبثاً، فدنس الروح لا يذوب بالماء، ظهر اليوم الثالث بعد دعوة الغداء، تلقيت باقة ورد رائعة عرفت للحال أنها ورود جديقته، مع بطاقة صغيرة مختومة وقد كتب فيها: نازك يا ابنتي، سامحيني إن استطعت. تراجعت إلى نقطة الصفر، وقفت ونظري مسمّر على الكلمات الأشبه بفوهة ضيقة لمغارة سحيقة، كانت تلك الجملة رغم اقتضابها، أعظم تأثيراً من صفحات كثيرة يمكن أن يكتبها لي مستسمحاً، نسقت الورود في المزهرية وجلست مقابلها على الكرسي الهزاز، حيث اعتدت أن تتدفق الأفكار في ذهني مع اهتزازات الكرسي... أهو نادم حقاً؟! كيف لا أغفر له وهو يعتذر بهذه الطريقة الرائعة؟ لكن ما بالي أستصغر جرمه هكذا؟ أشعلت سيجارة وأعدت تقييم كل ما جرى في منزله فوجدت أنني المسؤولة الأساسية عن

كل شيء، البادئ أظلم.

كما يقولون، ألم أتعمد أن أترك الأزرار الأخيرة لثوبي مفتوحة حتى أغويه، ألم أقترب منه وأطبع قبلة طويلة ملتهبة على شفتيه اليابستين، كل ما قام به من أفعال، كانت ردة فعل على سلوكي، ترى ماذا أنتظر من عجوز عاجز، تعابثه شابة من عمر بناته؟! هل ألومه إذا أفلتت منه تصرفات غريبة؟! حتى تصرفه الشنيع الذي سبب لي غثياناً شديداً ليس بهذه الفظاعة إذا نظرت إليه في سياق الجلسة كلها. ما أدراني بآلام الكهولة النفسية والجسدية ألم أشعر أنه كاد يبكي عجزه أمامي، ما أنبل اعتذاره حقاً، (سامحيني إذا استطعت) إنه يتقبل موقفي مهما يكن النبذ والاحتقار، إن لم أستطع مسامحته، ثم ما بالي ثرت ضد كتابته، ألا يكفي أنه نشأ من العدم، من قاع الفقر والبؤس والعهر أنتج أدباً، ألم يكن متسولاً في طفولته، يأكل من القمامة، ويمارس الأعمال الوضيعة متعرضاً لاضطهاد أرباب العمل، ألم يلجأ للمدارس الليلية ليتعلم القراءة والكتابة، ألم يكن واحداً من المفكرين اللذين أشعلوا الأفكار الوطنية لمقاومة الاستعمار؟! ألم يكتب قصصاً وروايات أدخلت البهجة إلى قلوب الملايين؟! ألا يشفع له كل هذا في مسامحته؟ ثم هل يعتبر مسؤولاً عن سقوطه؟ هل يصح محاكمته بمعزل عن الظروف المحيطة به؟ الزمن عهّره وفرّغ كتابته من زخمها الأولى، بالطبع إنه ملام، لكنه ليس بطلاً، إنه إنسان يضعف، يتعرض للغواية والسقوط، كأي بشري، ما هو سوى حصان أصيل، كبا كبوة رهيبة، لكن تاريخه النضالي يشفع له، فكّرت أن ما مرّ معه في حياته ليس بالسهل، لقد تجرّع المرّ حتى قارب عقده الرابع... ياه روحي تسامحه وتقبّله، بل إني ألاحظ طغيان شعور وردي باهت في قلبي، لم أستطع أن أسميه سوى شعور ودّ حقيقي تجاه الكاتب.

أستطيع الآن أن افهمه وأعذره فقد أستسلم لهوى جارف أعمى بصيرته، وجعله يفقد سداد السلوك، إنه يتصرف منساقاً لغريزة الجنس، أو غريزة الحياة التي يريد لاواعياً التشبث بها قدر المستطاع، أمكنني أن افهم كيف أنني بقبلة أدخلته في طور الهياج الذي يستحيل ضبطه، هل ألومه كونه انساق وراء انفعالاته بدون تحفظ؟ وبلذة عظمى؟ وما سلوكه الأخير المشين سوى صرخة ألم بأعلى طاقات روحه المخذولة، إنه يعوي ألماً من بشاعة الشيخوخة وعجزها، أمام شبابي المتفجر نضارة ورغبة وإثارة، إنه مهزوم أمام أنثى تقتحم بيته لتريه مدى عجزه وتهزمه بشبابها، يا لسلطان الشباب، لقد ألهبته بالرغبة، لكن لهيبه لا يتمخض عن شيء، يحرق أعصابه فقط، ربما جعله قرف الشيخوخة، يفقد تحفظه أمام نفسه وأمامي، إنه طفل حقاً فلأسامحه.

تخيلته مدمّر النفس من الخجل، يتمنى لو يتصل بي، لكنه لا يجرؤ، تخيلته عجوزاً مسكيناً غارقاً في سحب دخانه، أتاني إحساس طاغ أنه سيموت قريباً، كانت ابتسامتي عريضة، عيناي مشعتين بالسلام، حين قمت عن الكرسي الهزاز، لمحت عرضاً وجهي في مرآة الحائط، كنت قد سامحته فعلاً.

طريق الطهارة صعب، هذا ما كنت أقوله لنفسي وأنا أمسك سماعة الهاتف لأتصل به، ترى ما الذي يربطني بالكاتب العجوز؟ لماذا أراسله، وأتفنن في عباراتي لأدهشه ببراعتي على التعبير؟ لماذا أزوره وأسمح أن يلمسني؟! ما الذي أريده منه؟ هل أنا منشدة لشهرته فقط؟ لا أظن أن سطوة شهرته سبب كافٍ فأنا أعرف في أعماقي إنها شهرة مبالغ بها، مصنوعة من قبل جهات عديدة، لم أكن بحاجة لعناء تفكير حين توصلت إلى حقيقة أساسية أنني أريد عن طريقه أن أدخل الباب العريض للنشر والشهرة الأدبية، لو تعهّدني وقدمني لناشره فسيطلقني خلال أقل من

www.mlazna.com-RAYAHEEN

سنة، ستجد قصصي النائمة في الغبار فرصتها للانتشار، سأجد الحافز القوي لإكمال الرواية التي بدأت بكتابتها ولا أعرف كيف أجمع خطوطها، أريد بصراحة أن يورثني مجده الأدبي، أن يسلّط الأضواء علي، وهو قادر على ذلك، ياه، كم تسكرني تلك الصور التي يبتدعها خيالي، مقابلات صحفية، وتلفزيونية وإذاعية، قصصي منشورة في كل الجرائد والمجلات وخلال فترة وجيزة أصدر روايتي التي أعتبرها هامة لأنها تدعو إلى العلمانية، وتتناول بجرأة موضوع الزواج بين الأديان المختلفة، هيّا يا كاتب البلاد، كفاك ما حصدته من مال وشهرة، وما أفرزته من كتب عليك الآن أن تتنحى، وأن تنام بعمق، نوماً طويلاً طويلاً، ستدفنك الأرض وستمص جسدك المهترئ، وأنا ستورثني عرشك، هكذا يقول المنطق... أعرف أنني سأتهم بالوصولية، لكن كل شيء في هذه الحياة معادلة، أنا أهديه شبابي وحضوري الذي يدخل السرور إلى قلبه، وهو عليه أن يقدم لي خدمات يقدر عليها ببساطة، أنا لا أريد دلاله، ولا غزله، ولا اعترافه بموهبتي وثقافتي أمام أصدقائه، أريد خدمات ملموسة، أن يلفت نظر ناشره إليّ وأن يطلب إليه أن يطلقني، أن يكتب مقالة أو أكثر عن أدبي... لكن الطلب صعب، مراراً قال لي إنني سأصير كاتبة مشهورة، لكن عليّ بالتريث وكان هذا الكلام يغيظني، وأتمنى لو أصرح به لماذا لا تساعدني فعلاً، لكن تخونني شجاعتي، أو كرامتي كل مرة، إلى أن تجرأت وسألته لماذا لا تعرّفني بناشرك وتساعدني؟ وكأنه كان يتوقع هذا السؤال، لأنه أجابني في الحال، لا يزال الوقت مبكراً، كان يطلب مني أن أثق به، وأن أترك له تحديد الوقت المناسب لتقديمي لناشره، وأنا كنت أخشى أن يموت قبل أن يعرّفني بالناشر...

أوقفت تدفق أفكاري برفع سماعة الهاتف والاتصال به، فكرت فيما

الرنين الرتيب يتكرر أن دعايات الكتب أشبه بدعايات التدخين، تذكرت الكاتبة التي تطبع كل سنة كتاباً لأنها ثرية، رغم أن أدبها رديء جداً، ولا يصح أن نسمي ما تكتبه أدباً، كنت أعرف أن التاريخ سيلعنها هي وكتابتها.. لكن.. أتاني صوته متعباً كالعادة سألته بلهفة تعمّدت أن يلحظ مدى المسامحة فيها: اعتقدت أنك غير موجود، لأن رنين الهاتف استمر طويلاً.

ردّ من غير حرج: آسف يا ابنتي كنت أشرب قهوتي على الشرفة، آه عجوز مثلي يحتاج لوقت كي يصل إلى جهاز الهاتف، ألم تلاحظي كيف غدت مشيتي متعثرة، وكأنني أتعثر بسنوات عمري.

رقّت روحي لدرجة نتحت عيناي بالدموع، شكرته على الورد والبطاقة اللطيفة، لاحظت كم غدا صوتي عذباً ودافئاً وأنا أكلمه، أخبرته أن كل ما حصل بيننا لم يعكر روحي، بل انزلق عليّ انزلاقاً.

شكرني بصوتٍ مضمخٍ بالشوق والحنين قال لي بأنني لو رأيت تمزقات روحه لعذرته، وقطع لي عهداً على نفسه ألا يلمسني أبداً، تنهد وأخذ يشكو لي آلام مفاصله المستمرة التي لا تهدأ على أقوى المسكنات وآلام قلبه، لعن الأطباء الأغبياء الذين يطلبون إليه التوقف عن التدخين وهو في الخامسة والسبعين.

للحظة شممت رائحة شيخوخته مضمخة بدخانه، أنصت صمتي لصمته، خرق الصوت قائلاً بحذر: هل ستلبين دعوتي على العشاء، حضورك يعني أنك سامحتني، كما أن وجهك الحسن سيضيء حلقة أصدقائي. ضحكت وقلت له: أنت تعرف نقطة ضعف النساء.

تساءل: ماذا تقصدين؟

قلت: الإطراء.

قال: أنا لا أمتدحك أبداً، أنت امرأة رائعة، يقول لك هذا الكلام

رجل مجرب، جاب العالم كله، وعرف نساءً بعدد شعر رأسه، وددت لو أقاطعه ساخرة، الأصح أن تقول بعدد شعر رأسك حين كنت شاباً.

عند هذا الحد رغبت بإنهاء المكالمة، طمأنته أنني سألبي الدعوة رغم إحساسي العميق أنني لن أفعل. أعدت السماعة إلى مكانها، كنت ألاحق شعاعاً حاداً وجارحاً من أشعة الشمس يشق فضاء الغرفة الغارقة في الظلال، تساءلت: أهو نادم حقاً لأنه لمسني؟ هل كاتب البلاد خرف حقاً؟ هل أكون أول من لاحظ خرفه؟! وهل في هذه الحالة تقرر الدعاية استهلاكه واستنزافه حتى رمقه الأخير؟!!

• • •

داهمني الحزن هذا المساء أكثف من عادته، كأنه يريدني أن أشبع منه، تلفتُ في المكان حولي، الشاهد الوحيد على حزني، فكرت أن الحزن والشعور بالإثم ظلا لسنوات طويلة حجر الأساس في حياتي، تآلفت معهما، لدرجة أشعر بالضياع والغربة عن الذات فيما لو اختفيا، لماذا أترك نفسي فريسة للوحدة، من قال إن الوحدة تورث الجنون، يا لوطأة وحدتي التي تشعرني أحياناً بوجود أشخاص غير منظورين قابعين وراء الستائر والأبواب يراقبونني ياه، كفاني تأملاً لداخلي، فكّرت أن كل الفلسفات تدعو ليعرف الإنسان نفسه، ليتأمل داخله، ألا تراهم يبالغون، ما الذي جنيته في عمق تأملاتي سوى الإنهاك والألم، ودوماً كان الموت هو المحصلة الوحيدة والنهائية لكل التأملات والأفكار، مهما كانت متفائلة؟! ما نفع كل ما نقوم به إذا كان الموت يسلبه منا بلحظة، كم أشتاق للفرح، ذلك الشعور البعيد الباهت، ترى ما شكله؟ ما لونه؟ أهو بسيط أم معقد؟ وهل يتطلب كي يتحقق مقداراً كبيراً من الوهم؟ لماذا لا أصنع الفرح هذه الليلة وألبي دعوة الكاتب، سألتقي هناك بالشخصيات الثقافية التي تتصدر الجرائد والمجلات، ستكون فرصة لي لأقتحم باب

النشر، وألفت الأنظار.

اخترت تايوراً بنفسجياً له لون زهرة البنفسج، وشالاً ورودياً من الحرير ربطته حول عنقي، رسمت ماكياجي البسيط، نظرت برضى إلى صورتي في المرآة، همست لي المرآة بصوت كالحفيف: المرأة فتنة.

علب الدخان، مالبورو، جيتان، روثمان، صحف السجائر المملوءة بالأعقاب المسحوقة، دخان الغليون الكثيف يحوم في فضاء الصالون الواسع، يوحي بأنّ الأرواح سوف تحضر بعد قليل، كؤوس الويسكي والكونياك والنبيذ مزروعة بين الصحون الممتلئة بأفخم أنواع المقبلات، الكاتب العجوز يترأس الطاولة، يبدو كحطام بتقوس كتفيه وغؤره في المقعد، ينفث الدخان بشراهة، لكأن مهمته الوحيدة في الحياة هي التدخين! الشخصيات الأدبية والصحفية البارزة تحيط بالكاتب، أحسست أنني أطل غريبة ومدهشة على ضباب عالم الثقافة، أقتحم دخان أفكارهم فيلتفتون إليّ، تطرح عيونهم الثملة السؤال نفسه: من تلك الشابة الغريبة؟ التي استقبلها الكاتب بالأحضان، وأحاط خصرها بذراعيه ليقدمها إلى ضيوفه على أنها الموهبة الأدبية المجسدة في امرأة جميلة...

وبأنه لا يبالغ حين يقول عنها مسك الختام، رفعوا كؤوسهم ليشربوا نخبي بعد أن قدّمني الكاتب بهذه الطريقة الاحتفالية، لم أشعر بالانشراح والبهجة كما شعرت بهما في احتدام تلك اللحظات بمشاعر النصر والغرور، وأنا أشعر أن المنابر الثقافية في البلد تحفّ بي، أسعدني أنني أستطيع أن أدير الرؤوس، أحصيتهم بطرفة عين، تسعة رجال وسيدتان، إحداهن قدّرت أنها تجاوزت الستين، ترمقني بنظرات باردة يتنامى فيها الحقد، تدخن الغليون، وشعرها المصبوغ بالذهبي، والمرهق من محاولات صاحبته المستميتة ليبدو لماعاً وحيوياً، مرفوع بطريقة مبالغ بها، جعلتها تبدو كممثلة في حفلة تنكرية، وقد طلت أجفانها المنتفخة

والمتهدلة بالأزرق الفاقع، أما خط الكحل الأسود فبدا متعرجاً بسبب الثنيات الجلدية المتراصة. كانت تلبس قميصاً من الحرير البرتقالي مقاسه أصغر بنمرتين على الأقل من مقاسها، وقد بدا نهداها المترهلان، واللذان حاولت رفعهما قدر استطاعتها بحمالة النهدين بارزين من شق القمص كثمرتين متجففتين ومجعدتين، كانت تنفث دخان غليونها وترمقني بنظرة، تحاول قدر إمكانها أن تحط من شأني، المرأة الثانية كانت في الأربعين ربما، نحيلة، تلبس لباساً رجالياً وتبدو مستهترة بأنوثتها، ترفع شعرها الخفيف، وتثبته بقلم رصاص كيفما اتفق، ولا تضع أية مساحيق على وجهها، وفي عينها اليمنى حول واضح، كانت تلبس قميصاً بنياً من الكتان، وسترة من الجينز المهترئ مع بنطال جينز وحذاء رياضي، أحسستها بذلت مجهوداً لتبدو بمظهر بوهيمي، أخذت بدورها ترمقني بازدراء، كأنها تريد أن تبلغني رسالة أن فلسفتها في الحياة احتقار المرأة الجميلة والأنيقة، لأن الاهتمام بالأناقة يجعل المرأة سلعة.

خصّني الكاتب بمكان إلى جواره، وحين قدّم لي سيجارة قلت له بلهجة ودودة: لست بحاجة لأدخن وسط سحب دخانكم، ضحك طويلاً لجوابي، لثم طرف الشال الوردي مستنشقاً عطري، قال لي: أنت الجميلة الذكية الوحيدة التي صادفتها في حياتي، وبطرفة عين لمحت الازدراء والقهر مرتسمين على وجهي المرأتين، ابتسمت في سري وأنا أقول: المرأة هي المرأة، ترى هل يغار الرجال من بضعهم كما تغار النساء؟ رمقتها باستخفاف موصلة لها رسالة بنظرتي الساخرة: المرأة القبيحة تعزّي نفسها بأن المرأة الجميلة تافهة، والمرأة الجميلة تقول عن القبيحة بأنها معقدة، أحسست أن الرسالة وصلت تماماً جميل أن يتم التخاطب بالنظرات، العين لا تغش، الكلام غشاش ومخادع، تخيلت لو يعم الصمت

هذه الجلسة كلها ويتم تبادل الأفكار بالنظرات أحسست أن الصمت المطبق مع سحب الدخان وسريان الكحول في الدم سيمكّن كل شخص من سماع الأفكار الحقيقية التي تدور في رؤوس الآخرين، كان يجلس مقابلي كاتب وناقد قصصي حاصل على شهادة دكتوراه في الأدب الحديث، رجل جميل على أعتاب الخمسين، لم تملّ عيناه الناعستان من إرسال شحنات الشهوة نحوي، تذكرت صوره التي تملأ الصحف والمجلات، ومقالاته المتكاثرة كبذور البقلة، قررت أن أتجاهله كلياً وتعمدت أن أغمر الكاتب برقتي كي أثبت أنني سامحته، حاولت أن ألتقط طرف الحديث الدائر قبل وصولي لكني لم أتمكن من التقاط سوى قهقهات وضحكات مصطنعة.

رفع الكاتب كأسه ليشرب نخب ضيوفه، شربوا جميعاً نخب كاتب البلاد الأول، علّق الكاتب ضاحكاً بالضحك: تشربون نخب رجل لم يتبق له من متعة في الحياة سوى الشرب.

كان الكاتب الذي يجلس مقابلي والأكثر شباباً من الحاضرين كما يبدو، يستميت للفت نظري، ولم يكن قادراً على الاقتناع أنني لم أفتتن به بدوري، فكرت أن الكتب القليلة التي قرأتها له لم تقنعني، شيء كثير من غش وكذب ممزوج في أسلوبه الجميل، كنت ألحق فكرة هامة كيف أن القارئ يميز بحدسه الفطري بين الكاتب الصادق أو المدّعي، حين اصطدم بي صوته الشبق يسألني: ألم تكتبي الشعر يا سيدة نازك؟

رمقته ببرود وقلت: ما الذي دفعك للاعتقاد أنني أكتب الشعر؟

أحنى رأسه إلى الوراء وضيق فرجة جفنيه كأنه يتأمل لوحة ثمينة، أحسست بالحرارة الكاوية التي تحيط بوجهه وتنتقل إليّ وقال: أنت قصيدة حب متجسدة، فكيف تريدينني أن أقتنع أنك لا تكتبين الشعر؟

قلت بسخرية صريحة: أنت قلت، طالما أنا قصيدة – تعمّدت ألا

ألفظ كلمة حب – متجسدة، فلماذا أكتب الشعر؟! تدخل كاتب البلاد مخاطباً الكاتب: ماذا دهاك يا أخي، أجلسناك في حضننا، صرت تعبث بذقننا.

ضجّوا بالضحك، تعمدت أن أبالغ بضحكتي كي أفهم الكاتب الشبق أنني لست صيداً، كدت أختنق من الدخان ومن كلمات الإطراء والمجاملة والتودد لكاتب البلاد، قمت لأفتح النافذة العريضة في الصالون قائلة: هل تمانعون أن نجدد الهواء؟

قال كاتب البلاد: جددي الهوى يا ابنتي وليس الهواء.

ضجوا بالضحك مجدداً، أسعدني أنني محور اهتمام الجميع، وبأن المرأتين انطفأتا بمجرد دخولي، يا لجنس الرجال تدوّخهم المرأة الجميلة، أحسست أن وجود المرأتين تحوّل لمجرد مكملتين لحضوري، تذكّرت أيام دراستي الجامعية كيف كنت أشعر أن هذه الشخصيات التي أجالسها الآن، غير عادية، تطل عليّ من عل، وكيف كنت أتمنى وزملائي لو نتعرف بأحدها، ترى ألا نظلم هؤلاء المبدعين حين نحمّلهم تصوراتنا وأحلامنا؟!

حين أفقت من خيالاتي، تنبهت أن الكاتب الشهير يصف لهم حفل توقيع كتابه الأخير، كيف لم يتمكن من النزول من السيارة، بسبب حشد الطلاب والقراء، وكيف كان ناشره يشق له الطريق ليصل إلى المنصة حيث أهدى ساعتين من وقته لمؤتمر صحفي، وكيف بثّت تلك المقابلة في خمسة محطات تلفزيونية بينها فضائيتان، كان يتململ في كرسيه ويصف لهم مدى إرهاقه وتضجره وتعبه الذي جعله يعجز عن نزع حذائه وثيابه، فنام بكامل لباسه، كانوا ينصتون إليه بنظرات الولاء الناعسة المستسلمة، وكرّر مراراً أن ناشره يقول بأنه جمع ثروة طائلة من رواياته، أشعل سيجارة وهو يلعن الشهرة والكتابة، كم أحسسته

منافقاً، سألته المرأة الكهلة ذات الشعر الذهبي: أريد أن أسألك عن شخصية الفتاة البولونية في روايتك الأخيرة، أهي حقيقة أم من خيالك...

قهقه بالضحك المتقطع، ضحكة الشيخوخة كما أسميها، تنحنح وقال سأحكي لك قصة تلك الفتاة، مسح وجوهنا بنظرته المؤطرة بالقوس الشيخية، أخذ نفساً كالراوي وابتدأ يتكلم ببطء وبصوت رخيم ساحر:

منذ خمس سنوات كنت في بولونيا، وكان مقرراً أن أزور باريس وبون، لتوقيع عقود ترجمة بعض رواياتي، التقيتها في سهرة جمعتني مع بعض الأصدقاء، كانت عشيقة صديقي ولاحظت أنها لا تحول نظرها عني، كانت أمها عراقية ووالدها بولوني، لم تتكلم طوال السهرة، وكنت أحس بكهرباء يسري في جسدي كله حين تلتقي عيناي بعينيها، وحين أوصلتني مع صديقها إلى الفندق، طبعت قبلة على خدي، قبلة أحرقت جلدي، وأشعلت النار في شراييني، لم أستطع أن أغفو، أخذت أقلب محطات التلفاز، وأنا أستحضر وجهها العذب، وعينيها الساحرتين ترنوان إليّ طوال السهرة، لم يمر وقت طويل حتى سمعت نقراً على الباب، كانت هي، لم أندهش كما توقعت، كأنني كنت أترقب زيارتها، ودون أن نتبادل أي كلام، غرقنا بعناق وكأننا نأكل بعضنا، لكن، أخذ نفساً وأشعل سيجارة، كان يجب أن أقول لها بأنني عاجز جنسياً، فرفعت كتفيها استخفافاً بكلامي وكأنها لا تصدق، سألتني: هل أنت متأكد.

قلت: طبعاً، وهذا ما يسبب لي عظيم الألم.

سألتني: ألم تستشر أطباء؟

قلت: طبعاً، ولا يوجد علاج للأسف، فالأدوية، والكحول والتدخين سرّعت في شيخوختي.

قالت: لكني أحببتك، و...

قاطعتها: وصديقك.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لم تتركني أكمل، قالت بتضجر: إنه مجرد صديق، لا أحبه، لكن المجتمع يشعرني أنني ناقصة إن لم يكن لديّ صديق.

ضحكت: هل الصديق موضة؟

ردت: بالطبع.

سألتها: ولماذا أحببتني؟

قالت: لا أعرف، ولا أريد أن أعرف.

طلبت إليها أن تتعرّى، أذعنت، ووقفت أمامي كما خلقها الله، ياه، ليس هناك أجمل من جسد امرأة، كانت آلهة جمال، طلبت إليها أن تتمدد على السرير حيث ضوء القمر يغمر طرفه بلطف.

كنت أضاجعها بنظراتي، تأملتهما ساعتين، وغمرت جسدها بالقبل، وكانت تتأوه بنشوة، أقسمت أنها لم تشعر مثلها في حياتها...

كنا نصغي للقصة المثيرة التي يرويها كاتب البلاد، ووسط حسد أصدقائه له، كنت وحدي مستعدة أن أقسم أنه كاذب.

• • •

الخطايا تحمل وتلد

أليس القلق مرآة لعذاب الضمير؟ هذا ما كنت أفكر به طوال أيام بعد العشاء في بيت الكاتب، لم أكن أنا نفسي، كنت امرأة متعكرة ومشوشة، أغوص في أفكار مبهمة ترفض أن تتوضح لي، وكان شعور مستمر بالاشمئزاز يلازمني، أعرف أن مصدره السهرة مع كاتب البلاد وشلته، كنت أشعر بغثيان وأنا أستعيد كل النظرات والكلمات التي حاصرتني في بيته.

ولم أستطع رغم محاولاتي الصادقة أن أتفادى إحساسي بالضلال والخطأ، فجأة انفجرت فكرة في دماغي بأن أقطع صلتي كلياً مع الكاتب العجوز، نهشني الندم وأنا أتساءل بدهشة وكأنني امرأة أخرى: ما الذي جمعني به؟ هل أطمح أن يساعدني في النشر؟! لكنه لن يساعدني، كوم رسائلي، وقصصي اضطرتاه أن يعترف بموهبتي، لكنني متأكدة أنه لن يمد لي يد المساعدة، في أعماقه يخشى انطلاقي، يخاف أن أحقق ذاتي وأطغى عليه، .. يا له من أناني بخيل وسافل، تذكرت كيف يميل لتعهير الأديبات، واستعدت الكلمات والقصص التي حكاها لي عن أديبات مشهورات، صرخت بحنق وقد اتخذت قراراً لا رجعة فيه: بتر علاقتي كلياً مع الكاتب، والمطالبة برسائلي، اللعنة على الشهرة إن كانت ستكون عن طريقه، إنه يريد أن يعهّرني قبل أن يشهرني! هذا إذا صدق بوعده بأنه سيعرفني بناشره وسيفتح لي آفاقاً عديدة إنما في الوقت المناسب!

كنت أغلي من الغضب بسبب كل الالتباسات في علاقتي مع الكاتب، ومراراً هممت برفع السماعة والصراخ مطالبة برسائلي، وإعلامه أنني لا أريد منه أية مساعدة... لكنني كنت أتراجع كل مرة،

وكان خيالي ينجح في تفريغ شحنات غيظي عن طريق سلسلة من أحلام اليقظة التي تدور كلها حول شتم الكاتب والصراخ بوجهه بأن كرامتي فوق كل اعتبار، وأتخيله يستجديني كي أسامحه.

مرّ أسبوعان لم أسمع صوته، كنت أحس بسعادة خبيثة، لأنني عودته على اتصالاتي، ولأنني أعرف أنه لا يبادر ويتصل بامرأة – واحد من مبادئ حياته – وكنت أثلج صدري وأنا أتخيله قلقاً ومتلهفاً كي أتصل به. لا أعرف إلى أي حد كنت صادقة بقراري، ألا أتصل به، خاصة بعد أن تأكدت أنه لن يساعدني، لأنه حين فاجأني بزيارته بعد أسبوعين حاملاً دواوين شعر قيمة كهدية، وورود طازجة من حديقة منزله الريفي، أحسست بغبطة صادقة، رغم ارتباكي الشديد، كنت ألبس بيجامة مجعدة لم يكن وقتي أو يأسي يسمحان لي بكيها، لم أتوقع أن من يقرع بابي الساعة الثالثة بعد الظهر سيكون كاتب البلاد، اعتقدت أنه عامل التنظيفات، يطالبني بأجره الشهري.

وقبل أن أرحب به، أو أعتذر عن فوضى منزلي وشكلي، بادرني قائلاً: عشر دقائق فقط يا ابنتي فقط عشر دقائق سأمكث عندك، السائق ينتظرني، سأسافر فوراً لكني جئت.

قاطعته: يستحيل: سنشرب القهوة، سأنادي السائق، ثم لماذا كل هذه الهدايا.

هزّ رأسه متضجراً من كلامي: أنت غالية جداً، إنسانة موهوبة وحساسة، لكن يلزمك الصبر، أنت مستعجلة جداً على الشهرة. لا تتعجلي الشهرة يا ابنتي، دعي الشهرة تطاردك.

وجدتني أفجر سؤالي بيني وبينه: لماذا لا تساعدني!، لماذا لا تقدمني لناشرك؟ لماذا لا تتواسط لي؟ نظر إليّ بدهشة وقال متظلماً: ألّنا لم أساعدك، ألم أشهد بروعة رسائلك والعديد من قصصك أمام الجميع،

ألم أقل على مسمع منك بأن قدرتك على التعبير رائعة، وأنت تتفوقين عليّ.

قلت بحزم: لكني أريد مساعدة فعلية...

قال: كله بأوانه يا ابنتي.

قلت وقد أخذ الغضب ينمو في داخلي: ومتى يحين الأوان؟

قال: حين تنضج كتابتك أكثر، حين أقتنع أن أعمالك حين سيقرؤها الناس، سيثنون عليك ويتفاخرون بك، أنت موهبة كبيرة، لكنها بحاجة لتشذيب، ثم، لم تسأليني لماذا أزورك أنا الذي لا أبادر مع امرأة.

كان لا يزال واقفاً، أحسست بخجل، دعوته للجلوس، فرفض، قال: أرني أوراقك، كتاباتك، أين الرواية التي حدثتني عنها.

زغرد قلبي فرحاً، قدته إلى طاولة كتابتي حيث تناثرت الأوراق البيضاء، والمعلوكة بالحبر، أشرت إلى الرواية التي أكاد أفرغ منها، قلت: هذه روايتي...

كنت أغرز كل فصل على حدة، تناول اعتباطاً أحد الفصول، وقال حسناً، سأقرأ بتمعن هذا الفصل، وبعدها يكون لنا حديث، قد أقدمك لناشري.

اتجه إلى الباب وقال: إلى اللقاء، كوني على اتصال بي.

لحقته غير مصدقة ما يفعل، قلت له: لكن هذا مجرد فصل، في منتصف الرواية، يمكنك أن تأخذ الرواية كلها... كيف ستقرأ فصلاً كيفما اتفق..

ضحك ضحكته المتقطعة وقال: هذا شأني.

– لكن، اجلس قليلاً، يجب أن نتحدث... – كان مصمماً على السفر، حمل الفصل الذي لم أعرفه إلا حين قلّبت أوراق الرواية، تركني

منقوعة بالذهول، وهداياه الجميلة بجواري، كان أحد أحب الفصول إلى قلبي برفقته ترى كيف سيقرؤه، وهل سيعرف أنني أتحدث عن نفسي، متهربة من صيغة الأنا...

للذاكرة عالمها الخاص، أحسها تلعب في حياة الإنسان ما يقوم به الاصطفاء الطبيعي بالنسبة للأحياء، لقد اجتهدت أن أكتب بنزاهة الفصل الخامس من روايتي التي لا تزال ضبابية، كتبت عن نفسي، وبيني وبين تلك الفتاة التي كنتها حوالي عشرين سنة، لا أعرف إلى أي حد محت ذاكرتي حوادث، ورفعت من شأن حوادث أخرى، لكنها بالنتيجة أنشأت عالمها الخاص الذي سجلته لي في تلافيف دماغي، رؤيتي للأحداث بعد عشرين سنة من وقوعها يختلف كثيراً عن رؤيتي لها حين كنت أعيشها، ترى ما الذي يربط تلك الفتاة الرومانسية في العشرين من عمرها – التي كنتها – بتلك المرأة في الثامنة والثلاثين التي تحاول بإصرار أن تصير كاتبة، مؤمنة أن الكتابة هي طريق الخلاص الوحيد، من الهلاك الذي كانت تتنبأ به منذ البداية، حين كتبت هذه الأوراق أحسست بأمان، ربما أمان زائف، وأحسست بسعادة كبيرة شعرت أنني أمسح برفق على رأس تلك الفتاة العشرينية التي كنتها، جميل أن أصير أماً لنفسي، وبعد سنوات أغدو جدة أيضاً... كانت عيناي النفسيتان ترافقان الكاتب، وتتغرسان في عينيه لتقرأا معاً ما كتبته، وما كنته:

قررت أن تطلب العون من الكاهن العجوز الذي تحب قراءة كتبه ومقالاته في المجلات الدينية، وفي النشرات المطبوعة التي توزّع على المصلين يوم الأحد بعد القداس الإلهي، قلّبت الفكرة من جميع وجوهها فوجدت أنها تزداد قناعة بها كلما أمعنت التفكير، فهذا الكاهن الذي يقارب السبعين من عمره قديس حقاً، يعيش في دير بعيد حياة تقشف وعزلة، منصرف للقراءة والكتابة والعبادة، لكنه يهب وقته من وقت

لآخر للمتعبين الذين يطلبون معونته الروحية. كانت تجمعه مع والدها صداقة متينة تعود لأيام الشباب حين جمعهم حماس العمل في الجمعية الأرثوذكسية، كان الكاهن يترك ديره كل ثلاثة أشهر ليقوم بجولات في المدن يستمع فيها لمشاكل الناس ويقدم لهم مشورته الروحية، كانت أوسع غرفة في المطرانية تخصص له لاستقبال زواره، ويقوم كاهن بتنظيم المواعيد والمقابلات. العديد من البشر يكونون في حالة انهيار وتوتر قبل مقابلته، وبعد مقابلته يصبحون متسربلين بالطمأنينة والسلام، كان يملك القدرة على الشفاء الروحي، أحد الرهبان وصفه بأنه يملك قوة خاصة، يحارب بواسطتها شياطين الأهواء التي تعذب البشر، قيل إن أحد الشباب قصده بعد أن فشل في محاولة انتحاره، وعرض عليه ورطته، فقد تورط في علاقة شهوة مع زوجة أحد أعز أصدقائه، لكن ضميره صحا بعد فترة وأراد أن يتوب فلم تقبل الزوجة، وهددته بالانتحار فيما لو قطع صلته بها، كان الشاب يتمزق ندماً كل لحظة، وكانت نظراته التي تكشف تمزقات روحه لا تخفى حتى على البسطاء، فكّر باللجوء إلى الكاهن القديس، بأمل الغريق أن يرسل له الله خشبة نجاة يتعلق بها وسط محيط أهوائه، وحين عرض محنته على الكاهن القديس، أجابه الكاهن والنور يشع من وجهه: لا تخشى يا بني تهديداتها لك بالانتحار، روح هذه المرأة ميتة بالخطيئة، فلا ضير لو مات جسدها لن تنتحر – صدقني – لكن لو نفذت تهديدها فأنت بريء من موتها.

خرج الشاب معافى ومبهوراً من حضرة الأب الروحي، ظل لأيام يشعر أن روحه تحلّق في فضاءات ساحرة لم يعرفها يوماً، كان يشعر أن روحه تطير وتطير دون أن تلاقي حواجز، يتخيلها كعصفور ذهبي يلحق قوس قزح وهو يغرّد بصوت عذب، مفعم بشجن جميل، بعد أشهر تزوج الشاب من فتاة على درجة عالية من الإيمان والولاء للطقوس

الدينية، وأول خطوة قام بها بعد زواجه، زيارة الأب الروحي والحصول على بركته.

أجل، ستلجأ إليه وستحكي له المشكلة التي تعذّبها بضراوة، حبها للمسلم، ولن تخشى أن تسأله: لماذا خلق الله عدة أديان؟ لماذا لا يكون هناك دين واحد؟ ولغة واحدة؟ ولماذا يمنع التزاوج بين الأديان؟ ياه إنها لا تملك سوى حفنة من اللماذا؟ لكنها خشيت أن يفضح سرها أمام والدها لدرجة فكرت أن تعدل عن زيارته، لكن قلق مشكلتها المتعاظم رجّح كفة زيارته، أجل ستقصده، إنها بحاجة ماسة كي تسمع رأيه، وليكن ما يكون.

كان كاهن شاب في المطرانية ينظم مواعيد المقابلات مع الأب الروحي، وحين قصدته رفع إليها عينين مذهولتين تسألانها: أنت لديك مشكلة؟ ابنة العائلة الأرثوذكسية المثالية تعاني من مشكلة! أحست في نظرته اتهاماً وفضولاً، لكنه عالج فضوله بابتسامة وحدد لها موعداً بعد يومين، أحست براحة شديدة كونها ستلتقي الأب الروحي على انفراد، كم تحتاج أن تبوح بسرها وتتحرر من ثقله، وإثمه، لماذا الحب آثم دوماً – كما علموها –؟! أحست أنها لا تريد حلاً بقدر ما تريد أن تحكي، كانت الأسئلة والانفعالات تتزاحم في ذهنها لتجعلها تتحول إلى سؤال كبير في وجه الحياة، في وجه الكنيسة الأرثوذكسية تحديداً: لماذا تمنعوني من الارتباط بمسلم؟!

الواحدة ظهراً موعدها مع الكاهن، منذ الصباح تداهمها رغبة قوية بالبكاء، قاومتها بشراسة متوسلة لعينيها أن تؤجلا ذرف الدموع حتى يحين الموعد مع الكاهن، ستعزّز دموعها معاناتها، سيعرف كم هي معذبة وتائهة، لكن ظلت عيناها ترشحان الدمع الذي ترشفه على مهل طوال ساعات النهار، حتى حان موعدها مع الكاهن.

كان باب خشبي كبير محفور بأشكال هندسية بديعة يفصلها عن الكاهن، وفي الرواق الطويل البارد المفروش بسجادة رمادية كانت قصة حبها تنفرد صوراً ساحرة أمامها، ارتعشت لذكرى القبلة الأولى، كانا في رحلة جامعية، ووسط الدبكة الجماعية والضحك والغناء لم يعرفا كيف انسلاّ إلى خلوة وتبادلا قبلة لاهثة وجلة بحماية جذع شجرة سنديان هرمة، آمنت أن وظيفتها الأساسية حماية العشاق من أنظار الفضوليين، لم يرتب أي منهما لهذه القبلة، رغم أن كلاً منهما عصر ذهنه لتسهيل احتمالاتها، ومتى ستتجسد من الخيال إلى الواقع، قبلة ساحرة لا يمكن لها تذكرها ما لم تستعد بذاكرتها روائح الأرض والعشب المندى وثغاء خروف بعيد، وهسيس أغصان الأشجار، التمعت عيناها بالألق الانعكاسي الذي خلفه تذكّر القبلة، أحست بالخجل كونها تنتشي بخيالاتها العاطفية وهي على بعد دقائق من موعدها مع القديس الذي لم يعرف امرأة، انفتح الباب فجأة وخرجت سيدة تلبس ثياب الحداد، أطلقت زفرة ارتياح طويلة وهي تغلق الباب وراءها، أومأ لها الكاهن أن تتفضل، لا تعرف لماذا خانتها قواها وهي تنهض، كانت تمشي بصعوبة وقدماها خدرتان، ورغم أنها لم تخطُ سوى خطوات قليلة حين فتحت الباب وأغلقته وراءها، إلا أنها شعرت أنها تتفرغ من ذاتها في كل خطوة تخطوها، وبأنها ما عادت سوى كيس كبير فارغ تماماً، جاهز للامتلاء بما سيقوله الأب الروحي.

صالون فسيح مربع الشكل يزيد طول ضلعه على عشرة أمتار، لوحة العشاء السري تحتل عرض الحائط مقابل الباب الرئيسي، صور أيقونات بمقاس واحد للعديد من القديسين بهالات النور حول وجوههم السمراء النحيلة، وعيونهم شديدة الاتساع التي ترى ما لا يراه البشر، عشرون مقعداً جلدياً مرتبة في الصالون بدقة، ثريتان ضخمتان من

الكريستال تتدليان من سقف يرتفع أكثر من خمسة أمتار عن الأرض، وعلى أحد المقاعد كان القديس الضامر يغوص في إسفنج الأريكة، متشحاً بالسواد، لا يبدو من وجهه سوى عينيه الضامرتين الغائرتين في محجريهما، وقد حفّ بهما شعر لحيته الفضي الكثيف، وحاجباه الكثيفان الأبيضان، وشعر رأسه الذي جمعه في جديلة تصل حتى كتفيه، أحست أن كل العالم هباء، فهي في حضرة وجود شديد الكثافة من القدسية، حين عرفها بعد أن حدق فيها طويلاً، لأن الماء الزرقاء في عينيه تشوش رؤيته كثيراً، قام فاتحاً ذراعيه لاستقبالها احتضنها وقبّلها بحنان وهو يقول: يا لها من مفاجأة سارة يا نازك، أهلاً بك يا صغيرتي.

لامست لحيته المشعثة وجهها، أسعدها أنه قبلها من وجنتيها، لم يمد لها يده كعادة رجال الدين، دعاها للجلوس إلى جانبه، وسألها عن أفراد أسرتها واحداً واحداً، أحست بارتباك وخزي شديدين، فكّرت: كم سيخيب أمله حين سيعرف أنني أحب مسلماً، طلبت من دموعها أن تستأنفا الانهمار، ليقرأها من خلال بخار روحها المتكثف في عبرات تمنّت للحظات لو تفرّ هاربة، أو لو تزوّر سبب زيارتها له فتختلق أية مشكلة، المهم ألا تعترف بحبها للمسلم، لكنه حين ربت على كتفها كي تحكي كل ما يؤرقها، حين رفعت إليه عينيها التائهتين الطفليتين، وغرقت نظرتها في رماد عينيه اللتين جمعتا صفوة خبرات الدنيا، وجدت الكلمات تتدفق من قبلها إلى شفتيها مباشرة، لتقول بصوت لا يشبه صوتها أبداً:

– أنا أحب مسلماً –. اصطدمت كلماتها بالأيقونات، فنبذت عيون القديسين كلامها، وأعادتها إليها محمّلة بالغضب والاستياء، أحست نظرات القديسين كحجارة تنثال على جمجمتها ضرباً، بدت لحظات الصمت التي أعقبت اعترافها لانهائية. صوّر لها خيالها صفعة مدوية تنهال على خدها من يد القديس، وللحظة هيأ لها أنها تسمع شتائمه

واستنكاره لاعترافها، لكنه فاجأها بسؤاله: أهو زميلك في الجامعة؟

قالت: أجل، لكنه في كلية الطب، ويكبرني بعامين:

– ومنذ متى أنت على علاقة معه؟ – قالت – منذ ستة أشهر –. هل تلتقينه على انفراد؟ – حاصرها السؤال، عرّاها، شعرت كأنه ضبطها تمارس الحب مع المسلم، لم يعد بإمكانها أن تكذب أو تتراجع، استطاعت أن تفهم شعور آدم وحواء حين ضبطهما الله متلبسين بإغواء الثمرة المحرّمة، قالت بلهجة الاستسلام التام:

– أجل التقيه على انفراد –. أحست أن الهدوء في الغرفة أكثر مما ينبغي، وبدت في نظر نفسها متلاشية، وقد خارت كل قواها دفعة واحدة، تساءلت، لعله ينوّم الناس بعينيه الرماديتين؟ لم يتناها إلى سمعها أية ضجة أو صوت من الخارج، كانا وجودين حرّين طافيين في فراغ الغرفة الواسع، تبحلق بهما عيون القديسين، وينتظرهما صليب من خشب متربع فوق الباب الكبير... ترى هل سيصلبها على هذا الصليب؟

ارتاحت كونها ألقت عن كاهل روحها العذاب الرهيب لحبها، أحست أنها لم تعد معنية على الإطلاق بمشكلتها بل إنه وحده المسؤول عن هذا الحب، وعليه أن يحل إشكاليته بخبرة جهاده الروحي التي تزيد عن نصف قرن.

فاجأها بسؤاله: هل تعرفين معنى المعمودية يا نازك؟

سألت بدهشة: المعمودية!!

قال بصوت هامس: أجل المعمودية.

كانت قواها تتركز في أذنيها لتفهم كلماته الخافتة، تساءلت: هل سيمتحنني في أمور الدين؟ جئت أطلب مساعدته في مشكلة تؤرقني ليل نهار، علاقتي مع المسلم فيسألني عن المعمودية!

لم تجب، تابع بصوته الهامس: المعمودية هي الولادة بالمسيح، إنها

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الولادة الثانية بالروح، لأن المسيح يدخل بواسطتها في تفاصيل حياتنا اليومية، إنها ولادة الروح يا نازك، وهي أكثر أهمية بما لا يوصف من ولادة الجسد.

ودت لو تسأله: لكن ما علاقة المعمودية بحبي للمسلم؟!

قرأ سؤالها في عينيها فقال: حب الشباب سطحي، بتعبير أدق جنسي، فيه لهفة وهوى، يطبعونه بطابع الخلود والديمومة، دافعه الرئيسي الغريزة، لكنهم يغفلون عن الغوص في أعماق النفس البشرية، لأنهم ضحايا أهوائهم، لو استطعت يا نازك أن تخلقي مسافة بينك وبين حبك للمسلم، وأن تتأملي هذه العلاقة بعين المعمودية أو الولادة الثانية بالروح، سيروعك الفرق بينك وبينه، أنا لا أنتقص من دينه ولا من كرامته كشخص، لكني أنبهك لتأمل الفروق الشخصية العميقة بينك وبينه، فكل منكما ابن بيئة مختلفة، وثقافة مختلفة، وعادات مختلفة، ورؤية للحياة مختلفة أيضاً، إنه غير معمّد، المسيح لا يدخل جوهر حياته مثلك، المسيح كالهواء، كالماء، بلا لون ولا طعم ولا رائحة، ومع ذلك فلا حياة بلا ماء وهواء، المسيح قدّس العلاقة الزوجية وربطها مع الله: ما جمعه الله لا يفرّقه إنسان، والرجل رأس المرأة كما المسيح رأس الكنيسة لكن عند المسلمين يقولون: تزوجوا مثنى وثلاثاً ورباعاً.

أنت غافلة عن الجوهر يا نازك، وقد يعمي الحب بصيرتك حتى بعد سنوات من زواجك من المسلم، أشكرك على ثقتك يا نازك، أنت ابنتي الحبيبة بالمسيح، صدقيني لقد ساعدت شابات كثيرات تورطن في علاقات عاطفية مع شبان غير مسيحيين، وبعضهن لم يأبهن بنصيحتي، بل سمحن لقلبهن أن يجرهن إلى الزواج، وعدن إليّ نادمات حتى الانهيار يجرجرن ذيول خيباتهن، مكتشفات بعد فوات الأوان أن الندم لم يعد ينفع، إحداهن قالت لي: بأنها تشعر بسهم من نار يخترق قلبها كلما

سمعت صوت جرس الكنيسة.

كانت مساماتها تمتص كلماته الهامسة، لشد ما أحست براحة وهي تسمعها، حسدت نفسها كونها لا تزال واقفة على برّ الأمان، ولم تتزوج المسلم بعد، ياه كم كانت غافلة عن هذه الحقائق، أجل المعمودية المقدسة، إنها ليست معمودية ماء بل معمودية روح، ترجّع صوت والدها في ذهنها الحمد لله أنه خلقني مسيحياً؟! رفعت عينيها إلى لوحة العشاء السري الكبيرة، رمقت يهوذا بكره، للحظة أحست أنها يهوذا الذي تنكر للمسيح وسلمه لليهود ليصلبوه، سرت فيها قشعريرة إيمان هزّت كيانها كله، ياه كم كانت تائهة وبعيدة عن المسيح. مسح على رأسها بحنان وقال: الجنس عند المسيحيين قربان، وعند المسلمين نهم.

الجنس بين المرأة والرجل المسيحيين هو حضور إلهي، أما عند المسلم فهو مجرد متعة.

المال والبنون هما زينة الحياة الدنيا عند المسلم، أما عند المسيحي فأساس الزواج هو الحب، وليس الأولاد. استرخت مفاصلها، رغبت بالنوم عميقاً، ياه كم هو محق، بدا لها حبيبها شيطاناً متنكراً يحرقها بالشهوة ويحيي غرائز الجسد غير المنضبطة في روحها، أين خبرتها من خبرة قديس تجاوز السبعين من عمره، عاين الله طوال حياته، إنه يعطيها رحيق خبرته الروحية لتتدارك السقوط.

تدفّقت دموع الندم من عينيها، قام إليها يحضنها ويقول لها: نازك يا طفلتي، لا تعذبي نفسك بالندم، كل البشر يخطئون سأصلي لأجلك كل يوم يا نازك كي ترتاح روحك، كان وجهها مدفوناً بلحيته أمكنها رغم تماهيها في هيمان كلماته أن تشعر بقوة قبضتيه تشدانها إلى صدره، ولم يفتها سماع سؤال خبيث انبعث من مكان ما في فضاء الغرفة، كأنه فقاعة صابون انفجرت لتوها:

– ألا يشعر هذا القديس بمتعة وهو يحضنها؟! – لكنها طردت بقسوة هذا السؤال الذي اعتبرته همساً شيطانياً، أدهشها أنه طلب إليها أن تتذكره في صلاتها.

قالت باستغراب: أأنا، أصلي لك؟!

قال وقد حررها من أسر يديه: أجل يا نازك، أنا خاطئ، صلي لأجلي، قد تكونين أقرب إلى الله مني.

سألته: أأنت خاطئ؟! لكن من أين ستأتيك الخطيئة، وأنت تعيش في دير منعزل تتعبد الله.

لم تكن تلاحظ حركة شفتيه حين يتكلم، لأن فمه كان مغطى كلياً بلحيته وشاربه الكثيفين، كان تسمع صوته قادماً من البعيد، هامساً واهناً، فتخمن الكثير من كلماته التي تتبدد في أشعار لحيته، قال لها: الخطيئة في الروح، كما قال بولس الرسول: ليس ما يدخل إلى الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج منه.

قالت له وهي تمسح دموعها: أعدك أن أبتر علاقتي مع المسلم.

قال: كنت واثقاً من رجاحة عقلك يا نازك، فمن تكون ابنة أسرة مسيحية مثالية مثل أسرتك، يستحيل أن تخون المسيح.

طلب إليها أن تركع، وضع راحته على رأسها وأخذ يتمتم صلاته الخاصة، ومع كل فاصل كلامي، كانت راحته تضغط أكثر فأكثر على رأسها، حتى أحست أنها ستتهاوى وستنبطح أرضاً، لكنها كانت تقاوم ضغط راحته بقوة انعكاسية من كتفيها، أنهى صلاته، فأرادت أن تلثم يده، كعادتها في مصافحة رجال الدين، لكنه جرها من يدها، وحضنها ثانية، وقد رشحت عيناه الغائرتان بالدموع، تأثرت وهي تلمح دموع القديس تترقرق في عينيه، قالت له بصدق يلفح كيانها: أشكرك من كل قلبي يا أبتي.

مدّ لها أخيراً كتاباً صغيراً لصلوات خاصة تعينها للشفاء من حب المسلم، ونصحها بتلاوة الصلوات صباحاً ومساء، وبأن تمارس الركوع والسجود، وجبينها يلامس الأرض، أرادت أن تستفهم عن أهمية السجود الذي بدا لها مهيناً، خاصة إذا لامست جبهتها الأرض، قطع أمامها طريق الاستفهام قائلاً:

– كي نحيي أرواحنا يجب أن نميت أجسادنا الملتهبة بالشهوات، لا شيء يغلب الشيطان يا نازك سوى الصلاة الصادقة. ودّعها حتى الباب مؤكداً لها أنه سيتصل بها في كل مرة سيأتي للزيارة لتفقّد رعاياه. – حين خرجت غامت الدنيا في عينيها، أحست أنه قد مضى دهر وهي في حضرة القديس، لم تعرف أنه بأقل من ربع ساعة قلب كيانها رأساً على عقب، واستفزّ ذاكرة مختزّة عمرها سنوات، خرجت ملتهبة بقرارها الذي أضاء في روحها ستبتر علاقتها بالمسلم، وستبدأ عهداً جديداً مع نفسها.

• • •

لأيام بقيت ممتلئة بكلام الكاهن، الحمد لله أن إلهاماً ربانياً قادها إليه، ليكشف لها ضلال مشاعرها، كانت مفتونة بمنطقه شديد الذكاء والتماسك كما أحسته. وحين شرح لها كيف أن أساس حب الشباب جنسي أحست أنه يقدّم لها كشفاً رائعاً. لكن إلى أي حد ينطبق هذا الحكم على علاقتها مع المسلم، لا تنكر أنها تحس بجاذبية لا تقاوم إليه، تشتاق لقبلاته ورائحته ونظراته، تتقلب طويلاً في فراشها وهي تحلم به يأخذها بين ذراعيه، لكنها تعرف أن ما بينهما أكبر بكثير من مجرد ميل جنسي، لقد أحبته رغماً عنها، رغم حاجز الدين المخيف المنتصب بينهما، لكن ما جدوى هذا الكلام الآن، إنها بحاجة لموقف حاسم بدأه الكاهن وعليها أن تكمله بحزم وصلابة تقتضيه مصلحتها ومصلحة أسرتها، لم يكف

خيالها عن استرجاع لقطة أبدية هي كيف ستبوح لحبيبها بقرارها، كيف ستقول له بأن ما بينهما قد انتهى، وبأنها لا يمكن أن تتزوجه بسبب الفروق الجوهرية الكثيرة بينهما والتي ستفصح عن نفسها بعد الزواج، إنها تدرك أنها ليست بحاجة لشرح أسبابها، ففي أعماقه سيفهم ويقدّر، ستتألم لفترة تطول أو تقصر، لكن العقل والإرادة كافيان لبلسمة آلامها، وبعد فترة نقاهة ستكون منفتحة على الحب مجدداً إنما لشاب مسيحي هذه المرة.

لم تبدُ بنظر نفسها متهورة كما بدت في علاقتها مع صفوان، يا للجنون، هذا ما كانت تردده لنفسها، صفعتها ذاكرتها بصورها متسللة إلى بيته الواقع في الطابع السادس، كيف كانت لا تبالي بنظرات الجيران تقيّمها وتحتقرها وكيف كانا يدرسان ويعدّان الطعام، ويعانيان من تخمة الحب وضجره أيضاً، كانا يتألمان من شعورهما أنهما مسجونان في قفص، لا يمكنهما الجلوس في المقاهي ولا المشي في الشارع متجاورين، تساءلت: عجباً كيف طوّحت بسمعتي عرض الحائط، ترى ألن تؤثر هذه العلاقة على زواجي من مسيحي في المستقبل؟

لأيام عاشت حرّة تماماً من أشواقها للمسلم، لم يعد اسمه صفوان، بل المسلم كانت متخمة حتى الغثيان من كلام الكاهن، واعتقدت أن المشكلة حلّت بطريقة سحرية من تلقاء نفسها، آمنت أن هناك عناية إلهية خفية قادتها إلى القديس، لتتلقى العون الإلهي عن طريقه، أو ليس الكاهن بدل المسيح على الأرض؟!

لم يعد أمامها سوى إبلاغ صفوان أن ما بينهما قد انتهى، لذلك حين أتاها صوته بعد عودته من عمان في زيارة لأهله لمدة أسبوع لم تنفعل، قالت له ببرود: الحمد لله على السلامة، كانت حريصة ألا يشف صوتها عن موجة شوق، حين عبّر لها عن افتقاده الشديد لها. ورغبته في لقائها

حالاً. أبعدت سماعة الهاتف عن أذنها، لم تكن تريد أن تسقط بالغواية، اعتقد أن أحد إخوتها أو والديها بجوارها، فاضطر أن يختصر المكالمة ويستعجلها للقائه في منزله، لكنها اعتذرت وأبلغته بلهجة جافة أنها ستلقاه صباح الغد في مقصف الجامعة.

سألها: لم لا تحضرين إلى البيت؟

تجسد لها إغراء جملته صوراً متلاحقة من الاحتضان الرائع بينهما، ارتعش صوتها وهي تجيب: في الجامعة أفضل.

سأل بلهفة: هل هناك مشكلة ما؟

قالت وقد بدأت تشعر أنها تتهاوى وأن إنهاء ما بينهما ليس بالأمر السهل كما تصورت: إلى الغد.

أسرعت إلى كتاب الصلوات الذي قدّمه الكاهن، تطلب منه العون، قرأت بذهن مشوش صلاة الخاطئ، وكررت بصورة ببغائية: يا رب اغفر لي أنا عبدتك الخاطئة، آلمتها ركبتاها من الركوع تذكرت نصائح الكاهن يجب أن تسجد ويلامس جبينها الأرض، أحست بارتفاع مؤخرتها فوق مستوى رأسها، آلمها هذا الوضع الذي أشعرها بالمهانة، انتفضت واقفة وهي تحس بسخط على الكاهن ولم تستطع كبح غضبها ونفورها من نصائحه، حدثت نفسها ساخرة: والله كأنه يصف لي دواء أتناوله ثلاث مرات في اليوم، قلّبت صفحات كتاب الصلوات بشك كأنها تسأله: أحقاً فيك الراحة والاطمئنان؟!

شحذت ذهنها طوال ساعات المساء كي تستعيد قناعتها وحماستها بشأن قطع علاقتها مع المسلم، عجبت كيف فقدت كلمات الكاهن ألقها، ما كانت تجرؤ على الاعتراف بينها وبين نفسها أن روحها كانت تهيم هناك في غرفة الحبيب، وفوق سريرهما الضيق الذي شهد تجسد حبهما، كان عذاب ضميرها يروعها وهي تتخيل مدى ألمه بقرارها، لكن لن يثنيها

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عن هذا القرار شيء حتى لو نهشها الألم بلا رحمة.

أيقظها شوقها إليه من عز النوم، قامت من فراشها تسير في ضباب العتمة، وقد رأت أهلها بعين خيالها طافين على سطح النوم، رمقتهم ببرود مبطّن بالكره، إنها تكره تصلبهم الذي يسيّر حياتها، وطغيان أفكارهم على حياتها، ياه، كم تحس بالاختناق، كانت عيناها متوقدتين ونهداها مشرئبين، هالها الجفاء والقسوة اللذان خاطبت بهما صفوان، لذعتها أنفاس الشوق إليه مع دقات الساعة في الصالون التي تشير إلى الثالثة والنصف فجراً، كانت روحها متهيجة بالشوق العقيم، كبحت رغبة عنيفة للاتصال به، لتسمع صوته وتحس أنفاسه، لتسترخي أعصابها وهو يصف لها افتقاده لها سرت رعدة في جسدها وهي تستعيد همس أشواقه عبر سماعة الهاتف، مزقتها شهوة الارتماء بين ذراعيه، تساءلت: ما الفرق بين الحب والشهوة؟! ياه كيف اعتقدت أنها شفيت من حبه خلال الأيام المنصرمة، صرخت بصوت أخرس ترجو الكاهن أن يهب لنجدتها، قالت لصورته الشبحية المرتسمة في خيالها بأن الوصفة التي قدّمها لها لم تنفع، فلا كتاب الصلوات ولا السجود نفعاها، همست الستائر والأثاث والثريات الغارقة في السكينة بجملة حزينة، يا رب اغفر لي أنا عبدتك الخاطئة، بحثت عيناها بقلق عن الحقيقة التي كانت تحاول تصيدها في فضاء الصالون، أي حقيقة؟! ولماذا تشعر دوماً أنها تفتش عن الحقيقة؟! انطلق شرر التمرد من عينيها، تصلبت نظرتها فوق يديها المتشابكتين بقوة وقالت بتصميم: لكني لست خاطئة، لست خاطئة، لماذا يريدون سحقنا أمام الإله؟ لا تغفر لي يا رب فأنا لست خاطئة. قامت من مكانها لتجلس على الأريكة المجاورة للهاتف، لمست أزراره بحنان، ورسمت سبابتها رقمه دون أن ترفع السماعة، نظرت في ساعتها وتأوهت: أوف ما أبطأ مرور الزمن، تخيلته نائماً، وحيداً وحزيناً. ما

أقساها، كيف لم تسرع للقياه، وهو قادم من سفره محملاً بالشوق والهدايا، كعادته كل مرة، ابتسمت لصورته ازدادت ابتسامتها اتساعاً وهي تستوعب عمق رقته ولطفه، في كل مرة يسافر، يعود محملاً بالهدايا، حدّث أهله عن حبه لها، باركوا علاقته بها رغم أنها مسيحية، كانت أمه ترسل لها الحلوى التي تحبها، وقد حاكت لها كنزة رائعة ياه، كيف ستستطيع بتر كل ذلك الحنان، كيف سترفض الحلويات المعجونة بالحب التي أعدّت خصيصاً لها.

انفجرت ببكاء عاصف جعلها تهتز كورقة في مهب الريح، كان فكاها يصطكان، وكتفاها يهتزان من قوة صراع عواطفها وعقلها، وتصلب تفكيرهم المطبق عليها كفخ محكم، ماذا ستفعل؟ لماذا لا تستطيع أن تطوّح بأفكارهم وتتزوج من تحب ببساطة؟ في أعماقها كانت تدرك عجزها عن ذلك الفعل الثوري العظيم، إنهم جذورها، تحس بالشلل لو انسلخت عنهم أو عارضتهم، لكن ما دواء حبها؟ إنها تموت عشقاً. ما حل هذه المعضلة يا سيدي الكاهن القديس؟! كانت صورة الكاهن ترتسم على الستارة مقابلها وقد غارت عيناه في محجريهما، كان يطلب إليها السجود والركوع وترداد الصلوات ثلاث مرات في اليوم، بدا لها الكاهن في ساعات الفجر الأولى رجلاً على ضلال كبير يوزّع الأوهام على الناس، يقنعهم بها لأنهم بحاجة أن يقتنعوا. عجبت من حياة الرهبان، تساءلت: كيف يعيشون دون أن يلمسوا امرأة؟ ما هذا الجنون؟

تمنّت لو تصارح صفوان بزيارتها للكاهن، أترضى أن تسبب له الألم. هدّها الإعياء بعد عاصفة العواطف، قامت إلى سريرها ترجو سلطان النوم أن يغطيها برحمته، تنبهت إلى فكرة تخزها كحربة هي أن الكذب غدا عصب حياتها منذ مدة، فهي تكذب على حبيبها وعلى أهلها، ورغم إحساسها بخطورة هذه الحقيقة، إلا أنها رمقتها بلامبالاة، وهي

تغمض أجفانها كي تنام نوماً مضطرباً سطحياً.

استيقظت على شعور عميق بالكآبة، وحين نظرت في المرآة لتسرح شعرها، أحست أنها تطل على سنوات حياتها كلها، وبدت لها الذكريات تنضح بالألم رغم الظاهر المبهج والمتوازن لها، إنها تعيش كالبهلوان الذي يسير على حبل، عليها أن تخلق صلحاً قسرياً وتوازناً لا يمكن أن يتحقق بين رؤيتهم للحياة ورؤيتها التي يمنعونها من التبلور، لكنها تحسها في أعماقها كطاقة حيوية كبيرة لا تجد منفذاً. قبّلتها أمها وهي تقدم لها كأس الحليب، هاجت دموعها من قبلة الحنان الصافية، كم تحب هذه المرأة، ترى لماذا لا تستطيع جمع حبين في قلبها؟ شربت الحليب فسرى دفؤه في أوصالها، وأشعرها بشيء من الاسترخاء والاطمئنان، لم يخف عنها شحوبها الخفيف، والتعب العميق المختبئ في حدقتيها، ابتسمت لفكرة أنها ستلقاه بعد قليل، ورغم أن خطواتها كانت تتتابع بخط مستقيم، إلا أنها كانت تشعر أنها تسير بلا هدى، وبأنها لن تصل إلى شيء ولن تدخل في شيء، بل ستظل على مسيرتها التائهة إلى ما لا نهاية، حتى يبتلعها الموت، ياه أحياناً يكون الموت حلاً، رغم أنها ترتعد حين تفكر به كانت تدرك حقيقة ذاتها في تلك اللحظات، فهي غير قادرة على اتخاذ قرار أبداً، ولن تستطيع الانسلاخ عن مشيئة أهلها، وفي الوقت نفسه لا تملك شجاعة بتر علاقتها مع صفوان، إنه نافذة الأمل والحب في حياتها، إنها تنمو بالحب بشركتها معه، وهي تعرف مدى إحساسه بكرامته فيما لو طلبت إليه أن ينفصلا، فلن يتصل بها ولو احتضر من الألم والشوق، تراقصت صورة الكاهن أمام ناظريها، فأجهدت نفسها كي تطرد تلك الغشاوة عن عينيها، لكن صورته حاصرتها أكثر فأكثر حتى وجدت نفسها تكز على أسنانها وهي تقول له بحنق: أكرهك. كان حزنها عميقاً لدرجة بدا معه البكاء غير مجدٍ، فلا

شيء يمكن أن يخففه، حين وصلت مقصف الجامعة كان بانتظارها، لمحت البهجة تشع من عينيه حتى وهي تراه عن بعد، تبينت بشاعة خيانتها له، وكيف تمنت أن تستأصله من حياتها كورم خبيث، استسمحته في خيالها على كل ما فعلته بغيابه، كان يلبس قميصاً أزرق أضفى هدوءاً ساحراً على وجهه الأسمر، وعينيه العسليتين الصافيتين، قفز قلبها من بين ضلوعها كجروٍ صغير يسرع باتجاه أمه كانت خطواتها تنتظم على لحن: ما أجمل الحياة، ما أجمل الحياة، ضغط على يدها فسرت رعشة في جسدها وهي تقول له: الحمد لله على سلامتك، كان قد أخفى باقة البنفسج في الجريدة اليومية، ضحكا معاً، ضحكة غسلت كل عكر الأيام الماضية، تذكرت كتاب الصلوات وترددها الببغائي لعبارة (يا رب اغفر لي أنا عبدتك الخاطئة) شعت عيناها بألق الحب، سألت الدنيا ساخرة أأنا خاطئة، ثم أردفت: ما أحلى الخطيئة.

لم يعاتبها على جفائها مساء البارحة، بل سألها أن تفسّر له لهجتها القاسية، قالت متملصة من الجواب:

– لا تبدد فرحتي الآن بلقياك. أريدك أن تحكي لي عن سفرك إلى عمّان بالتفصيل، وكيف حال أهلك.– كلهم بخير، يسلمون عليك، وأمي أرسلت لك حقيبة من الأغراض. خفق قلبها وهي تتساءل: أتحبني حقاً؟

– بالتأكيد، سوف تتعرفين إليها، فهي ستزورني الشهر القادم. – لكن، ماذا أرسلت لي؟ – لن أقول لك حتى تأتي بنفسك. – اشتعل شوقها فجأة وقالت: هيا بنا.

منعاً للشبهات سبقها إلى شقته، ترك الباب مواربا كالعادة، دخلت كلصة وأغلقته وراءها، ودون أن يتفوها بكلمة كانا يذوبان في عناق صامت طويل، يضطران لقطعه لشحن أنفاس جديدة لاستئناف عناق أقوى. لم تكن تعرف إلى أي حدّ تحبه، وكم قطعت أشواقاً من الوهم في غيابه،

حتى اعتقدت أنها يمكن أن تستأصله من روحها كما يخرج الإنسان شوكة من إصبعه، لم تعرف أن بوسع عينيه أن تكونا فضاء لا يحده عائق تنفرد فيه روحها وتتمطى منتشية، ما سر الدوار الخفيف الذي تحسّه حين تتنفس رائحة جلده، ألا يعتبر موت خجلها منه علامة الحب المميزة؟ هل خطر ببالها يوماً وهي الابنة البارة للديانة المسيحية التي تعتبر الجسد عورة، أن تقوم من سريره عارية كما خلقها الله، وتتمشى في أرجاء بيته، تحضر زجاجة الماء ليشربا معاً.

لكنها طوال عناقها الحار مع المسلم لم تستطع طرد شبح الكاهن الذي كان يجلس على الكرسي الهزاز يرمقها بعينيه الرماديتين الغائرتين، ورغم أنها كانت مندمجة مع حبيبها حتى التلاشي، فإن خيال الكاهن ظل ينغصها، حتى أنها انتفضت من السرير وقامت تحمل الكرسي الهزاز وتخرجه خارج الغرفة، لكن صورة الكاهن ارتسمت مجدداً على حمّالة الثياب الطولانية المتفرعة في أعلاها كزهرة التوليب، وقد انتشرت ذقنه المشعثة على التفرعات، وحين ركن جسداهما في غيبوبة النشوة، وتعمّدت أن تدفن وجهها في صدر صفوان لتمحو صورة الكاهن، لكن عبثاً ارتسمت الصورة على جلد صدره الأسمر.

سألها: كيف كان العيد؟ ماذا فعلت بغيابي؟

سرت رعدة في جسدها، تحاشت أن تلتقي عيناها بعينيه، قالت: مرّ العيد كالعادة، أكلنا دجاجاً محشواً، ولوّنا البيض.

ضحك متسائلاً: أهذا هو العيد، دجاج، وبيض ملوّن.

قالت: أجل، وهتفنا المسيح قام، حقاً قام.

همّت أن تعترف له أنها قصدت الكاهن، أحست أن من واجبها أن تعترف لكن أية طعنة ستسددها له الآن وهو منهمك في إخراج الهدايا لها، انفجر صداع عنيف في رأسها ربما لينقذها من إحراجات روحها

المشتتة أغمضت عينيها إعياء، وقد شبكت يديها على صدرها، ومدت رجليها في استقامة، حدّثت نفسها أنها بهذه الوضعية سيوسدونها في النعش، لم يبد لها الموت مخيفاً، إنه الراحة الأبدية بالتأكيد حيث يصفو كل شيء ويحمي كل عكر..

• • •

ما كانت تجرؤ أن تناقش التشكل النهائي لأفكار والديها، إنها تشعر أنهما يعطيانها كل شيء، عدا حقها أن تكون حرّة، أقنعاها أنهما يريان ما لا تستطيع رؤيته، وبأنهما يعرفان طريق المستقبل المكلل بالنجاح لها ولكل واحد من إخوتها، لا يمكنها أن تشك بصواب أفكارهما. لكنها لا تستطيع تجاهل ألم روحها العميق وهي تسمع حوار أمها وأبيها الأبدي: نتمنى لو يموت أولادنا ولا يتزوجون خارج دينهم! لا تنسى ذلك اليوم البعيد، كانت لا تزال طفلة حين سألت أمها المفتونة بالمطرب عبد الحليم حافظ:

– ماما، لو تقدّم عبد الحليم لخطبتك قبل أبي، أما كنت توافقين؟. –

– ضجوا بالضحك، قالت أمها بقناعة مطلقة: بالطبع لا، لأنه مسلم. – لكنك معجبة به كثيراً. – – لكنه مسلم. – كانت تشعر أنها تركب في زورق يقوده الأب عابراً بهم نهر الوهم، ومغلقاً عقولهم عن التفكير الحر ذلك الانغلاق الذي جوهره رفض الآخر، ما كان يشقيها ويؤرق روحها كون أعز أصدقاء والديها من المسلمين، وكانت أجوبة الأهل جاهزة حين تتساءل: كيف يكون أعز أصدقائكم من المسلمين وتتبرؤون منا لو تزوجنا مسلمين؟!

جوابهم الوحيد المتحجر: نحن نحبهم ونصادقهم، لكن الزواج أمر آخر، فنحن نحتقر كل من يتخلى عن شخصيته ودينه، ويترك نفسه يذوب في الآخر.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تتساءل: لكن هل الشخصية كامنة في الدين يا أبي؟

– طبعاً أنا مسيحي، المسيح يصبغ حياتي وأفكاري وسلوكي، ستدركين ذلك فيما بعد. حين تكبرين. – لم تشك لحظة أنها ستدرك تلك الحقيقة حين تكبر، لكنها لم تفهم يوماً، كيف أن الشخصية كامنة في الدين، كانت أمها مغرمة بتعديد الفروق الجوهرية بين المسيحيين والمسلمين، وكان كلام أمها يرتشح في ذهنها، كما يرتشح الماء في التراب المشقق، لكن ثمة بذرة شك، ثمة سوسة تؤرقها، أين الحقيقة؟! هكذا تتساءل دون أن تعرف عن أية حقيقة تبحث.

كانت أيامها تنساب يوماً بعد يوم وراء جبهة من الرضا والسعادة، تكاد لا تشك بهذه البداهة لولا نوبات من الاختناق الحقيقي تنقضّ عليها في أوقات متباعدة، أو كوابيس تجعلها تستيقظ من عز نومها بحالة فزع وارتباك عظيمين، أكثر ما يؤلمها أنها حين تحصر ذهنها لتحديد المشكلة، تجد أنها أمام سراب، فهما يحبانها حقاً، حريصان على دراستها وتأمين راحتها، يفكران بمستقبلها في العلم والزواج، لا يمكن أن تقول عنهما أنهما متزمتان، فهما يسمحان لها باستقبال أصدقائها الشبان في البيت ويشجعانها للمشاركة في الرحلات المختلطة، تحديداً في الجمعية الأرثوذكسية، كان والدها لا يمانع أبداً أن تلبس المايوه أمام عيون الناس وتسبح، لكنه يتمنى لها الموت إذا ارتبطت بمسلم!

ما يعذبها حبهما، صورة أمها تخيط لها ثيابها الجميلة تجعلها تحس بانقياد تام لمشيئتها، لكأنها تقول لهما بكل حواسها: أنا كما تشاءان. أيكون الاختناق الذي تحسه نوعاً من الدلال؟ أو شيئاً كالبطر؟! وهي ترى النعم تتسكب عليها من كل صوب، فتصير كالطفل الذي يملّ ألعابه، ولا يعرف ما يريد؟

لكن كيف لها أن تخدع نفسها، فهي تطل في لحظات كثيرة على

هاوية اليأس وتخنقها انفعالات غامضة تقف حيالها عاجزة عن الشعور بنفسها، تحس أنها كتلة صمّاء رمادية لا يمكن سبرها وتحليل عناصرها، وهي تحس أنها لا تستطيع أن تعبّر عن نفسها لأنها لا تملك الأدوات والوسائل اللازمة، التي هي حصراً أفكارها الخاصة، إنها بكل أسف لا تملك خصوصية، فهي لا تستطيع فهم نفسها إلا كما يفهمونها هم، ولا تقدر أن تتأكد من ماهيتها إلا حين تتصرف كما ينتظرون منها.

إن الثقة الكبيرة التي يغرقونها بها تربكها، لأنها تعني أنها يجب أن تكون كما يشتهون، لتظل محافظة على ثقتهم، وهما يتباهيان دوماً بتفوقها الدراسي وذكائها وجمالها، فتحس هذه الصفات امتداداً لهم تخصهما أكثر ما تخصّها، إنها تشعر أنها لم تعد قادرة على التمييز بين المشاعر الحقيقية والزائفة، فهي أسيرة أفكارهما اللطيفة، شديدة النعومة والخانقة كالحرير، إنهما من الدهاء بحيث قضيا على أية رغبة لديها لمعارضتهما. هدف تربيتهما الخفي، خنق بذور المعارضة وتحويلها لإنسانة غير منفعلة لا تتمرد، ولا تنفعل، بل تقوم بحركات الحياة بكل رصانة وببهجة ظاهرية.

لم تكن تعرف لماذا تحس أنها تتحداهما حين تمارس العادة السرية، ربما لأنهما رسّخا في أعماق روحها أن كل انفعال صادق وغريزي يدخل ضمن إطار المحرمات ويجب خنقه، كانت تعاقب نفسها بقساوة نيابة عنهما فتتوب ويعذبها إحساسها القاسي بالإثم، لكنها كانت تقع مجدداً في الإثم، إنها تحس بالعجز فمن أين ينبع إحساسها بسلطتهما؟ إنهما يبدوان رائعين، كأنهما لا يمارسان أية سلطة عليها، ولا يستخدمان أي نوع من الإجبار أو القهر، بل هناك الكثير من الإغراءات في سلوكهما، فأمها تسعى لتظهرها بأبهى صورة، وتقذف بها إلى المناسبات التي تعتقد أنها يمكن أن تلتقط أفضل عريس، فهي تشجعها على حضور كل

الأعراس التي يدعون إليها، وكل السهرات التي تضم النخبة من الشخصيات الاجتماعية، الأثرياء تحديداً، إنهما يريدان لها زوجاً ثرياً، لكن متخماً بالأخلاق! وكانت تتخيل شاباً يلبس بنطالاً فضفاضاً، يملئ أحد جيوبه بالدولارات، والجيب الآخر بالأخلاق.

لم تكن تعرف أنهما ضحايا لفكرة أن الثراء يمحو الخطايا مهما كانت كبيرة، وربما بسبب شقائهما المعيشي، والغلاء المتعاظم اللذين يعجزان عن مجاراته. كانا يتمنيان لأولادهما الزواج من أثرياء.

كثيراً ما كانت ترزح تحت وطأة شعور قاسٍ بأنها مجرد آلة، وكانت تطيل التحديق فيهما، وفي ذاتها المزروعة بينهما، كيف يمارسان الحياة بتناغم جميل ظاهري، فيما هي تحس بحقدٍ لاذع تجاههما وتقول بصوت أخرس: كله كذب، لكنها حين تحاول بدقة تحديد كذبهما، تعجز، ذلك لأنها تنكس أعلام الهزيمة وتعترف أنها لا تملك أفكارها، بل أفكارهما، حتى حين انفجرت أمامهما ذات يوم، صرخت أحس باختناق باختناق، أنا لست سعيدة، أحسكما تلتهمانني، تقضمان خصوصيتي، ورغم أنهما بهتا بموجة الهيجان العارمة في روحها، إلا أنهما طبطبا على كتفها قائلين: لا بأس يا نازك، إنها نوب المراهقة. فهذه الهيجانات هي من صفات تلك المرحلة الحرجة من العمر، امتصا مشروع ثورتها لتقويض أفكارهما التي تخنقها، حتى أنها كانت تبكي بعد ساعة من تمردها، على صدر أمها، فيما الأخيرة تهدهدها كطفلة.

في أعماقها، كانت تحس إنما بطريقة مبهمة أنهما يعطيانها كل شيء، عدا حقها أن تكون حرّة، لذلك كانت علاقتها مع صفوان تستمر ليس بقوة الحب فقط، بل بقوة التمرد على عالمها الذي يخنقها بكل أناقة، مستخدماً أرقى أساليب التعذيب، استلاب الآخر، يستلبانها بمعنى أنهما يقولان لها كل لحظة: نحن أدرى بمستقبلك ومصلحتك، فاتركي لنا زمام

نفسك لنقودك.

لم تستطع ولا مرة واحدة أن تحس، حتى وهي في غمرة حماستها لأفكارها، ومناقشاتها مع أصدقائها والتعبير عن أفكارها أمام المرشد الروحي، أنها تعبّر عن ذاتها الحقيقية، بل كانا يختالان أمامها وخلفها فتحس بدبيب أفكارهما، وخطواتهما، كسريان النمل في جسدها كله.

إنها لا تعرف الحقائق، بل ظلالها، ثمة ضباب متكاثف يوماً بعد يوم في عقلها، لا تعرف كيف تجلوه وحين قرأت عرضاً عبارة لفرويد (يجب أن نقتل الأب) هاجت من الانفعال، لكأن بركاناً خفياً انفجر لتوه في داخلها، ملقياً بذور أفكار جديدة، هي أفكارها وحدها. لمحت بطرفة عين بوادر ولادة جديدة لروحها تستشعرها على نحو غامض، كأنها تحس برادار خفي بالأمور التي توشك أن تقع في حياتها، لكنها لا تعرف كيف، ولا متى، وماذا عليها أن تعمل لتفجر تلك الثورة الكامنة؟

كانا يلومانها على سرعة غضبها على أشياء تافهة برأيهما، كأن تنفجر غضباً على الباصات التي تنتظرها طويلاً لنقلها إلى الجامعة، كانا يمتصان غضبها بلطفهما الذي تدربا عليه سنوات، وحين كانت تهدأ ويرجع لها خنوعها الذي يمتدحانه كثيراً، كانت تسمع ضحكة سخرية ساخرة في أعماقها تقول لها: ليس هذا سبب غضبك؟ فتلهث وراء الصوت الكاشف وتستجديه: بالله عليك قل لي ما السبب؟ لكن الصوت كان يضيع في الفراغ.

في أحيان كثيرة، كانت تتعرض لعذاب ضمير قاسي بسبب اتهامها لهما بأنهما يخنقانها، كانت تبكي ندماً، وهي تستحضر صور شقائهما وكفاحهما، ماذا يجنيان من الحياة سوى أنهما يهديان أولادهما عمرهما، كم ساعة تنكب والدتها على ماكينة الخياطة لتخيط لها ولإخوتها الثياب الجميلة، كي لا يشعروا بالغيرة وعقد النقص تجاه رفاقهم الأثرياء في

الجامعة، وساعات العمل الإضافي التي يفني والدها نفسه فيها، لأجل تأمين أقصى ما يستطيع من البحبوحة والرفاهية لأولاده، وحبهما اللامحدود لهم، يا لجحودها، كيف تشعر بعد كل هذا الفيض من النبل والعطاء، أنهما يخنقانها؟

لكن أما كان بالإمكان ألا تحس بكل أزماتها النفسية العميقة لو لم تحب المسلم؟ أليس حبها لصفوان هو سبب ثورتها عليهما؟ لو أحبت مسيحياً لباركا علاقتها ولخاطت لها أمها أجمل فستان عرس، إلى متى ستظل ممزقة بين حبين، وكيف يحبانها بجنون ويستطيعان التبرؤ منها، وإماتتها من حياتهما، ونبذها وتلقي التعازي فيما لو تزوجت مسلماً؟! أي حب مشروط هذا؟.. كانت تمزقات روحها تزداد مع الزمن، فهي تحس أن حياتها الحقيقية هي الساعات المسروقة التي تقضيها مع صفوان، وفي أحيان كثيرة تشعر أنها ليست سوى الابنة البارة للعائلة المسيحية الأرثوذكسية، وأن علاقتها مع صفوان ليست سوى غيمة عابرة ستعبر سماء حياتها دون أن تمطر. كانت تعرف أنها غير مؤهلة لاتخاذ أية خطوة بطولية. نبوءة لحوحة تنبؤها دوماً أنها لن تتزوجه، وكان هذا الإحساس يضاعف حبها لصفوان، إذ يحوّل كل وصال بينهما إلى احتمال وداع،كانت تحس باستحالة إقامة توازن بين عالمي حبها المتنافرين، المتصارعين في حلبة هي نازك ذاتها، ولم تكن تعرف أنها من حيث لا تدري ستبدأ بتعهير نفسها، ومحاولة خلق إنسانة جديدة انتهازية تلعب على الحبلين، تحب المسلم وتستمتع بحبه، لكنها في أعماقها تعرف أنها لن تتزوجه، تحوّل الحبيب لعشيق عابر، وفي الوقت نفسه تنمي في ذاتها القدرة على قبول الزواج الذي يحلمان به لها ثري مسيحي، لكنها لم تكن تقدر أن تمنع موجات غثيان حادة من الطفو على سطح روحها، إنها في العمق تحتقر نفسها وما ستؤول إليه.

كانت تحس أن حياتها تتحول لسيف ذي حدين، مسلط عليها، الحد الأول أهلها، والثاني صفوان، وكانت تفرّ إلى أحلام اليقظة هاربة فتجد فيها ملاذاً ومهدئاً لحدة صراع حبيبها، فتارة تتخيل أن صفوان مات إثر حادث سيارة، وكيف ستبكيه وتحزن عليه، لكنها من جهة سترتاح من الصراع، وكانت تستسمحه على هذه الخيالات بفيض من القبلات المفاجئة يسّر لها ولا يعرف سببها. وتارة كانت تتخيل وفاة والديها معاً إثر حادث سيارة أيضاً، وعنده ستقدر أن تتزوج صفوان بعد أن تحزن عليهما كما يليق بالابنة البارة.

في نهاية المطاف، وبعد رحلاتها الذهنية المتعثرة، وأحلام يقظتها الغنية، كانت تتوقف فجأة لتتساءل بحزن وهي تشعر كم هي مهزومة: من أنا؟ وكانت هاتان الكلمتان كافيتين لجعلها تبكي بحرقة ساعات.

هكذا انتهى الفصل الخامس من الرواية التي لم أضع لها عنواناً بعد، والتي تحتاج صفحات كثيرة منها لإعادة صياغة، تمكنت بصعوبة من لجم نفسي عن الاتصال بالكاتب الشهير، وكنت أقلب بذهني احتمالات رأيه بما كتبت، وكانت الاحتمالات تتأرجح بين الإعجاب لدرجة الانبهار، وبين آرائه السلبية التي تنتهي بعدم صلاحية ما كتبته للنشر وبأنني لا أنفع في الكتابة.

كنت أعرف أنه لن يتصل بي، فهو لا يبادر مع امرأة كعادته، نجحت في الصبر ثمانية أيام، اتصلت به بعدها، وما كاد يسمع صوتي حتى ابتدرني قائلاً: أنت كاتبة موهوبة جداً...

أحسست للحال كيف شعّت السعادة من عيني، وكيف استرخت أعصابي المشدودة، هممت أن أقول له: إذاً هل ستقدمني لناشرك، لكني أمسكت نفسي عن الكلام، ما كنت أحب أن أسفح كرامتي أمامه ليتلذذ بحاجتي لمساعدته، قلت له: لكن فصلاً واحداً لا يكفي للحكم على العمل،

كنت أتمنى لو تقرأ الرواية كلها.

قال: سأفعل، أحضريها معك الأسبوع القادم، سأجند نفسي لقراءتها، ثم سأقدمك لناشري، بيننا موعد بعد أسبوع سأعطيه روايتي الجديدة، وسأقدمك له على أنك أهم روائية شابة.

أحسست أنني أحب كاتب البلاد حباً جماً، وندمت على كل الأحاسيس السلبية بحقه، وجدتني أعذره وأقدّر موقفه، كيف عساه يعرّف كاتبة مبتدئة، لم تنشر سوى عدة قصص قصيرة، بأهم ناشر على الإطلاق ويقول له: تعهد هذه الكاتبة، انشر لها نتاجها الأدبي... يا لي من حمقاء، ثم قد لا يكون له سلطة على الناشر، بينهما علاقة عمل ومصلحة، لكنه الآن بعد أن تأكد من موهبتي فسيقدمني بثقة للناشر، وقد يقدّم لي كلمة الغلاف، يا سلام، تخيلت روايتي مطبوعة طباعة فاخرة، تحمل إشارة أشهر دار للنشر ويقدّم لها أحد أهم الكتاب في العالم العربي... كان ما أحسه سعادة جديدة لم أعهدها من قبل، سعادة جشعة، أساسها إحساسي بحرية تحقيق ذاتي تماماً، وبأنني بضربة حظ واحدة سأتربع على عرش الشهرة، سيصير اسمي معروفاً لدى الآلاف، لن أعود نكرة، كان علي أن أصبر ستة أيام حتى يحين موعدي مع الكاتب والناشر وجدتني أتساءل وأنا سارحة في فيض أحلام يقظتي التي لا تتوقف والتي تدور كلها حول نجاح روايتي.

– ترى أي الروايتين أنجح، روايتي الأولى، أو رواية الكاتب الشهير الأخيرة. واللتان ستقدمان في الوقت نفسه للناشر؟!!!

– كان علي أن أعمل بجدٍّ على فصل هام في الرواية هو (زواج العهر) فلم أكن راضية عن الصياغة النهائية له، كان هاجسي الأول في الكتابة هو الصدق، خشيت أن يكون شيء من غش في هذا الفصل، لذلك قررت أن أعيد كتابة هذا الفصل كي أقدّم روايتي بأفضل شكل لها

للناشر الأكثر شهرة، وطوال الأيام الستة التي أنتظر مرورها بفارغ الصبر، كنت أستيقظ فجراً، أجلس إلى أوراقي بحماسة عاشق، أعمل ساعات وساعات، حتى تزوغ الكلمات أمام نظري، عندها أقوم لأتمدد فوق فراشي محاولة تطهير ذهني من كل الحوادث التي كتبتها، متعجبة في آن أن أكون قد عشت كل ما كتبته، ياه، أية نعمة هي النسيان! لكن هل حقاً نسيت؟ أم حاولت أن أخدّر ذاكرتي كي أتمكن من العيش، أي نسيان زائف هذا! إن كل شيء محفور في ذاكرتي بعمق، لا يمكن أن يمحى لأنه تحوّل لوشم، وشم بمساحة الذاكرة... – – صباح سفري، وقلبي يخفق بهجة بلقاء الناشر، لم أكن أحمل سوى روايتي، وحقيبة يدي الصغيرة، كنت أحمل كنزي الثمين، كنت معجونة بالرضا والحب للبشر جميعاً، للكون كله، كنت أقرأ الفصل الذي أعدت كتابته، كنت أقرأ حياتي الماضية المدفونة في أعماق نسيان راكد، كنت أقرأ بحياد تام قصة تلك المرأة التي كنتها يوماً ما، عجباً أي مفعول عجيب للزمن! كيف يحدث شروخاً في حياتنا، يجعلنا نشعر كأن السنين توقفت دفعة واحدة دافئة معها الشخصية التي كنا عليها، ليبدأ زمن جديد يكاد لا يمت لما مرّ معنا بصلة.

• • •

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

زواج العهر

فوق المصطبة المفروشة بالسجادة الحمراء، والمتمادية مع الهيكل، وقف صاحب السيادة، يحيط به كاهنان كان ينقّل تاجين مرصعين بأحجار لماعة بين رأسي العروسين قائلاً بصوته الرخيم، يكلل عبد الله ماهر على أمة الله نازك على اسم الآب والابن والروح القدس، يصالب يديه بين الرأسين ناقلاً التاجين من رأس العريس إلى رأس العروسة، قائلاً: تكلل أمة الله نازك على عبد الله ماهر على اسم الآب والابن والروح القدس. كانت تمتثل بصمت للطقوس الدينية، وقد شبكت خنصرها بخنصر عريسها كانت تشعر – رغم أنها تدير ظهرها للحضور – بوطأة نظرات المعازيم، تنصب على كتفيها العاريين، وفستانها الأبيض البديع المطرز بخيوط من الحرير، والمرصع بأحجار لماعة كالماس، كانت تشعر أن نظرات الناس تحدث ثقوباً في كتفيها، كانت ثملة من روائح البخور ومن تعب الأسبوع الأخير الذي سبق الإكليل حدثت نفسها كأنها منوّمة مغناطيسياً: الآن يصير الجنس مقدساً بعد حلول البركة الإلهية على العروسين كانت أنظارها الشاردة تحط على الأيقونات، ما أروع فن رسم الأيقونات، لكن لماذا يرتسم وجه صفوان فوق وجوه القديسين، كان يرنو إليها معاتباً حزيناً ومطعوناً في صميم حبه، يسألها بعينيه: أتخونين حبنا لأنني مسلم؟! كيف تطوحين بعلاقة حب استمرت ثلاث سنوات، كنا فيها أكثر من زوجين؟! تهرب من أيقونة إلى أيقونة أخرى، لكن وجه صفوان يرتسم بحدة أكبر كلما هربت، للحظات أشبه بالبرق. كانت تومض بذهنها خاطرة جهنمية أن تفر من العريس والكاهن وأهلها والمعازيم، أن تتصل بصفوان وتقول له

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تعال اخطفني، أنا أحبك، أنا لك، لا أحتمل أن يلمسني سواك، وكانت تتخيل أنها يكفي أن تركض بضع خطوات حتى تحملها تنورة فستانها الواسع إلى السماء. كأنها تمسك بمظلة، لم تنتبه أن العرس انتهى إلا حين طلب إليها صاحب السيادة أن توقع أوراقاً، وحين سمعت جوقة المرتلين تصدح بصوت بهيج: (بالمجد والكرامة كللهما)...

مصور الفيديو يسلط عليها الأضواء، كأنها أميرة، يطلب إليها أن تبتسم، وأن تتبادل القبل مع عريسها بعد انتهاء العرس، العريس جميل، منتفخ غروراً كطاووس فهو طبيب وثري، وابن عائلة أرثوذكسية محترمة، سيخطفها إلى باريس ليكمل اختصاصه في الجراحة التجميلية، لم تستطع أن تتغاضى عن شعور الخوف المستحكم في أعماقها، فعملية إعادة العذرية التي أجرتها منذ يومين لا تزال تحاصرها بقوة، قال لها الطبيب الذي كان يتثاءب وهو يخيط غشاء بكارتها: تصوري منذ أيام قصدني شاب مع خطيبته ليجري لها العملية، وحين قلت له: ما معنى العملية وأنت عارف أنها غير عذراء، و...

قاطعني قائلاً بقناعة تامة: أنا أحبها، وقد سامحتها على علاقتها السابقة مع شاب أحبته لكني أحب أن تكون الفتاة التي سأتزوجها عذراء...

– لكن أية قيمة لذلك، وأنت تحب شخصها، وبينكما حب وثقة.

– هكذا زرعوا في نفوسنا، يجب أن تنزف الفتاة بضع قطرات من الدم ليلة الزفاف.

كانت تتلقى القبلات من المعازيم، وتلمح نظرات الحسد، فقد خطفت واحداً من أثرى وأجمل الشبان المسيحيين، في الواقع هي لم تخطفه، أم الشاب خطفتها له، كانت تبحث له عن زوجة مناسبة، ولم تجد خيراً من نازك...

اعتقدت أن الحياة لا تستقيم إلا بالحيلة، تذكرت كلام الطبيب قبل أن تنصرف من عيادته:

– يا ابنتي لا تعتقدي أبداً أنك آثمة، هم اضطروك لهذه العملية، لأنهم متخلفون، لأن بضع قطرات من الدم هي التي تحدد نجاح معظم الزيجات، إياك أن تشعري بالدونية والخجل، فأنت محترمة، ولم ترتكبي أي خطأ، بكت تأثراً حين سمعت هذا الكلام من منقذ الفتيات من ورطاتهن، سألته بصوت متلعثم:

– لكن، أريد أن أسألك سؤالاً... اضطربت ولم تستطع أن تكمل.

قال: تكلمي، اسألي كل ما يخطر ببالك.

استجمع شجاعتها وقالت: خطيبي طبيب، ألا يمكن أن..

قاطعها ضاحكاً: الأطباء أكثر الرجال غباء صدقيني، لن يعرف أبداً أنك أجريت لعملية.

نزفت بضعة قطرات من دم، أحست أنها تفي بالتزامها تجاه زوجها. أو الرجل الذي غدا زوجها. كابوس انزاح عن قلبها، نظرت إليه نظرة تعني: ها أنت متأكد أنك أول رجل في حياتي، لكن يا للكآبة الآسرة التي تحسها، لماذا يحرقها حبها لصفوان وهي بين ذراعي زوجها الذي يعاملها برقة ولطف ويسمعها كلاماً عذباً؟! تحس أن علاقتها بماهر علاقة شهوة محضة، لا تتمخض على فضاء ساحر، كذلك الفضاء اللازوردي الذي كانت تدخله مع صفوان، علاقتها مع ماهر علاقة لحم، رعشة ميكانيكية أشبه بسريان تيار كهربائي في الظهر، يعقبها خواء وكآبة قاتلتين، وفي كل مرة ينفك اشتباك أطرافهما، كانت تتدحرج صامتة إلى شرنقة عزلتها، وهي تفتكر صفوان بحنان آسر، وشوق كاوٍ، كانت تحدث نفسها وهي تشعر بهزيمتها: لم تستقم حياتك بالحيلة والغش يا نازك، ها أنت ضحيت بالحبيب، الذي تكونين بين ذراعيه أنت ذاتك،

ورميت نفسك في أحضان غريب، بأي حق يلمسك هذا الغريب الذي لا تشعرين نحوه بأية عاطفة؟! أليس ما تمارسينه عهراً! ما هو العهر سوى ممارسة فعل الحب دون حب؟ فكيف وأنت متيمة بآخر...

كانت تعزي نفسها بأنها ستتمكن من استئصال حب صفوان من نفسها مع الزمن، وستنجح في حب زوجها، ورغم أنها لم تكف عن أمر عواطفها وتوجيه أفكارها صوب زوجها، فإنها لم تجن إلا الفشل والمزيد من الأشواق لصفوان، صارت تفكر بالحب على أنه معجزة حقيقية، سعيد الإنسان الذي يصادف حباً عظيماً في حياته، كحبها لصفوان، لكن كيف استطاعت أن تخونه وتخون نفسها، إنها تعرف الجواب، فهذه مشيئتهم، يجب أن تفي بالتزامها تجاههم أيضاً، وأن لا تقتلهم بالضربة المميتة فيما لو تزوجت مسلماً...

لكنها بعد شهر من زواجها، حدث ما زلزلها تماماً، فقد تزوجت ابنة عمها من أخ وزير مسلم لم يقاطعها أحد، هبوا جميعاً ليباركوا زواجها، وأحسوا بفخر كونهم صاروا أقرباء وزير، يمكنهم أن يستغلوا منصبه تحت شعار النسب، انفجرت في والديها: لماذا لم تخاصموا ابنة العم التي تزوجت أخ وزير؟! ولماذا تبرأتم من ابنة العمة التي تزوجت شاباً مسلماً عادياً، ولم تحنّ قلوبكم نحوها مع مرور السنوات ورغم سماعكم أن ابنها ذا السنوات السبع توفي بمرض خبيث، لم يخطر لأي منكم أن يعزيها، بل اعتبرتم أن وفاة ابنها نوع من العقاب الرباني لها، كونها عصيت والديها وتنكرت لدينها؟..

تتفتح الأسئلة في روحها كما تتفتح الدمامل العميقة... لم ينبسوا بكلمة... كانت تضرب كفيها ببعضهما بقسوة وتقول خسارة، لم يفهموا أنها كانت تتلوى ندماً وألماً على خسارة صفوان، ليتها تزوجته، لكن يا للزيف الفظيع! كيف صدقت أنهم مسيحيون حتى العظم! كيف انطلت

عليها هذه الحيلة، ما هم في العمق سوى بشر انتهازيين، يلحقون مصلحتهم، ويسيّرون أفكارهم وسلوكهم حسب ما تقتضيه هذه المصلحة، وقد سافر أخوها بمعاونة الوزير في بعثة إلى أميركا بعد شهرين من زواج ابنة عمها من أخ الوزير...

كانت مسيّرة بشعور لا يطاق باللامعنى والوحدة، وفهمت يوماً بعد يوم كيف أن الجنس لا يخلق أي رابط بين الرجل والمرأة، ما لم يكن معجوناً بالحب، إنها تقدم لزوجها جسد ميت، جسد مُستباح – كما تشعر – أجل مُستباح، هذه هي الكلمة الأكثر مناسبة، لأنها تحس أن من حق زوجها أن يلمسها، في جيبه ورقة الزواج أو النكاح الشرعي التي صدّق عليها صاحب السيادة وسُجلت في المحكمة، تذكرت أنها حين كانت تحتضن صفوان كانت تحس أنها تحوش الدنيا بذراعيها، وبأن هذا الرجل يخصّها وحدها، وبأنها تخصّه وحده، إنه رجلها الذي اختارته من بين ذكور الدنيا، وهي أنثاه التي تلخص إناث الدنيا كلها في جسدها، آمنت بعمق أنها أفسدت روحها كلياً بزواجها من رجل وهي تموت حباً لرجل آخر، كانت تعرف أن الأذيات التي حصلت لها كبيرة جداً ولا يمكنها حصرها، آمنت أن هذا الزواج القائم على نعش حب حي سيلقي ظلاله المأسوية على حياتها المقبلة...

كانت تملك عزاءً وحيداً، هو محاولة بدء حياة جديدة في باريس، في مدينة الحرية، مع زوجها، مع الرجل الجديد والغريب الذي اختاروه لها.

يحلو للبشر أن يحمّلوا فشلهم وخياراتهم الخاطئة للقدر، ففي عاصمة الحرية كانت تنتظرها مأساة حياتها، فبعد أن سجلها زوجها في دورة لتعلم اللغة الفرنسية، انصرف إلى اختصاصه الذي يجعله يتغيب عنها ساعات طويلة وأحياناً أياماً لم يخطر لها أن تشك به، بل كانت تلوم

نفسها حين تتضجر من غيابه الطويل، وتذكّر روحها التي تصارع لتتماهى مع الزوج بأن من واجبها أن تتفهم عمله وتساعده كي يكون اختصاصياً لامعاً في جراحة التجميل، لكنها بعد شهرين من التحمل القاسي لغيابه المستمر بحجة المناوبات، وبمحض الصدفة اكتشفت خدعة زواجها الكبرى، فذات صباح شعرت بدوار خفيف وهي تتابع درس اللغة في المعهد، استأذنت من الأستاذة وانصرفت إلى البيت، الاستديو الصغير المؤلف من غرفة نوم وشبه صالون، كانت تفكر بأسباب دوارها، ورجحت الحمل، لكنها تذكرت أنها منذ أيام انتهت من الدورة الشهرية، ما كادت تدخل الشقة الصغيرة حتى سمرتها المفاجأة، كان زوجها عارياً تماماً مع امرأة حاولت أن تخفي عريها بوسادة الأريكة، مجرد شهقة انطلقت من أعماق جرح شرخها نصفين، النظرة صليب، هذا ما أحسته، من يصلب من؟! أهي تصلبه في خيانته؟ أم هو يصلبها بالحقيقة؟ وما الفرق بين الحقيقة والصليب.

تحوّلت لتمثال، عيناها مفتوحتان، لكن تعطيان انطباعاً أنهما لا تبصران، أو لا تفهمان ما تبصران، الشهقة العميقة لا تزال معلقة بين شفتيها المنفرجتين في لقطة ذهول أبدية، الحقيبة سقطت من يدها، والهواء غدا ثقيلاً مشبعاً برائحة الخيانة، ارتدى الزوج ثيابه، وهرولت العشيقة إلى الحمام حيث ثيابها، تركتهما يتواجهان، زوج وزوجة جمعهما إكليل: بالمجد والكرامة كللهما. الذاكرة لا تزال طازجة، والجرح أكثر نضارة وتوهجاً منها، تهاوت على المقعد، رأت نفسها بعين خيالها كيف تجن غضباً، وتكسر أطباقاً وكؤوساً، وتشد شعرها. وتتلوى ألماً من بشاعة الخيانة، لكنها لم تقم بأية حركة، أغمضت عينيها لشعورها أنهما جفتا من شدة التحديق بلوحة الخيانة، تحت أجفانها ارتسم وجه صفوان وديعاً، رقيقاً، تمنت بكل ذرة في كيانها لو يحضنها الآن،

يمسح على شعرها ويقبلها على جبينها ثم تموت، كان صفوان يعاتبها قائلاً: هل آلمتك الخيانة؟ هل فهمت الآن معنى خيانة؟! أنت فعلت بي كما فعل زوجك بك، مع فرق كبير فأنا أحبك... تنبهت لصوت الغريب يقول: نازك يجب أن نتكلم.

ظلت مغمضة العينين قال: أرجوك، يجب أن نتفاهم، أنا على علاقة مع هذه المرأة منذ خمس سنوات.

في الواقع – سكت لحظة كأنه يزن وقع كلماته عليها – تربطني معها علاقة حب قوية، فتحت عينيها وسألته باحتقار: لماذا لم تتزوجها.

أطرق، كان نظره مسمراً على حذائه: لأنني جبان، لأنهم لا يريدونني أن أرتبط بفرنسية، خاصة إذا كانت مطلقة ولديها طفل، ولأنها تكبرني بثلاث سنوات.

قالت بالاحتقار نفسه: وأنا ما ذنبي.

قال: لا ذنب لك، لكن صدقيني، اعتقدت أنني سأنساها، وأن الزواج دواء لقتل الحب.

تفجّر الغضب من مسامها شرراً، من أي مخزون عميق في ذاكرتها انطلقت تلك الكلمات من حنجرتها: يا كلب يا خائن، يا منحط، يا حقير، يا عاهر...

كانت تسترسل مع غضبها دون ضابط، بل تحس بمتعة وهي تتفلت في شتمه، إلى أن انتفض ليهزها بقوة من كتفيها قائلاً بلهجة جعلتها ترتجف خوفاً:

– مهلاً، لا تدعيني أتكلم، لماذا تخليت عنه؟ أسألك السؤال نفسه؟ أوتظنين أنني لم أعرف بعلاقتك بالمسلم، يا مسكينة، لا شيء يخفى في مدينة صغيرة، يا مدام، أنا أعرف أنك كنت تزورينه في شقته، وحين اشتدت عليك الرقابة، وشدد الجيران الحصار عليك، صرت تتنكرين

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بنظارة طبية سميكة، ومعطف طويل ومنديل، ولا أستبعد أبداً أنك أجريت عملية إعادة العذرية...

كانت تصغي إليه وهي بشحوب ميت، فكرت أن الجحيم سيكون تماماً كما يحصل الآن بينها وبين ماهر... استأنف كلامه بجهد.

- اسمعي، كلانا متساويان في الورطة، كلانا سلم رقبته لهم، للأهل، لقد هددني والدي بأنه سيحرمني من الميراث فيما لو تزوجت إيزابيل، أنا ضعيف وتافه، اعتقدت أن زواجي منك أو بأية فتاة أخرى سيجعلني أشفى من إيزابيل، وسأستطيع أن أمارس حياة جديدة، أو أولد من جديد، لكني اكتشفت أنني دمرت نفسي، إنها طبيبة تعمل معي في المشفى، استطاعت أن تسامحني لأنها تفهمني، أعطتني درساً لن أنساه كيف أن الحب مسامحة، صدقيني كنت سأقول لك، لكن كنت أعطيك بعض الوقت كي أخفف الصدمة، كي تجيدي اللغة ويصير لديك أصدقاء و...

قاطعته بصراخ مزّق صدرها، كانت تختنق بفجيعة غامضة أحدث صوتها خلخلة في الهواء، في الثريا الوحيدة، وفي الستائر الزرقاء...

قالت: كفى، كفى، ولا كلمة زيادة، ولا كلمة زيادة...

اختنق صوتها بالعبرات، يبدو أنها لم تقدّر حجم انفعالها، ولم تنتبه كيف زرقها بإبرة مهدئة وحملها إلى السرير لتغفو ساعات عساها تمتص الصدمة وهي نائمة، طالما هي عاجزة عن امتصاصها في صحوها.

• • •

حين فتحت عينيها، أحست برأسها خاوياً تماماً، لم تشعر بجسدها أبداً، كانت مصابة بفقدان ذاكرة تام لكل شيء، أغمضت عينيها مجدداً راغبة في النوم، مجرد النوم، إنه أعظم نعمة في الوجود، وكادت تغرق مجدداً في سلطانه لولا إلحاح مثانتها على تفريغ محتواها، كادت تسقط

أرضاً حين قامت من فراشها، جسدها رخو مخلّع، استندت إلى حرف مرآة الحائط، تنبهت لقصاصة ورقة مطوية ومغروسة بين المرآة وإطارها الخشبي قرأت بنظرات زائغة: عزيزتي نازك، صباح الخير، أرجوك فكري بهدوء في شأننا، كلانا متورط بالمشكلة ذاتها، كلانا لم يختر حياته كما يشتهي، بل كما يرغبون، هم، - الأهل المستبدون - نازك، سأساعدك كي تتخذي موقفاً لن تندمي عليه فيما بعد، من ناحيتي أنا لا أستطيع الاستمرار فيما رسموه لي، سأرجع ظهراً. أرجو أن أجدك مرتاحة.

هاجت آلامها دفعة واحدة، صحت ذاكرتها بلحظة، ياه، ما هذا الكابوس! هل ما حصل بينها وبين زوجها حقيقة أم كابوس! تساءلت وهي تشرب النيسكافيه وترشفه بامتعاض متقززة من طعمه الحامض، فيما روحها غارقة في الحنين لفنجان قهوة: كم فنجان قهوة رشفت مع صفوان؟ لماذا شوّهت حياتك هكذا يا نازك؟ كانت بحاجة لتصادق نفسها، لتخلق امرأة ضمن امرأة لضرورة الحوار، سألت صنوها: كيف غدت حياتك ككتلة صوف متشابكة يتعذّر فك اشتباك خيوطها؟ يرتعش فنجان النيسكافيه في يدها ولا تعرف جواباً لتساؤلاتها، تخيلت أهلها، أهله، الأقرباء، المعازيم، ياه، كلهم يعتقدون، أنها وزوجها ينعمان بأجمل أيام العسل، داهمها فجأة غثيان حاد من طعم النيسكافيه، قامت تتقيأ في مغسلة الحمام، سائلاً مصفراً بنياً. أدهشها أنها تبكي بحرقة لم تعرفها حتى وهي تبكي سفر صفوان إلى أميركا، في قاع المغسلة رأتهما عاريين، متشابكين، وهي تدخل الصالون وقد أصابها الخرس، أتبكي نفسها! أم حبها الذي طعنته بالخيانة؟ أم تبكي كرامتها التي مرّغها زوجها بالتراب أم تبكي كل هذه الأمور معاً؟ لمن ستشكو همّها من سيساعدها في ورطتها، كانت امرأة مخذولة تنزف دمعاً في عاصمة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الضياع، أخذت تهذي: ماذا قدمت لي يا باريس؟ ماذا قدّمت لي يا باريس؟! وأخذ صوتها يعلو حتى تحول لزئير مختنق بالعبرات، ما الحل؟! تهاوت على الأريكة وهي تتساءل عن الحل، أعادت قراءة قصاصة الورق، وتوقف نظرها على جملة (من ناحيتي لا أستطيع الاستمرار فيما رسموه لي؟!) ترى ماذا يقصد؟ الطلاق!! تجسّدت لها أقسى أشكال الذعر بكلمة طلاق، قذفت فنجان النيسكافيه بعيداً متناثراً شظايا وهي تقول كازّة على أسنانها: يا للفضيحة المدوية، كيف عساني أواجه الناس؟ ولو أرادت أن تدينه بعلاقته مع الفرنسية، فهو قادر على إدانتها أكثر، علاقتها مع المسلم، وعملية إعادة العذرية... إن موقفه أقوى، ويمكنه أن يطلقها لأنها غشته ولم تكن عذراء، يا للجنون يا للسخرية، لماذا يطعنها القدر طعنات متلاحقة؟! لكن هل القدر يطعنها، أم أن الإنسان يحب أن يعلّق فشله واختياراته الخاطئة على القدر؟! وصفوان أين هو، لشدة ما تحتاجه، يا لها من خسيسة، انتظرته حتى سافر إلى أميركا للاختصاص في طب الأطفال، ثم أرسلت له رسالة الفجيعة، اتصل بها ليسألها إن كانت خاضعة لضغط من قبل أهلها، وبأنه مستعد لكل شيء ليتزوجها... لكنها سلمته للعذاب كما سلّم يهوذا المسيح ليصلب، قالت له بصوت جاف: لا أستطيع الزواج منك لأنك مسلم.

صرخ: لماذا عاشرتني ثلاث سنوات إذاً؟ أكنت تلهين بي.

قالت: لنحاول النسيان.

صرخ صراخاً أشبه بالجعير: النسيان! كيف؟! أهو بالأمر الممكن، إن رائحتك لا تزال عالقة بثيابي بجلدي، أنا لا أصدقك، قولي أنك لا تعنين ما تقولين.

لكنها استمرت في التخلي عنه وقالت: بل أنا أعني كل كلمة أقولها، يجب أن نصغي لصوت العقل. اشتد صراخه قال وقد بدأ يفقد السيطرة

على أعصابه: العقل! وهل العقل يقول أن نخنق الحب في أوجه؟ هل العقل يقول أن نرمي بالحبيب في المزبلة! هل العقل.

قاطعته: مهلاً، يكفي، أرجوك قدّر موقفي، أنا لا أستطيع عصيانهم، لا أستطيع.

كان يبكي حين قال: والحب الذي...

اختنق صوته، فوجدت فرصة لتكمل طعنه حتى النهاية: يفضّل أن تسمع مني سأتزوج طبيباً مسيحياً.

صرخ: ماذا؟

– أرجوك يا صفوان، أنت ستتزوج فتاة تناسبك، أميركا ستساعدك لتنساني.

– أنت قحبة.

كانت هذه آخر كلمة سمعتها منه قبل أن يغلق السماعة. استعادت هذا الحوار بلمح البصر. ترجّعت الكلمة الأخيرة طويلاً في ذهنها، عصف بها الحزن وهي تستعيد كيف هوت في الهاوية بعد أن كانت نقية كالنور، تخلت عن صفوان، أجرت عملية إعادة العذرية، تزوجت زواجاً كنسياً دينياً من رجل لا تحبه، وهو بدوره لا يحبها، سافرت إلى باريس، أما المشهد الأخير من المسرحية فهو اكتشاف عشيقة زوجها.

طافت دموعها وهي تتساءل: كيف تشوهت حياتي هكذا خلال فترة قصيرة؟

لكن صدى حزين لصوتٍ بعيد تردد في فضاء وحدتها الضيق وقال: أنت ساذجة، من قال أن حياتك تشوهت خلال فترة قصيرة!

سألت الصدى بلهفة: منذ متى إذاً؟!

لم يجب الصوت، لكنها بعد لحظات من الخواء الذهني وجدت نفسها تغوص في صور بعيدة، بعيدة، يوم كانت في الصف الأول

الابتدائي، كانت مولعة بصديق طفولتها سعد، كانا يجلسان بجوار بعضهما ويترافقان في الباحة، دخلت الموجهة، فوقفوا احتراماً لها قالت بلهجة خشنة: المسيحيون تعالوا إلى هنا، وأشارت صوب الباب، تبعوا الموجهة إلى غرفة أخرى ليتلقوا درساً في الديانة المسيحية، وبقي المسلمون في الصف، الآن بعد أكثر من عشرين عاماً تستعيد الألم الذي أحسته وهي طفلة تضطر أن تترك يد سعد، كانت تحبه لأنه الأصغر والأكثر هدوءاً، وكان يحمل معه بخاخ الربو، قال لها بأن الطبيب علّمه كيف يستنشق بعمق رذاذ البخاخ حين يضيق نفسه، طوال حصة الديانة المسيحية كان فكرها عند سعد، وفي الباحة سألها باهتمام: ماذا قالت لكم مدرسة الديانة المسيحية.

قالت: علمتنا نشيداً.

سأل: ما هو.

أخذت تنشد: اترك كل شيء واتبعني، فأنا أكون لك نصيراً.

سأل: نتبع من؟

قالت: المسيح.

ردد: المسيح، أهو إلهكم.

قالت: أجل.

أطرق قائلاً: كنت أتمنى أن يكون لنا إله واحد.

مسحت دموعها وهي تعي الجذور البعيدة لمأساتها، هل يجب أن تبدأ من الطفولة البعيدة لتحل مشكلتها، وبأية طريقة عليها أن تفكر لتحلها، بطريقتهم هم أم بطريقتها؟ لكنها لم تبتكر أسلوبها الخاص في التفكير، ولا تملك أفكارها الناضجة الخاصة بها، حاولت أن تتخيل كيف عساهم يحلّون هذه المشكلة. استدعت صورهم إلى سجن روحها في باريس وسمعتهم جميعاً يقولون: إياك والفضيحة، المهم السترة، تذكرت

جملة سمعتها أو قرأتها، لم تعد متأكدة، انثالت على ذهنها: في الشرق العربي الزنا مشكلة إذا لم يستتر، والشرق يخشى الفضيحة ولا يخاف المعصية.

صرخوا جميعاً: إياك والطلاق، ما جمعه الله لا يفرقه إنسان، كان لأفكارها خلفية موسيقية مستمرة: بالمجد والكرامة كللهما، سمعتهم يصرون في كلامهم: حاولي أن تستميلي زوجك، كي يتخلى عن عشيقته الفرنسية، وسنمحو من ذاكرتنا علاقتك الآثمة بالمسلم، يجب أن تولدا من جديد بعد الزواج، هل فهمت؟ هيا قومي واغسلي وجهك وتأنقي، ولا تبكي ولا تصرخي، فلا شيء ينفّر الرجل مثل امرأة منهارة، حدثيه عن مستقبلكما وأيقظي رغبته ليكون أباً، هل فهمت: اربطيه بولد، احملي منه، كانت تحس أن عيونهم تثقب وجهها، وتحدق بها بقسوة، هيا قومي واغسلي وجهك، لن نترك زواجكما يتقوّض بسبب حماقات، لن نسمح لشبح المسلم أن يدمره، ولا لفرنسية عاهرة أن تسرق زوجك.

أنّت وهي تقول مخاطبة وجوههم المرتسمة أمامها: لكنه يحبها.

تضافرت أصواتهم جميعاً وقالوا: طز في حبه، هذا كلام فارغ. إنه أبله، تخدعه فرنسية مطلقة وتكبره في السنن تغويه بخبرتها الجنسية، حاولي أن تكوني مغرية في الفراش، تابعي أفلام البورنو لتتعلمي.

شهقت قائلة: لكن! هذه الأفلام حرام، عيب، أليس هذا رأيكم.

قالوا بنفاذ صبر: الآن أنت متزوجة. مسموح لك حضور هذه الأفلام، مسموح لك ممارسة أي شيء ليظل زوجك مربوطاً بك.

تخيلت حماراً مربوطاً بشجرة.

قالت بحرقة وهي تحس أن كرامتها تتشظى كإناء جميل: وكرامتي.

سخروا مجتمعين وقالوا: كرامتك! انسها الآن، ضعي نصب عينيك

إنقاذ هذا الزواج، هل فهمت، هنا حفرنا، وهنا طمرنا، هيا قومي واغسلي وجهك، وحال عودته، أغدقي عليه الحب، حتى لو اضطررت للتمثيل، لا بأس، قوديه إلى الغواية بأية طريقة، يجب أن يتعود على جسدك.

سألتهم بسخرية: هل صار الجسد الآن محترماً في نظركم.

قالوا: طبعاً، الزواج يعطي الجسد قدسيته.

سألت: والحب ألا يعطيه قدسيته؟

قالوا: أبداً، الجنس لا يصبح مقدساً إلا حين تحل عليه بركة الله عن طريق الكاهن.

ما عادت قادرة على الاحتمال، أحست أن الجدران تقترب منها تكاد تنطبق عليها، لبست ثيابها وخرجت، لكن إلى أين؟ إنها تائهة في باريس، ولم تتقن الفرنسية تماماً، إنها تعرف منطقة تسمى النورماندي، كان جسدها لا يزال رخواً من تأثير الإبرة، توقفت أمام سوبرماركت ضخمة، فتنتها أناقة المعروضات، أحست بجوع اشترت خبزاً محشواً بالزبيب، أخذت تقضمه على مهل وتبتلعه بصعوبة لأن فمها كان جافاً تماماً، جفّ دمعها. وما عاد ينتظرها سوى حل مشكلة قد لا تفلح في حلها، كانت كمن يبحث عن طريقة للنجاة وهو في فم الغول، غابت كل المشاعر الحادة ولم يبق سوى الذهول فاغراً فاهه لابتلاعها، كانت خيالاتهم تتبعها في تسكعها، قرأت لافتة تدل على محطة الميترو، كم تمنت لو تركب الميترو معه، هوى قلبها وهي تعني صفوان وليس ماهر، زجروها على رغبتها قائلين: يا بلهاء تمنّي ركوب الميترو مع ماهر، إنه زوجك، كيف تنسين هذه الحقيقة؟ وتسمحين لمشاعرك أن تفرّ إلى الآخر، أحست أنها مسحورة في باريس كل شيء حولها ينبض بالحب ويسبّح الحرية، العشاق يتبادلون القبلات دون خوف، الناس أحرار في أزيائهم وأشكالهم،

كل يفعل ما يحلو له، ولجت حديقة ساحرة، جلست على مقعد خشبي تسرح في الخضار النقي اللانهائي، أعطاها اللون الأخضر إحساساً رائعاً بالاستقرار، وغير بعيد عنها كان رجل في الخمسين يمارس تمارين اليوغا ببطء، ويبدو منخطفاً لعالم ساحر، وفي البعيد عاشقين يتغازلان دون أن يلتفت إليهما أحد، وهناك أطفال يلعبون بالكرة ويصرخون سعداء، انشرحت روحها بمنظر الأطفال، حفّت بها أطياف أهلها وأهله قالوا بخشونة: ركزي في حديثك مع زوجك أن الحل الأمثل لكما هو إنجاب طفل... اشتهت أن تقبّل الوجنات الوردية الطرية المنداة، كان حماسهم للكرة يشتد وصراخهم يعلو، فجأة انقذفت الكرة إلى حضنها، التقطتها سعيدة. تحلّق حولها الأطفال، ابتسمت لهم فبادلوها الابتسام، تخيلت أنها تجثو في وسطهم وتتأملهم واحداً واحداً وتسألهم من منكم مسيحياً ومن منكم مسلماً، قذفت الكرة بعيداً، فانفضّ الأطفال عنها، بكت بحرقة من تلك الخاطرة التي دلّتها على عمق نخرها الروحي، تدفقت دموعها بسخاء وهي تتساءل: ياه أإلى هذا الحد أنا مريضة روحياً ولا أعرف!! في وسط الحديقة المترامية الأطراف، كانت بركة ماء مسورة بسور خشبي عبارة عن قضبان من الخشب تجمعها حبال ثخينة، وتسبح فيها بضعة بطّات مرحات، قامت تتمشى على العشب الأخضر النظيف الأشبه بسجادة، استندت إلى الحبال، وأخذت ترنو إلى البطات السعيدات، وترمي لهن بقايا الخبز المعجون بالزبيب، تنبهت لصورتها مرتسمة فوق صفحة الماء، سرت في جسدها رعشة خوف، ترى ما الذي يخيفها في وجهها؟ ما الذي يشف عنه هذا الوجه؟ عن أية أعماق يكشف حتى تصاب بالخوف؟ كانت صورة وجهها الجميل تتراقص فوق سطح الماء بعينين ناعستين مترقرقتين بالدموع، كان الوجه المضطرب يسألها: من سيعين إعاقتي؟

لم تستطع أن تتأمل وجهها أكثر، عادت للجلوس إلى مقعد في الحديقة، استسلمت للخدر اللذيذ المطمئن الذي يشيعه الخضار في روحها، تحررت من أوجاعها وبدت كل الوجوه بعيدة، بعيدة تقف خلف سور الحديقة تحدّق بها وهي غير آبهة للنظرات، تساوى صفوان وماهر وأمها وأبوها وإخوتها وأهل زوجها، تسطح كل شيء، وما عاد له أية قيمة في ذهنها، كانت جزءاً من الأرض والشجر والأزهار، كانت تحتاج أن تعود إلى انتمائها الأصلي، إلى الأرض، إلى الطبيعة الأصل غير المزيفة كالبشر، الراسخة والنقية، إنها بحاجة أن تضرب جذورها في الأرض وترفع عيونها إلى السماء، هكذا ستجد نفسها، هنا ستتعلم الدروس الأولى في التعامل مع الحياة، وهنا عليها أن تتعرف إلى نفسها، الطبيعة وليس الأهل ستجعلها تتعرف على ذاتها الحقيقية.

مرّ بجانبها شاب زنجي، رشقها بنظرات إعجاب، حوّلت نظرها باتجاه البركة، كان صبي صيني يصرخ منادياً البطّات، لحقته أمه، عنفته على اقترابه الشديد من البركة، فبكى، يبدو أنها تخشى عليه من السقوط في الماء، أحست كم أن العالم واسع ومتنوع، فقدت مشكلتها أبعادها الكارثية تملكها إحساس طاغ بالرغبة في الكتابة، لكنها لا تعرف ماذا ستكتب، ولا توجد فكرة واضحة في ذهنها ولا تريد أن توجه كلماتها إلى أحد ما، هوى شرس وملحّ يصعب أن تقاومه يغريها بالكتابة، بحثت في حقيبتها عن قلم، لم تجد قصاصة ورق في حقيبتها، فرّغت علبة العلكة من محتواها، فردتها بعناية وأخذت تكتب على الوجه العاري للعلبة:

– في هذه الجنّة الخضراء، أتعلم أشياء رائعة.

أحس كيف تصقلني الخيبات.

كلكم أحياء في نفسي.

تضجون وتتكلمون.

تشوشون سلامي الداخلي.

دعوا بهاء روحي يستفيق.

دعوني أهاجر إلى حيث تتوق روحي.

لا تسجنوني في حدقاتكم الضيقة.

تحتفي روحي بالأشواق المبهمة.

ما أجمل أن يتحرر الإنسان من سجن الذين يحبونه.

لم يعد في الورقة متسع، أحست براحة بعد أن قرأت ما كتبته، دسّت قلمها وقطعة الورق في حقيبة يدها، وقامت تتمشى متنشقة شذا الأشجار المزهرة، لم يفتها الافتتان بجمال الطبيعة رغم ضياعها الذي ضعضع كيانها، كانت تشعر أنها تتبدد في مدينة لانهائية كباريس، تتضاءل وتتلاشى، إنها مجرد نقطة في عالم فسيح متنوع غني، ومجرد نزهة في شارع النورماندي جعلتها تطل على بشر من جنسيات مختلفة،كل من قارة، من أين تدفق هؤلاء البشر؟ بدت لها مدينتها الغارقة في النسيان، قرية وهمية كأنها لم تعش فيها يوماً، وأحست أن أمها وأباها مجرد قزمين متواطئين مع بعضهما لإفساد حياتها، غاب عن بالها أنهما كانا منذ برهة يلقنانها ما يجب أن تفعله، حين همّت بعبور الأوتستراد، فكرت كيف يعيش صفوان في مدينة عملاقة كنيويورك؟ وعند إشارة المرور كان عاشقان يتماهيان في قبلات لا تعرف حدوداً غضت نظرها والحنين إلى صفوان يكويها، ويصبح أشبه بطعنة سكين في قلبها، تساءلت بشرود: هل لمس فتاة غيري؟ هل لديه عشيقة أميركية؟!

داهمتها صور متلاحقة تصوّره بأوضاع غرامية مع أنثى جميلة، هاجت غيرتها، إنها لا تستطيع أن تستوعب أن يحتضن امرأة أخرى ويغازلها ويهمس بأذنها الكلام الرقيق نفسه الذي كان يقوله لها، إنه لا يزال عندها، وهي لا تزال عنده، هذا ما تحسّه بالضبط، في تلك اللحظة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بالذات، حين تغيّرت إشارة المرور وفيما هي تسرع لعبور الأوتستراد أدركت مدى الألم العظيم الذي أحسه صفوان حين تزوجت، تخيلت جحيمه وهو يتخيلها بين ذراعي آخر، يا لدناءتها، كانت تراسله في الوقت الذي تتعرف به على زوج المستقبل، تدخل الرسالة المشبعة بكلمات الوجد والشوق والشهوة من شق علبة البريد، وتسرع للشاب الذي سيغدو زوجها والذي ينتظرها في الشارع عند باب البريد، توهمه أن الرسالة لإحدى صديقاتها، بصقت من دناءة تصرفاتها، لكنها صرخت بحدة صراخاً تفجر شرراً من عينيها: إنهم عهروني، فكّرت أن ما يجمعها بزوجها هو الانكسار كلاهما انكسر أمام إرادة الأهل، هو بدوره أذعن لمشيئتهم وأعتقد أن زواجه من فتاة مسيحية أرثوذكسية عذراء ظاهرياً سينسيه حبه للفرنسية، كانت تدرك أنه ليس لها أية خصوصية، فيمكن لأية فتاة مسيحية بسن معين، ومستوى اجتماعي معين أن تحل مكانها، إنها لا تلخّص جنس النساء بالنسبة له. كما هي بالنسبة لصفوان الذي كان يختم رسائله لها: أنت كل النساء.

كانت تمشي على إيقاع جملة واحدة: يا للورطة، يا للورطة. تمنّت لو يقبل زوجها أن يضع على الجرح ملحاً ويتابعا حياتهما دون أن يفتضح أمرهما، ياه إنها غير مؤهلة أبداً لانفجار الفضيحة، وسيكون مطلبها الملحّ من زوجها، حتى لو اضطرت للتوسل إليه ألا يكشف أمر عملية إعادة العذرية وعلاقتها مع المسلم. تخيلت مدى المهانة التي سيشعرها والداها حين يعلمان أنها قامت بترقيع بكارتها؟ ألم ترضعها أمها مع الحليب أن الفتاة يجب أن تكون لرجل واحد هو زوجها. وإن لم تتزوج فلتمت عذراء! أما الشاب فلا مانع. بل يحبذ لو يكون متعدد العلاقات، ثم يتزوج، كانت تبدو لها تلك العقلية التي عاشت تحت خيمتها والتي تفرز الأفكار العفنة جريمة حقيقية، يا لفظاعة الظلم المحيق

بالمرأة... إنهم يوهمونها أنها تنال حريتها، بمتابعة دراستها الجامعية، وبلباسها الأنيق، لكنها في الحقيقة تطفو فوق عفن أفكارهم، حين دخلت البيت، فاجأها ماهر بعودته المبكرة، بدا شديد القلق عليها سألها بلهفة: أين كنت؟ ودت لو تريح رأسها على كتفه وتبكي، لكن ثمة حاجز ينتصب بينهما، إنه مضمّخ برائحة الفرنسية، نظرت إليه كأنه يقدّم لها نفسه للمرة الأولى: الدكتور ماهر، اختصاصي في الجراحة التجميلية، ثري، مسيحي، عازب. ماذا تعرف عنه أكثر. هذه اليافطة كافية للزواج وهي نازك جامعية، جميلة، مسيحية، ابنة أسرة متدينة متوسطة الحال. زواج اليافطة، هكذا سمّت زواجهما، وفي العمق الأهوال والرغبات المجنونة والحب الملتهب المستحيل المقموع بألف محظور ومحظور. كانت بحاجة أن تردد لنفسها مراراً أنه زوجها كي تصدق تلك الحقيقة.

أجابته: كنت أتنزه في حديقة ساحرة، حاولت أن أفكر في حل للمصيبة.

قال: سنتكلم في الخارج، هيا لنتغدى في مطعم.

خرجا من غرفة الأوهام، ودّت لو تسأله وهي تسير بجانبه، إن كانت الكلمات الدافئة والرقيقة التي همس بها وهما يمثلان دور الزوجين صادقة؟ سخرت من نفسها، ما قيمة هذا السؤال الغبي وهي تعرف الجواب سلفاً، إنه عاشق حتى النخاع للفرنسية، في المطعم أكلا بصمت مؤجلين الكلام الجوهري لوقت لاحق، تساءلت: كل شيء جميل حولنا، خارجنا، فلماذا لا تكون أعماقنا جميلة ونقية أيضاً؟ طلب كأساً إضافياً من النبيذ كي يساعده في الكلام قال: سأبدأ بنفسي يا نازك، كنت رجلاً تافهاً متخلفاً، حاولت أن أوهم نفسي أن علاقتي بالفرنسية عابرة، وبأنني في لحظة ما سأتركها كما لو أنني أنفض الغبار عن سترتي، وسأتزوج من فتاة تحقق أحلامهم فيّ، التي كنت أظن أنها أحلامي أيضاً، وكان

فشل زيجات الكثير من أصدقائي من أجنبيات يشجعني على هذا التفكير، لم أكن أقدّر حجم سعادتي معها، ولم أكن أعرف قيمة الحب. لم أكن أعرف أنني أخون نفسي وأتغرب عن ذاتي... أطرق في نقوش مفرش الطاولة لكأنها لفتت نظره في تلك اللحظة، قال بصوت يملؤه اليقين، إنها توأمي في الروح، أنا وهي واحد.

لم أعرف في أية متاهة ألقيت نفسي إلا حين التقيتها، اعذريني يا نازك، لكن من واجبي أن أعترف لك أنني ركعت أمامها أطلب منها السماح.

حلّ بينهما صمت مترقب، لم تشعر بمشاعر الزوجة المخدوعة، كان يتحدث بلسانها، ولو شاء القدر ووضع صفوان أمامها الآن، فستركع أمامه وبحضور زوجها وستطلب منه السماح، إنها الآن بحضرة رجل صادق يتعذب، وهو يحاول أن ينقذ حياته قدر استطاعته، يحاول أن ينجو من الغرق في محيط أفكارهم الآسن الذين يصرون أن يغرقوه فيه، خرق الصمت قائلاً: كان يجب ألا يتم هذا الزواج وكلانا متيم بآخر، لكن رفع إليها عينين مسهدتين من الأرق قال صادقاً: أتمنى أن أساعدك.

قالت: مشكلتي مختلفة، فأنا تخليت عن الشاب الذي كان يعبدني وأعبده بسبب حاجز الدين، وهذا الحاجز قائم أبداً، ثم إن ما بيننا انتهى تماماً، المهم الآن كيف سنتصرف؟

قال: أنا اتخذت قراري، لن أعود أبداً إلى وطني، سأبقى هنا و..

لم يستطيع أن يكمل أمام تعبير الفزع المرتسم على وجهها، قالت: أتريد أن تطلّقني، كم تشعر بلهجة الاستجداء في صوتها.

قال: سأحاول أن أمهلك فرصة لاستيعاب ما حصل بيننا، أنا أقدر ظروفك تماماً يا نازك، فأنت غريبة ولا صديقة لك تؤنسك وتساعدك، ولا يمكن طرح هذه المشكلة على الأهل، وهم أصل البلاء، وأنا...

قاطعته بنزق وهي تكره أن تكون في موقع الضعيف: حسناً، أمهلني فرصة، على الأقل كي لا يشمت بنا الناس ويقولوا بأننا طلبنا الطلاق ونحن لا نزال في شهر العسل، خاصة أنهم سيؤولون طلاقنا بألف شك وسبب.

قال: معك حق، أتمنى أن ننجح ونكون أصدقاء.

انفجرت بضحك عصبي حتى دمعت عيناها، وهي تردد: أصدقاء! أصدقاء!

سألها: ما بك؟ لماذا تضحكين؟

قالت: أتعرف؟ أحس أننا أشبه بالدمى المتحركة، ألا ترى أن الحياة مهزلة أحياناً، بل غالباً.

أوصلها بسيارته إلى البيت الذي سيهجره بالتدريج، في الغرفة التي ضمتها مع الزوج المخادع لشهرين، أحست بالقرف، يا للنفاق والغش، والعهر الذي مارساه فوق هذا السرير، وجدت نفسها تجهش ببكاء عاصف وهي تدفن وجهها في الوسادة تعضّها بلا رحمة، وتصرخ ملتاعة آه يا صفوان، آه يا صفوان...

في وحشة الغرفة، خرق صوتهم صوت بكائها، نفذ إلى أذنيها يشقهما ويحدث خرقاً في دماغها، كشعاع النار القاطع للحديد، قالوا هازئين: زوجك مغفّل، لا تيأسي، تحلي بالصبر، سيعود إليك، أنت الأجمل والأصغر، أنت الزوجة، التي بارك زواجكما الله، أين سيفر منك أين؟ وهل يظن أن الطلاق بالأمر السهل، هيا اصبري، اصبري، فالصبر من صفات الزوجة الصالحة. صرخت بصوت يعوي ألماً: بل من صفات الحمير.

• • •

ارتاحت كونه لم يصر على الطلاق فوراً، قررت أن تصب

اهتمامها في إتقان اللغة الفرنسية، وكان مزيج الطلاب من كل الجنسيات يؤاسيها بطريقة ما. إنها تشعر أنها واحدة من سكان الأرض، كل يأتي من طرف في هذه الدنيا، تضمهم هذه الغرفة، تصادقت مع شابة إنكليزية مخطوبة لشاب إنكليزي، قالت بأنها ستتزوجه بعد سنة، ولكن حين سألتها عن صديقها السنغالي الذي لا تفارقه قالت الإنكليزية ضاحكة: إنه بوي فرند رائع.

بحلقت بها وسألت: وخطيبك الإنكليزي، أليست هذه خيانة له.

– أولاه لا، فأنا أقضي وقتاً لطيفاً حتى يحين موعد الزفاف.

سألتها ساخرة: وهو ألا يقضي أوقاتاً لطيفة أيضاً!

قالت: بالطبع.

انفجرت نازك ضاحكة: ولماذا ستتزوجان إذاً، والخيانة مشرعة بينكما.

قالت الإنكليزية مستغربة منطق تلك الفتاة: لأننا نحب بعضنا.

كادت تقول لها بأنها على ضلال كبير لكنا قررت منذ تلك اللحظة ألا تكون ديّانة للبشر، في المساء كانت تدرس اللغة الصعبة وتكتب خواطرها، وتفكر بالوقت الذي ستكشف النقاب عن مأساتها لهم، لمن ورّطوها بحبهم المغلق الخانق منذ طفولتها.

• • •

وحده الذهول يحميها من الألم، لعله عطية ربانية. رأفة بأعصابنا التي تعجز عن تحمّل المآسي، شديدة الوطأة، والتي تبدو مستمرة للأبد، كانت تشعر أنها مرمية خارج ذاتها وخارج أسرتها وخارج زوجها. وأيضاً خارج حبيبها، ملقية بعصا ساحر في عاصمة الحرية، من الذي اقتلعها من مدينتها الصغيرة المنسية وألقى بها في باريس مخذولة ومشرّدة، لا أحد يؤاسيها ولا تقدر أن تطلب المساعدة من أحد، مهمّشة

وضئيلة، كانت تفكر أنها عاشت كل حياتها بالحسابات الخاطئة، كان إحساسها بالضآلة يشتد وهي تركض لتلحق المترو، وتصعد إليه شاقة ازدحام الناس اللاهثين دوماً وراء سراب، كانت مدرّسة اللغة الفرنسية تخصها بعناية ولطف خاصين، ربما لأنها شعرت بضياعها، أو قدّرت حجم أحزانها من نظرتها الشاردة، ذات مرّة كانت تتلفت متضجرة من الدرس، فاشتبكت نظرتها بنظرة شاب تونسي أسمر، أجعد الشعر، عيناه خضراوان ضاويتان، أحست بتدفق الدم إلى وجنتيها وبسخونة راحتيها، إنه يتأملها برغبة صريحة، ويرسل لها كلاماً من شعاع يبثه من عينيه الفاتنتين، بعد انتهاء الدرس اقتحم شرودها وقدّم لها نفسه: اسمي كمّون.

ضحكت فاسمه اسم بهار شهي.

قالت: وأنا اسمي نازك، سورية.

قال: اعتقدت أنك إيطالية.

سألته: لماذا؟

قال: حضرت فيلماً إيطالياً، الممثلة تشبهك تماماً، إنها رائعة الجمال.

ابتسمت للإطراء، لكنها لم تجب، قال: هل أتطفل عليك.

قالت: لا أبداً... سألته: كيف عرفت أنني عربية، وكلمتني...

ضحك كاشفاً عن صفين من الأسنان اللؤلؤية، الأمر بسيط، راقبت خربشتك على الورق...

قالت: أنت تتلصص إذاً؟

قال: على الذين يلفتون انتباهي فقط.

كان مقداماً في غزله، وجدت أن الصمت هو التحفظ الأنجح معه، سألته ماذا يفعل في باريس واستغربت أن يكون تونسياً ولا يتقن الفرنسية.

قال: أنا من أصل تونسي، والدي تونسي، وأمي إسبانية، وقد انفصلا منذ كنت في الثالثة، وعشت في إسبانيا مع أمي، كنت أزور تونس في الصيف.

قالت: يقال إن شواطئ تونس من أجمل شواطئ العالم.

قال: ربما، أتمنى أن تزوري تونس ذات يوم.

فهمت جملته كما أرادها تماماً: أتمنى لو تزورينني ذات يوم.

كانا يسيران متآنسين، كغريبين في عاصمة الضياع، كان هذا الغريب الطارئ أقرب إنسان إلى روحها، وأحست أنها يمكن أن تبوح له بكل شيء، حتى بسرها الدفين: عملية إعادة العذرية، ما أجمل العلاقة مع الغرباء، إنهم يتركوننا أحراراً... لكنها كانت تحس بدوي أصوات مبهمة وأفكار بعيدة تلاحقها، أكانوا هم، يحذرونها من التمادي مع غريب.

قال: اسمحي لي أن أتطفّل عليك وأسألك: لماذا أنت حزينة؟ بدقة أكثر: لماذا أنت حزينة وأنت على هذا القدر الكبير من الجمال؟

ضحكت: وهل الجمال يقي من الحزن!

قال: أظن ذلك.

قالت: أنت مخطئ.

قال: لم تجيبيني.

سألته باستخفاف مبطّن: وكيف عرفت أنني حزينة؟

أجاب بثقة عارف: في عينيك تجربة أليمة، لا يخفى عليّ قراءتها.

سألته: هل حضرتك طبيب نفساني؟

قال: إلى حد ما، لقد درست الفلسفة وعلم النفس في جامعة مدريد، وسأتابع دراستي في التحليل النفسي.

سألته: لكنك لم تدرس الطب؟

قال: لا.

دعاها إلى الغداء، أدهشها أنها وافقت دون ذرة تردد، حكى لها صادقاً عن حنينه إلى تونس، سألها إن كانت تؤمن أن الإنسان يحن إلى جذوره؟

قالت: لكن جذورك تونسية – إسبانية.

قال: هذا صحيح، لكني أحس أنني أكون أقرب إلى ذاتي في تونس.

قالت: جميل هذا التعبير.

سألها: وأنت، في أي مكان تشعرين أنك أقرب إلى ذاتك؟

أطرقت وقد غطى وجهها سحابة حزن عابرة قالت وصورة صفوان تنتصب في خيالها: لا أعرف.

شرب نخبها من كأس النبيذ الأبيض قائلاً: صحة أجمل عينين رأيتهما في حياتي.

كانت بحاجة أن تصدقه، كانت بحاجة لمسكّن ما، لكلام يدفئها في صقيع وحدتها ووحشة خيباتها، حتى لو كان كلاماً زائفاً، سألها برقة: الآن أنا كلي إصغاء لقصة العيون الحزينة الفاتنة.

ما أسهل أن تبوح بقصتها لغريب، تدفق الكلام من فمها، كأنها تبوح بسرها لكاهن الاعتراف:

– قالت: تزوجت زواجاً تقليدياً، أساسه مشورة الأهل، زوجي طبيب، اكتشفت بعد زواجي منه بشهرين أنه على علاقة مع طبيبة فرنسية، مطلّقة ولديها طفل، لكنه يحبها كثيراً، وهو يعيش معها...

قاطعها: وأنت، أين تعيشين؟

– أعيش في بيته، فأنا لا أستطيع العودة الآن إلى بلدي أجرجر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ذيول الانكسار والفضيحة معي.

– وإلى متى تنوين الانتظار؟

– لا أعرف، بضعة أشهر على الأقل، لأستطيع أن أحكي بعدها بخلافاتنا تمهيداً للطلاق. ثم لا تنسى أن الطلاق عند المسيحيين صعب جداً.

– هل أنت مسيحية؟

– نعم للأسف؟

– ولماذا للأسف؟

كانت ستقول لأن الدين جعلني أخسر أروع حب في حياتي، ولأنه زجّني في زواج خاطئ، لكن الكلمات تخثّرت على شفتيها قالت متملصة من الجواب: لا أعرف، هكذا!!

تدفّق حنان آسر من عينيه قال لها: انسي أنك متزوجة، عيشي حياتك، ودت لو تقول له: لن أكون طعماً لك أفهمت.

فهم ما قالته بعينيها، قال لها مبتسماً ابتسامته الخلاّبة: لا تقاومي الحب إذا اقتحم طريقك أنا واثق أن الكثير من الشبان سيرتمون تحت قدميك.

أطرقت في نقوش الطاولة الجميلة من اللونين الأزرق والأبيض، كانت بحاجة لكلماته، لكلمات من هذا النوع تحديداً، تخلق لها شاطئ أمان ولو كان وهمياً.

• • •

بدت لها الحياة كشيء غريب تجهله، لم تشعر بعبء الزمن كما أحسته منذ وصولها إلى باريس، إنها مثقلة بالوقت والانتظار، وحدسها يؤكد لها أن انتظارها لن يتمخض عن شيء، تحس الحياة تسخر منها سخرية لاذعة، وتشمت بها، كانت تهرب بتفكيرها إلى الموت، تذكرت

أنها لم تقم يوماً صلة بين الحياة اليومية والموت، ظل الموت بالنسبة لها بعيداً وغريباً وكأنه لن يحضر أبداً، كانت تشعر كيف ينطفئ تدريجياً نور روحها، فلا تملك سوى أن تتحسر على نفسها، إنها حائرة تماماً في صراعها مع الحياة، لا تملك وسائل لحل المشكلة، ولا تقدر أن تبوح بورطتها لأحد، سوى لغريب كشفت له جزءاً من جرحها، فصار له الحق أن يقتحم حياتها دون أن تقاومه، ولماذا عليها أن تقاومه؟ من أجل من ستقاوم تطوّر علاقتها بكمّون؟ كمّون الغريب القريب الذي له فعل المسكّن للآلام، إنه يهديها دوماً نعمة النسيان، ووحده نجح في إضحاكها بعد أن اعتقدت أنها نسيت الضحك إلى الأبد، كمّون يزيح كل الأشباح التي تعذّبها، ويمحو الوجوه التي تلاحقها في صحوها ونومها، يطرد ماهر وصفوان، ويخلي الساحة لنفسه، يغرس عينيه الخضراوين في سواد عينيها ويقول كلاماً دافئاً، تخمّن معناه، لأنه يتكلم بعربية غريبة عنها، آه يا كمّون في عاصمة الضياع، تعال ننطلق بسرعة الجنون في المترو، أليس للمترو سرعة الجنون؟ تكررت لقاءاتها مع كمّون، صارا يتناولان الطعام معاً، ويتنزهان في الحدائق، ويحضران الأفلام السينمائية معاً. وتسمح له أن يتأبط ذراعها ويمسك يدها، وأن يلتصقا في زحمة المترو، لم تكن تجد أي سبب معقول لتصرفاتها هذه، كانت تعرف أنه عابر في حياتها، وكانت مشاعرها منهكة ومحبطة لدرجة تعرف أنها غير قادرة على الحب، لكن كم تحتاج لهذا الشعور الدافئ العابر في حياتها، أليست حياتنا كلها عبوراً، ألا نعبر من ربيع إلى صيف، ومن صيف إلى خريف، ألا نعبر من طفولة إلى شباب ومن شباب إلى شيخوخة، ما أغبى الإنسان حين يعذب نفسه بواجب ديمومة المشاعر، فلتعبر حياتي يا كمّون، ولأعبر حياتك ولننفصل دون أن نترك وجعاً وندوب آلام، هذا ما كانت تحدّث نفسها به يوماً بعد يوم، محاولة تلطيف آلامها.

كان زوجها يتفقدها كل يوم، ويدعوها للغداء أو العشاء مرة أو مرتين في الأسبوع، كان يحاول أن ينتزع ثقتها وصداقتها، فيطمئن على دروسها في اللغة، ويفرح حين تخبره أنها متصادقة مع شابة إنكليزية، ذات مساء وكان يوصلها إلى البيت بعد أن تغديا معاً، وجدت نفسها كمن مسّها شيطان تنفجر بالسباب والشتائم أمامه، وتهدده بافتضاح أمره لدى أهله وأهلها، وتخبره أن يلتزم بها، وأن يترك العاهرة الفرنسية، كان منظره مطرقاً يمسك بمقود السيارة ويتلقى رجم كلماتها يجعلها تتهاوى في قاع يأس لا قرار له، لم يعلّق بكلمة على عاصفة غضبها. تمنى لها الهدوء، واتصل بها بعد ساعة ليطمئن عليها.

كانت تحلم أنه ذات يوم قريب سيرجع إليها نادماً، وقد تخلى عن الفرنسية، وكانت تستعيد هذا المشهد بأحلام يقظتها مراراً كل يوم، حتى حفظت السيناريو المعدّ بإتقان له، ستغفر له، وسيبدآن صفحة جديدة، وستنجب طفلاً رائعاً يكون هدفاً لهما، يقرّبهما ويولّد الحب بينهما، لكن الأيام تمر وماهر منخطف للعالم الآخر، يعيش حبه الرائع، كانت تشعر أنها تسير في سرعة لا تنتظر شيئاً ولا تستطيع حلاً لمشاكلها.

وحده كمّون صار أفيون حياتها، وحين استسلمت له في شقته العالية الواقعة في منطقة الديفانس حيث ناطحات السحاب، كانت تطل على باريس من الطابق الثامن عشر، بدا كل شيء، الناس، السيارات، الأشجار، ضئيلاً، ضئيلاً، وهبته جسدها الذي أحسته يشربه حتى الثمالة ويتنشقه كبخور، أدهشها أن تعطي ذاتها بهذا اليأس الجميل، أسعدها أن تدخل عظيم السعادة إلى قلبه، وأن يحس بالنشوة العظمى، قام يحضر شرابه المفضّل المكوّن من مزج العديد من الفاكهة، أحست أنها تتدحرج إلى عزلتها ككرة من حديد، لم تشعر كم هو ثقيل وأصم – جسدها – كما أحست وهي مع كمّون، تذكرت وصالها مع صفوان، كانت تشعر أن

جسدها يتحرر من ثقله، يطير في الفضاء كفراشة، يغدو أوسع من الغرفة، وكانا يظلان متلاصقين بعد فعل الحب، لوقت طويل يتسايران في كل المواضيع، ويخططان لمستقبلهما بتفاصيل لن يتحقق منها شيء.

لأول مرّة تنظر للجنس كمخدّر، فبعد أن استسلمت لكمّون انتابها تقزز فظيع وهي تتفرج بعينيها النفسيتين كيف يلتهمها شاب غريب يعرف أنها على ذمة رجل، تبحث عن مسكّن لآلامها، وبخها ضميرها بقسوة، فقررت مقاطعة كمّون كلياً، لكنها بعد أيام وجدت نفسها تلبي دعوته للغداء، انطلقت إليه وهي تشعر بالغياب الجميل الذي تولّده فيها سرعة المترو، وحين فتح لها الباب، اخترقتها الشهوة كومضة برق أو كسهم من نار، كان قد أعدّ لها غداء شهياً وكوكتيل عصير الفاكهة الذي يتباهى بإعداده، ولم تقاوم قبلاته، بل أخذت بدورها تكتشف هذا الجسد الفتي الذي يقيم جسوراً مع جسدها، حاولت أن تعبر روحها إلى روحه من خلال جسور الجسد، لكن عبثاً، ثمة عائق متين بينهما لا يتزحزح، ترى ما هو؟

صارت تلتقي به دوماً، وهي تعي كيف يغيّبها جسد كمّون عن أوجاع روحها، أفاقت ذات ليلة من عز نومها، أيقظها هوى جديد، وجدت نفسها تجلس إلى طاولة الكتابة، وتكتب ما هو مسطّر في دماغها منذ مدة:

طريق الطهارة صعب
الوجع القديم، يطرد الوجع الجديد
أنا المتخمة موتاً
أهبك جسداً بارداً
جسداً لا يعرف كيف يضيء
الحب يحوّل الجنس إلى قربان

الجنس من دون حب أفيون
خذ جسدي، وهبني نعمة النسيان
أوقف عذاب الحنين إلى الطهارة الأولى
لست بحاجة معك لأطلي الكلمات
لسنا بحاجة للكلام
جسدان متداخلان يعزفان أنشودة العزلة الخالدة
في غرفتك الضيقة في الطابق الثامن عشر
أتبعثر، وأتبدّد
وأتلاشى كدخان
نازك

• • •

كانت تحس براحة وبأنها تتحرر من أثقال تشد روحها للأسفل، حين تكتب هلوساتها الكلامية غير المنضبطة، لم تفكر يوماً أن تدقق في ألفاظها، وأن تكتب قصة أو قصيدة، الكتابة مجرد وسيلة لتخفيف احتقان روحها، لذا تلجأ إليها، وبين وقت وآخر كانت ترسل رسائل مفعمة بالأمل لأهلها، وعرفت أن زوجها يكتب رسائل مشابهة لأهله، لكن إلى متى ستستمر هذه المهزلة، ها قد مضت خمسة شهور وهي تعيش وحيدة في باريس مع عشيق غريب، لا يربطها به سوى الضياع، ومع زوج وهمي ينتظر مبادرتها للبدء بإجراءات الطلاق، ترى لم لا يطالب بالطلاق؟ هل يخشى بدوره مواجهة الأهل، أم أنه يقدّر حرجها ويخشى أن يضغط عليها لدرجة تعجز عن تحمّلها فتصاب بانهيار. لعله يحس بالذنب كونه أقحمها في الزواج منه! لكن كيف استطاعت الفرنسية أن تغفر له! هل الحب مسامحة إلى هذا الحد؟ وصفوان؟ هل غاب حقاً من حياتها؟ عذّبها تذكر رقم هاتفه في نيويورك، لكنها صحت ذات يوم

والأرقام تنهال على قلمها، رفعت سماعة الهاتف وأدارت القرص بيدٍ مرتعشة، هوى قلبها حين سمعت رنين غيابه، ثم أتاها صوته مسجلاً على آلة التسجيل بإنكليزية عذبة: (مساء الخير، يرجى ترك رسالة، وشكراً). أبقاها صوته مضطربة يومين كاملين تسكب الدموع في الأوقات الحرجة، كأن تهاجمها وهي تدفع لموظفة الصندوق في السوبرماركت، أو وهي تشتري بطاقات المترو البرتقالية من الرجل الذي يفصلها عنه الزجاج، أتراها بحاجة لمؤانسة بشري، لذلك تنهمر دموعها أمامهم؟ هل يستيقظ حبها لصفوان من كبوته، نبهها صوته العذب المحفور عميقاً في ذاكرتها لمدى الدنس الذي تغرق فيه جسدها مع كمّون، قررت أن تنسى رقم هاتف صفوان، لكنه تحوّل لهاجس كلما ألحت على نفسها في نسيان رقمه، بعد أيام عاودت الاتصال، أتاها صوته قريباً كأنه ينفخ في جلدها، أحست أنها قربة مثقوبة يصفر بها هواء نتن، حبست أنفاسها ولم تستطيع أن تتكلم، عاودت الاتصال بعد دقائق، أتاها صوته ثانية ملهوفاً: همت أن تقول آلو، لكن شيء ما تهاوى في أعماقها، ركبها جنون الاتصال، كررت المحاولة الثالثة، فصعقتها المفاجأة، صوت امرأة تقول بإنكليزية صافية: آلو، آلو، أما من أحد، هذه قلة ذوق.

سربلها الذهول، يا للمفاجأة، هل أحب فتاة أميركية! أهو بصحبة امرأة، هل يقبّلها ويداعبها كما كان يفعل معها؟ جنت من الغيرة والقهر، لم تستطع القبول بأي شكل من الأشكال أن يحب صفوان أنثى غيرها، كان يعبدها لدرجة آمنت أنها ستظل ملكة قلبه إلى الأبد، ألم يبتدع تعبير أنت آخر النساء! كوّرها الحزن حول نفسها كقط مريض، ياه ليس هناك أقوى من ذاكرة الإنسان حين يهزمه الحزن.

• • •

كان حاضرها مهمّشاً، فالذاكرة تطغى عليه باستبداد، كل صباح تفتح عينيها على صور من الماضي، كيف تزين مع إخوتها شجرة عيد الميلاد، كيف يلونون البيض في عيد الفصح، كيف تخيط أمها الثياب لها ولأخواتها، صور والدها يقلب صفحات الجرائد باهتمام، ويحكي حديثه الأبدي المفضل الفلسفة المسيحية وافتتانه بشخص المسيح، تنتشر تلك الذكريات على مساحة يومها فتحس أنها تطفو فوقها، إنها لا تعرف كيف تعيش الحاضر، فهي خارج دروس اللغة تائهة في مدينة لا تعرف فيها أحداً، كانت تسليتها الوحيدة شراء أشياء لا تلزمها من سوبرماركت، والتنزه في الحدائق الساحرة متأملة الناس المتباينين لدرجة الدهشة، كانت تشعر كيف تتضاءل مشاكلها وآلامها وهي تنقّل بصرها بين الشيخ والطفل بين الزنجي والأصفر والأحمر والأبيض، فتحدث نفسها: ما أوسع الدنيا، وما أضيق الذات خاصة حين تلتف حول قضية واحدة شديدة الخصوصية، ملّت من آلام روحها، فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم، ترى هل تأثرت بكمّون الذي يعيش حياته تحت شعار (واغنم من الحاضر لذاته، فليس من طبع الليالي الأمان)، إنها أغنيته المفضلة وفلسفته أيضاً.

سافر كمّون إلى تونس، لم تتوقع أن تفتقده بتلك الحدة، لم تعرف كم حماها هذا الشخص من أذى الذكريات ووجع الحاضر، لم تقدّر علاقتها به حق قدرها حتى غاب، كانت دوماً محكومة بالقيم الأخلاقية وتنظر لنفسها كزانية وهي تضاجعه، وتوحي لنفسها بأنها يجب أن تحس بالندم والقرف والاحتقار لنفسها وهي تعاشر شاباً خارج إطار الحب؟ لكن ما هو الحب؟ أليس حباً لقاء امرأة مخذولة بشاب غريب في مدينة غريبة فيحضنان بعضهما طرداً للوحشة، ويبحث كل جسد عن سلامه في جسد الآخر؟ أليس حباً حين يقفز قلبها بسرعة المصعد وهي تصعد إليه في

شقته في الطابق الثامن عشر، فيستسلمان لنزوة العشق العابر في عاصمة الضياع؟ أليس حباً افتقادها الشديد له دون أن يترك وجعاً في روحها؟ كانت تحدثه بحنان صادق وهي تمشي وحيدة في شوارع باريس: كم أحنّ إليك يا كمّون، ليتني كنت منشرحة معك أكثر، وأكثر عفوية، تذكرت أنها لم تهمس له ولا مرة واحدة بكلمة حب، كانت تنظر لعلاقتهما الجسدية باحتقار وتسميها (علاقة اللحم) أو علاقة الشهوة لكن ما الشهوة؟ وما الحب؟ أليسا من طبيعة واحدة، وحين توصلت للانسجام مع الجسد الأسمر المشدود والفتي، وأحست بسعادة وانشراح وافتتان، ألا يسمى هذا حباً؟ لكنهم علمّوها أن هذه العلاقات تسمى علاقات الشهوة والشهوة يجب أن تكون محتقرة ودنيئة. ترى هل عليها أن تعيد النظر بكل شيء في حياتها! أجل هذا ما آمنت به، يجب أن تتقيأ كل كلماتهم وأفكارهم، وأن تبني نفسها من جديد، لم تعد باريس مدينة الضياع، بل صارت فضاء النجاة، ستحاول أن تبحث عن عمل، وبعدها ستطلب الطلاق.

ولن ترجع إلى عفن أفكارهم. عزت إحساسها بالشفاء لكمّون، إنه الوحيد الذي ساعدها لتستعيد ثقتها بنفسها، حتى مشيتها تغيّرت، صارت راسخة، تضرب الأرض بقدميها، وتستمع لتعليقات الشباب، أنت ساحرة، أنت فاتنة، فترد بابتسامة وأحياناً بكلمات شكر، فتنها نمط الحياة الباريسية، الحرية بلا حدود، صارت تلبس كفرنسية، كانت تلبس الشورت مع بلوزة ضيقة تكشف عن جزء من بطنها وتجلس في مقاهي الرصيف تشرب النيسكافيه والبيرة، وتدخّن السجائر خفيفة النيكوتين، كان يحلو لها أن تتخيل أنها رومي شنايدر، لإعجابها الشديد بتلك الممثلة، إنها منتشية بشبابها وحريتها، بولادتها الجديدة من قاع اليأس والضياع، ياه لم تحس أن الحياة تمجّد الشباب كما أحست في تلك الفترة.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تمكن زوجها عن طريق أصدقائه أن يؤمن لها عملاً في صيدلية، ورغم ساعات الدوام الطويلة إلا أنها كانت سعيدة، وحين قبضت راتبها الأول أحست أنها ستشتري به باريس كلها، ورغم أنه كان ضئيلاً ولا يسمح لها بأن تستقل بمعيشتها، لكنها فور استلامها الراتب طلبت من زوجها أن يكف عن إعطائها مصروفها الخاص، لكن إحساسها بالمذلّة ظل قائماً لأنها تعيش في الشقة التي يملكها زوجها الوهمي.

• • •

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الخطايا تحمل وتلد

قضت أياماً مشحونة بالدموع وهي تبحث لنفسها عن شخصية تناسبها، فما كانت تتمناه بكل كيانها وتصلي ليتحقق، قدّم لها على طبق من ذهب، لقد رجع إليها زوجها يطلب برقة أقرب للتوسل أن يستأنفا حياتهما الزوجية من جديد، ويصلحا ما فسد بينهما، أحست أنها أمام رجل جديد لم تعرفه من قبل يتميّز برقة البلهاء، قال بأنه متحمس ليبدأ معها بداية جديدة، وبأنه يقدّر مزاياها، وقدرتها على التحمّل وتجاوز الظروف الصعبة. وحين طلبت إليه أن يقدّم تفسيراً لما حدث معه راوغ بنظراته وقال: التفاصيل ليست مهمة، أؤكد لك أن علاقتي مع الفرنسية انتهت تماماً.

سألته: لماذا؟

قال متململاً: قلت لك التفاصيل غير مهمة، لكي تطمئني أكثر، فهي ستتزوج عمّا قريب.

انتشت بسعادة الشماتة، أحسّت أن هذه اللحظة القصيرة أنستها عذاب الأشهر الطويلة الماضية، حين كانت تصارع الأرق كل ليلة وهي تقلّب احتمالات علاقته بالفرنسية، وبالتالي احتمالات مصيرها الذي تحسه معلقاً بخيط إلى خصر الفرنسية. هكذا إذاً أنت تعود إلي لأنك مهزوم ومخدوع، لأنها لفظتك خارج حياتها وستتزوج غيرك، لم يدم شعورها بالشماتة طويلاً، لأنها أحست كيف أنه غائب تماماً عن مشاعرها، إنه خاضع لتأثير قوى وعواطف تطحنانه، وسواء احتضنته بحنان، أو صفعته شامتة، فالأمر سيّان عنده، قدّرت أنه لم يحلق ذقنه منذ أيام، علامات الأرق واليأس باديتان على وجهه، نظراته زائغة وأجفانه

متهدلة من السهر وربما من البكاء، ثيابه مرهقة من الاستعمال المتواصل، خطر لها أن تسأله إن كان ينام بلباسه، لكنها وجدت نفسها تقول بروية ودون أثر للشماتة في صوتها: أمهلني أسبوعاً كاملاً لأفكر، تركها في المنزل يحيط بها فراغ كبير، قال لها: كما تشائين، وقبل أن يغادر سجل لها رقم هاتف صديقه الذي يعينه في محنته، وحين استدار مغادراً، انتزع شفقتها رغماً عنها.

حين غادرها تملكتها للحال مرارة قاسية، وهبّت في روحها نقمة عارمة على كل شيء، نقمة من الزخم لدرجة شملت نفسها، إنها تكره ما آلت إليه، وما كانته دوماً، فهي خانت أعظم حب في حياتها، وزجت نفسها في زواج أساسه نيل رضاهم وبركتهم (هما اللذان قذفاها في لحظة شهوة إلى الحياة)، وحين اكتشفت أن زوجها متيم بامرأة أخرى لم تستطع أن تتركه خوفاً من الفضيحة، ثم تورطت يائسة بعلاقة الجسد مع كمّون، وحين لاحت تباشير البداية الجديدة، بالعمل والبدء بصفحة جديدة ليس فيها خط واحد من خطوط الماضي يعود إليها زوجها ليجرها إلى الخطيئة الأولى. ترى هل هي أهل للبداية الجديدة؟

وعملها في الصيدلية لا يكفيها لتستأجر غرفة، ولا تعرف أية جراح يخبئ لها المستقبل؟ فقد تتعرف بشاب يكون جرحاً جديداً في حياتها، ألا يقولون قديم تعرفه خير من جديد لا تعرفه، فلماذا لا تبدأ مع زوجها بداية جديدة.

حين طرحت هذا التساؤل على نفسها لاحقة خيط أفكارها، أحست بأقوى غثيان ممكن، وهاجت مشاعر عاصفة في روحها توبخها بقسوة: أنت عديمة الكرامة حقاً، إنه لم يرجع إليك إلا بعد أن طردته الفرنسية، وهي لمست خنوعه وضعفه وتذبذبه بالتأكيد، وما أدراك لعلها أوهمته بالعودة إليه كي تحطمه وتنتقم منه لأنه تزوج، من أنت حتى يفعل بك ما

يشاء، يهجرك أشهراً، ثم يرجع إليك، هل نسيت أن أهم صفة يتمتع بها الإنسان هي الكرامة.. أين ضاعت كرامتك؟ هل قررت استئناف حياتك بلا كرامة، إني أحتقرك، أحتقرك.

تململت في مقعدها، وقالت للسيل الجارف الساخط من الكلمات المنفلتة من روحها الملتهبة.

- مهلاً، أنا لم أقرر بعد، أما سمعت أنني طلبت منه أن يمهلني أسبوعاً، ثم إنه في الواقع - أوه ما بالي مضطربة هكذا - في الحقيقة المجردة إنه يشبهني تماماً، كلانا خضع لمشيئة الأهل، لكن في حالته جمعته الظروف مع حبيبته، عرضته لامتحان قاسٍ أما أنا فلم أتعرّض للتجربة، ربما لو صادفت صفوان في باريس، وسامحني، كنت هربت معه، معك حق، كلانا يثير التقزز، لكن.. لكن.. صرخ الصوت الغاضب في حنجرتها: لكن ماذا؟

تجرأت وأكملت: لكن يصح أن أفكر بطرحه، لعلنا نستطيع أن نبدأ بداية جديدة، كلانا مهزوم وتائه، كلانا حفظ جرح الآخر أو سرّه، لم نشهّر ببعضنا، ولم نفضح ضعفنا، وحين يجمع السر بين البشر فيمكن أن يجمعهم شيء آخر.

سخر الصوت القاسي قائلاً: أتقصدين الحب؟

قالت: ربما، لكني أقصد الحياة، يمكن أن تتشابك خيوط حياتينا، ونبدأ على أساس جديد.

انفجر الصوت الساخر بضحكة شماتة: يا لك من مسكينة، إنهم هم يتحدثون من خلال حنجرتك، كم نجحوا في صناعتك يا نازك، كم نجحوا في صناعتك، ما أنت سوى مسخة.

صرخت بألم: كفى، كفى، اخرسي.

انطلقت هاربة من ذاتها ومن الغرفة، هامت في الحديقة الفاتنة قرب منزلها، كانت الطبيعة عزاءها الوحيد في اختناق روحها وحيرتها.

• • •

احترم رغبتها طوال أسبوع، تركها تعاني أزمتها الروحية التي تأخذ وجودها كله، وكانت في وقت واحد تهب نفسها لنداءين متنافرين بشدة، أحدهما أن تعطي ذاتها كلياً لزوجها وتبدأ معه بداية جديدة ماحية من ذاكرتها كل ما مرّ معهما، والآخر نداء يحثها بأن تطوّح بكل حياتها الماضية وتطلّق زوجها لتبحث لنفسها عن الشخصية التي عليها أن تكونها... كانت هي مسرح الصراع بين القوتين اللتين لا ترأفان بها مطلقاً، أرهقها الأرق فما عادت قادرة على ملاحقة أفكارها، ولا على الاستمرار بفكرة واحدة حتى النهاية، كانت تنام على أفكار وتصحو على أفكار تناقضها، كانت تكتب على الورق بما يجب أن تركز عليه في قرارها، ثم تبدأ الكلمات تأخذ شكل خطوط ودوائر متشابكة... لكن فوضى روحها الشديدة كانت تطمئنها إلى حدٍّ، فهي تعني أنها لم تمت، وبأنها لا تزال قادرة على الإحساس والتفكير والاختيار. الروح المضطربة هي الروح الحية، أما حين يعمّ السلام التام على الروح فهذا دليل موتها، إن كل جوارحها الآن متيقظة لتختار حياتها الجديدة، إما مع ماهر أو بدونه، وكل مفترق طرق صعب، وما عليها إلا أن تثق بالحياة، بشبابها وعلمها، كانت تبتهل بحرارة لإله تحسه غير آبه بها، كي يساعدها على اتخاذ قرارها، لكن إحساسها المستمر بأنها ستطيعهم وستنفذ مشيئتهم كان يرهقها، لأول مرّة تعرّي أحاسيسها بدقة، فإحساس الطاعة ظل يهيمن عليها طول حياتها، فكرة متسلطة عليها بأنها ستطيعهم إلى الأبد، هي التي تسيّر حياتها، فهل ستطيعهم هذه المرة أيضاً؟! ألا تسمع أصواتهم تدوي في أذنيها: ابدئي مع زوجك صفحة

جديدة.

لكن أي ذنب ترتكبه لو اقتنعت بأفكارهم؟ إنها تخشى أن يضيّعها تيار الحرية المنفلشة في باريس، تخشى أن يجرفها كقشة صغيرة، ترى أليس من حقها أن تبحث عن ضمان وأمان؟ سخر منها الصوت المتمرد وهو يفرّ منها قائلاً: يا للسجع الجميل، أمان وضمان أضيفي بهتان يا مسخة، يا مسخة...

ما الذي سيقدمه لها الطلاق؟ ظل هذا السؤال يلاحقها بإيقاع لحوح، فيما سرب من الأحلام المبهمة تستيقظ في نفسها جارة معها أشواق قديمة للاستقرار، تمنّت لو تنسى كل خيباتها، وانكساراتها، وتبدأ معه من جديد، فهو زوجها أمام الجميع، هذا ما كانت تردده لنفسها وهي تنشد العزاء في حديقة اللوكسمبرغ، وقد استقر قلمها على صفحة بيضاء منذ ساعات، لم تكتب سوى جملة واحدة: إنه زوجي أمام الجميع، ما عدا أمام نفسي. كانت بحاجة أن تصفّي حساباتها مع نفسها وليس معه، يجب أن تلتقط طرف الخيط؟ لكن أين يكمن طرف الخيط، الله أعلم، كلّما همّت بالبحث عنه، تجد ذاكرتها تعيدها إلى طفولتها الأولى، كانت تتساءل فيما لو كانت النوايا الطيبة كافية لرتق تمزقات روحها، حين اقترب منها شاب، وطلب إليها بأدب أن يتحادثا، لم تمانع، كانت بحاجة أن تخرج من ذاتها قليلاً... تلامست زرقة عينيه مع سواد عينيها، سرت شرارة قصيرة بينهما، قال لها: كنت أراقبك، في عينيك السوداويين قلق، أو ربما ظمأ إلى الحرية... ضحكت، استأذنته كي تكتب الجملة الأخيرة التي أعجبتها.

سألها: هل أنت صحفية؟

قالت: بل شاعرة.

هل كانت تتنبأ بما ستكونه يوماً؟ هل كانت تغمغم بما تريد أن تكون

عليه؟

قدّم لها نفسه: غيّوم، أستاذ في التاريخ، ابتسم لها وهو يقول: يبدو أن القصيدة تستعصي عليك هل تجدين صعوبة في ترويض الكلمات؟

أدهشها قوله، لكنها تذكرت أنها قدّمت له نفسها على أنها شاعرة، قالت له: في الواقع الكتابة صعبة وشاقة.

قال: تعابير وجهك ملائكية وشاعرية، حبذا لو تسمحين لي أن أرسمك ذات يوم.

سألته: هل أنت رسام أيضاً؟

قال: إلى حدٍّ ما، لكنني أهملت هذه الموهبة للأسف، والآن أناديها بإلحاح أن تعود إليّ، لكنها تأبى، الموهبة المهملة كالحبيب المغدور، لا يسامح بسهولة.

لامست كلماته وجعاً عميقاً في روحها سألته:

– هل تعتقد أن مواهبنا حين تضيع لا تعود ثانية؟

قال: لا أعرف، لكني أظن أن الزخم الأولي لن يعود.

ترجمت كلامه على النحو التالي: ألن تضيّع نقاء روحها إذا قبلت مشاركة ماهر الحياة الزوجية مجدداً.

سألها: منذ متى تكتبين؟

قالت بصوت يشف عن حزن عميق: أنا لا أزال على عتبة الإلهام، لكن هذا الإلهام قد يضيع تماماً.

سألها: لماذا؟

قالت وهي تحس بالراحة التي يهبها إياها الغرباء: بسبب الزواج.

حدّق في عينيها، جرحتها زرقة عينيه قال: ولماذا تتزوجين؟

قالت: أنا متزوجة، وأعتقد أن الزواج سيقتل موهبتي.

لوى شفتيه سخرية وقال: فليذهب الزواج إلى الجحيم.

قالت: نحن الشرقيات لا نستطيع أن نقول هذه الجملة ببساطة.

قال: لكنك شاعرة.

داهمتها رغبة قوية بالبكاء، بدا لها البكاء بحد ذاته غاية وهدفاً، تتمنى لو تحكي قصتها لهذا الغريب، دعاها لشرب القهوة في مقهى رصيف قريب، مشيا بين الشجر، تذكّرت كمّون وهي تحس بتشردها الجميل مع الغريب، أحست كم يستطيع التائه أن يستسلم بسهولة لإغواء أي غريب عابر، من أين تأتيها تلك الخيالات الشيطانية فتصوّرها تتعرى بين ذراعي هذا الغريب دون أي شعور بالعار والخجل، لم تعد تعرف كيف ستلوم نفسها على تحلل أفكارها وخيالاتها من أي ضابط أخلاقي، ذكرها غيوم بكمّون، كلاهما خاطبا جسدها أولاً.. وحين امتدت يدها لتقطف ورقة خضراء من غصن شجرة، ارتسم وجه صفوان على مساحة الشجرة صافياً حزيناً، وفي نظرته عتاب قاس، أطرقت خجلة وهي تتساءل: ماذا لو عرف صفوان بممارساتي؟ هل يصدق أن نازك تقيم علاقات الجسد العابرة.

شربت القهوة مع غيوم، وهو يحدثها عن خدمته العسكرية التي قضاها في مصر، كانت تتأمل تقاطيعه الجميلة، وتنتشي لانشداده الصريح لجاذبيتها، انساب بينهما الحديث بسلاسة، وزال الكثير من الحواجز بينهما حين اكتشفت أن شاعره المفضل جبران خليل جبران، لكن آلمها أن يعتبر جبران إنكليزياً، أنساها غيّوم مشكلتها المعلّقة، وكانت تشعر بروحها تتهافت إليه كأوراق تطيّرها مروحة باتجاه واحد، وأحست أنها في غمرة حديثهما ستتساق ذات يوم إلى بيته، وتفرجت بعين خيالها على مداعباتهما وعريهما الجميل، سرت قشعريرة في جسدها وهي تتخيل عريها المضيء مع غيوم فوق فراش ضيق.

أحست بالدفء الإنساني الجميل بينهما يسري في أوصالها الباردة من الوحدة، لامس بظهر يده خدها بنعومة قائلاً: تملكين بشرة من حرير، أحست بملمس راحته الناعمة والرطبة قليلاً على خدها، شكرته بابتسامة فتشجع ومسح بحنان على شعرها قائلاً: سواد شعرك ساحر.

دارت ارتباكها معلقة بلهجة مرحة: إنه أسود بسبب الحزن.

قال: لا أقبل هذا الكلام من امرأة فاتنة مثلك.

تبادلا أرقام الهاتف، وجدت نفسها تزوّر رقمها، لتباغت بموجة من تقريع الضمير تصفها بالخفة والعهر، تأملته يبتعد بقامته المنتصبة الرشيقة، مزقت الورقة التي تحمل رقم هاتفه، كان يجب أن تحمي نفسها من الغواية، زاجرة روحها المشردة التي عليها أن تشحذ كل قواها لاتخاذ قرارها المصيري.

صباح اليوم الثامن، أفاقت لتثب وثبة صماء إلى الهاتف، تتصل بماهر تعلمه أنها قبلت أن يعودا زوجين، متناسيين ما مرّ معهما، لم تشعر أن ما تنفوه به قرارها الشخصي، بل كان هذا الكلام يُملى عليها من قبلهم، ولم تشعر بأية بهجة بعد أن تفوهت بقرارها، ظل السأم يتملكها بصورة أقسى، ندمت كونها مزّقت عنوان غيّوم، رمقت الفراش البارد بنظرة احتقار، سيتوجب عليها من الآن فصاعداً أن تمارس واجبات الزوجة، عليها أن تفي بالتزامها تجاهه، وأدهشتها المفارقة، فهي التي تشبّعت بمفهوم قدسية الجسد، وعدم الاستجابة لنداءاته الملحة، تصبح شديدة الاستهتار به، وتشعر أنها تستطيع أن تتعرى بين ذراعي رجل، بالبساطة التي تطلب فيها إشعال سيجارتها، ترى ما سبب هذه الخفة؟ أهو اليأس أم السأم، أم اكتشاف زيف التربية الدينية التي نبتت في تربتها، كما ينمو عشب فوق مزبلة.

كانت تستحم حين سمعت خشخشة مفاتيحه، أسرعت تقفل باب

الحمام، وتتابع غسل شعرها على عجل استنفر جسدها كأنه يخشى الاغتصاب، بدا لها أنه من المستحيل أن يلمسها بعدما حصل بينهما، كيف عساها تتحمل قربه، وهي تشعر كم تشمئز منه، هل ساعدها عريها الناصع تحت رذاذ الماء الفاتر أن تسبر عمق نفورها منه، هاج قلبها للحظات، تمنّت لو تفتح باب الحمام وتصرخ بأعلى صوتها: لقد عدلت عن قراري لن أعود إليك، أشرف لنا أن ننفصل، لكنها خرجت بعد دقائق وهي تلبس برنس الحمام، ليتبادلا ابتسامة تدربا عليها، امتزج في روحها شعوران من الشفقة عليه واحتقاره في آن، إنها تنظر إليه فتحسه ظلاً للفرنسية، في حظيرتها، لعله يتمنى لو تعيده إلى جنتها، لكنها آثرت الزواج بآخر. سألها برقة مصطنعة إن كانت ترغب بشرب النيسكافيه، أجابت بنعم دون أن تكون راغبة، دخلت غرفة النوم، ارتدت ثيابها، وأخذت تجفف شعرها كيفما اتفق وهي تحدّق بصورتها في المرآة كأنها تنظر لامرأة تتعرف بها لأول مرة، كانت نظرتها قاسية ومخيفة، من هذه المرأة التي تقف قبالتي؟ وتفوح منها رائحة الصوابين المعطرة، لكن رائحة نتن أعماقها أشد، إني أكرهها، أكرهها، فهي تطيعهم وتسيّر حياتي، عصف بها شوق طارئ لغيّوم، ندمت لتسرعها بتمزيق عنوانه، حاولت عبثاً تذكر رقم هاتفه، فكرت أنها لو كانت على موعد مع غيّوم لكانت جففت شعرها بعناية، أما وهي ستلقى زوجها بعد قليل فلن تبذل أي جهد لتبدو أجمل، يكفيه ما تتصدق عليه من حضورها.

جلسا يرشفان القهوة بصمت، ثم بدا عليه الاهتمام المفاجئ، وقال بأنه سيحدثها بجدية وصدق، مؤكداً لها أن علاقته بالفرنسية انتهت تماماً، وبأنها لم ترجع إليه إلا لتعالج نفسها من آثار تخليه عنها بقسوة وزواجه المفاجئ، وقال بأنها مغرمة بالرجل الذي ستتزوجه بعد أيام ولذا...

انفجرت بصراخ مخيف: كفى، كفى، هل عدت لتحدثني عن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

القحبة، كنت أظنك ستحكي عن حياتنا، عن البداية الجديدة، عن ندمك، عني أنا، كإنسانة، كانت تخبط بيديها على صدرها، حتى كادت تكسر أضلاعها من شدة استرسالها في الانفعال، ألم تفكر بي، لقد ألقيت بي في عاصمة لا أعرف فيها أحداً، ولا أعرف اللغة، تخليت عني لتعيش مع عشيقتك؟ ألم يخطر لك كيف عشت هذه الأشهر، كان جسدها يرتجف من الغيظ والانفعال، ومن الحقد الذي لوّن عينيها بالاحمرار وجعل أوردة عنقها تنفر شيء مقرف أن تستبيح كرامتي إلى هذا الحد، هل فكرت بأية أزمة نفسية زججتني؟ هل تعرف يا نذل أنني مراراً فكرت بالانتحار، بالانتحار...

ترجع صدى هذه الجملة قوياً، فقدت كل قواها وتهالكت على الأريكة وهي تلهث ثم تبدأ بنوبة سعال تشنجي، لأنها استنشقت لعابها كما يبدو، كان يحدّق مبهوراً من كمية الحقد الرهيبة التي تكشفت له في أعماقها، ظل صدى كلمة نذل يتردد قوياً بينهما، حلّ صمت ثقيل، أخجلها صمته الذي شعرته كتأنيب صامت، ودّت لو تتأسف، لكنها عدلت عن الفكرة، لقد غضبت وكفى، فرّغت شحنات روحها المحبوسة منذ أشهر، وانتهى الأمر، خرق صوته الصمت المشحون بينهما سألها: لم قبلت بالعودة إلي وأنت تكرهينني كل هذا الكره؟

تنهدت وقد فاجأتها دموع التعب، قالت له بصوت بالكاد يشق طريقه: لنعط أنفسنا فرصة لننسى. كان كلٌ منهما يعتقد أنه أحقّ بالاهتمام الأكبر، فهو المهزوم والمخدوع، المنهك والمضعضع يطلب إليها أن تداويه بحنانها، وتبذل جهودها لخلق حياة مشتركة بينهما، وهي ترى أن من حقها أن يتفانى في الاعتذار عن خيانته لها وإهماله لها أشهراً طويلة، كانت تنتظر عبثاً أن يبكي بين ذراعيها نادماً، مستغفراً، مكتشفاً أنه يحبها هي، وبأنه اكتشف خداع مشاعره مع الفرنسية، وبدوره

كان يتأمل لو تمتلك حكمة النساء المدجنات جيداً، في بلسمة جراح الحب عند رجل، وترويضه على حب امرأة أخرى، وتحويل مسار عواطفه، كما يحوّل مجرى نهر!

بعد ثورة غضبها التي خرقت كل المقاييس المألوفة للغضب نفسه، فهم أن عليه أن يمتنع كلياً عن ذكر الفرنسية، كانا يمارسان حياتهما كأنهما يعيشان على سطح محيط شديد الظلام، يتشاركان في تحضير الطعام، يرتادان المطاعم، يخططان لمستقبلهما دون أية حماسة، إنما بدافع واجب الحياة المشتركة، يزوران بعض أصدقائه، يحضران أفلاماً سينمائية ويتناقشان بها، إنما كل هذه الممارسات الحياتية لم يكن فيها حياة، بقيا عزلتين متقابلتين، وكانا في آخر يومهما يحتسيان المرارة الفائضة من روحيهما، ورغم نفورها الشديد من استئناف علاقتهما الجنسية، إلا أنها كانت تترقب مبادرته كل يوم، وكان تأخره عن هذه المبادرة يشعرها بالمهانة كأنه يسدّد طعنة في صميم كرامتها وأنوثتها. هو كان غائباً عن هذا الموضوع كلياً، كان يئن متوجعاً بصمت متحملاً ألم تخلي حبيبته عنه، باذلاً جهداً خارقاً لإخفاء ألمه وليمثل أنه معافى عاطفياً، كان يعنّف نفسه كونه لم يقرب زوجته بعد، لكنه كان يعرف أن كياناً كاملاً يتداعى في أعماقه، كلما ألحّ على نفسه بواجب، استئناف التزامه الزوجي، بدا له الجنس – هو المنهار نفسياً – فعلاً خارقاً يتطلّب جهداً لا يقدر عليه، وظل الصمت والتجاهل هما الملجأين الضروريين لهما ليتجنبا تعرية نفسيهما من خلال عيونهما الفاضحة، كان يشعر أنه تحوّل إلى إحدى الرخويات، مرّ شهر وهو يحس أنه كائن لاجنسي، مجرد هلام.

مرّ شهر وهما يمارسان طقوس الحياة اليومية، ثم ينفصلان ليلاً، هي تنام في غرفة النوم، وهو في الصالون، أخذ هذا الوضع يضغط

على أعصابهما، فهما يحتاجان لهزّة قوية تدفعهما الواحد صوب الآخر، ورغم أن هذه الحالة غدت ضاغطة وغير محتملة، لكنها قررت ألا تبادر أبداً وهو كان يشعر أنه غدا عنيناً، إنه يعاملها برقة بالغة لكنه يتمنى لو تنسى أنه رجل، ثمة عائق نفسي كبير يمنعه من احتضان امرأة، كان يقرأ توترها، ويفهم محاولاتها لإخفاء استيائها، ويتألم كونها تعتقد أنها تفلح في إخفاء حقيقة مشاعرها عنه، كان يشعر أنه ميت، لكنه شعر أنه يجب أن يقسر نفسه على فعل ما يجب فعله، اتخذ قراره أن يعاشرها، تناول سراً مقوياً جنسياً وفيتامينات منشطة، تظاهر بمرح زائف أتقنه لدرجة صدقته، أو أرادت أن تصدقه، دعاها للعشاء في مطعم رومانسي، تدفق الكلام من شفتيه بمساعدة النبيذ والمقويات الجنسية، لاحظ الرضا يرشح من قسماتها، لعلّها صدقته بأنه يقدّرها ويحبها ويريد أن يقضي عمره كله معها.. لم تمانع في تلك الليلة أن يضمهما سرير واحد، كانا قد نفّذا التزامهما تجاه بعضهما، كأن كل واحد أوفى دينه للآخر، وصار بريء الذمة تجاهه، غرق هو في النوم، ربما من الإرهاق النفسي الذي سبق تحضيره لهذا الدور، أما هي فكانت تشعر أن العدم يبتلعها، وتحس بمرارة ودنس شديدين، ظلت تبحلق بوجهه طويلاً وهو نائم وتدرك كم هو غريب وبعيد، وكيف أن هذين الجسدين اللذين تداخلا للحظات ومثلا النشوة، لم يفلحا إطلاقاً في إيقاظ نسمة عاطفة في الأعماق، قامت لتغتسل بهدف طرد رائحته من جسدها، لم تنتبه كيف كانت تدعك جلدها بعصبية بليغة الحمام، كانت تحدث نفسها كاظمة غيظها المتزايد: هذا هو الزواج، إنه دنس وعهر.

• • •

ما أشبه الرجال بذكور النحل، هذا ما قالته لنفسها وهي تتحسس بحنان نبض الحياة في بطنها، ليس هناك أسعد ولا أكثر توازناً من امرأة

حامل، هذا الجنين الذي ينمو في رحمها يعيد تشكيل روحها التي عفّرتها الأحزان، ولوثتها الخيانة بدنس ظل يرافقها كغثيان لا تعرف كيف تعالجه، إنها تشارك الكون في سمفونية الخلق الخالدة، تحس بنبض مختلف في أحشائها، إنه ابنها الذي يتشكل من وهج روحها، ويتشرب نسغها، وينمو في جنان حبها، كانت تفكّر بطفلها كأنه يعنيها وحدها، ظل زوجها مهمشاً وبعيداً، ظل من لحم ودم، ولم تخرج علاقتها معه من إطار الالتزام الزوجي، وفي كل مرة كانت تشعر أنها تهبه جسداً ميتاً، أما روحها فكانت تشرد في فضاءات بعيدة لا تزال مبهمة، ثم تغرق في نوم ثقيل مغيّبة هذا الرجل من أحاسيسها وأفكارها، إنه لا يشاركها فرحة انتظار الطفل.

إنه طفلها الذي يعيد لها الفرح الخام، الذي نسيته، غابت كل الوجوه، وما عادت توجعها الذكريات، طفلها سيكون رجلها الحقيقي الوحيد، خرجت من عيادة طبيبة النسائية تلجم خطواتها المتقافزة سعادة، إنها تريد أن تشتري كل الألعاب، وألبسة الأطفال، داهمتها حمى الشراء لدرجة أنها اشترت فرشاة أسنان للأطفال، لها شكل تمساح صغير، ولأول مرة تغسلها دموعها، يكون لها فعل شافٍ، جلست على مقعد خشبي في حديقة قرب منزلها، كوّمت الأغراض في حضنها وبكت بغزارة لم تعرفها من قبل، لكن دموعها الآن مختلفة فهي لم تعد منكسرة ومهزومة، دموعها هي السائل السحري الذي ينزلق على جروح روحها فيشفيها، ويلحم تصدعاتها، إنها تبكي لأنها تعي بكل حواسها ذلك النسغ الجديد الذي يرتشح في ملامحها فيبدلها تماماً، رغم أن ملامحها تظل نفسها، إنها أم، تحس أنها راسخة كالأرض ومطلقة كالسماء، إنها تعبد هذا المخلّص الصغير الذي ينمو في أحشائها وستكون له أماً رائعة، لن يعرف حبها له فتوراً ولا خيانة ولا جفاء.

لاحظت أنها غدت أكثر لطفاً مع زوجها، لكنها لم تستطيع أن تحبه أبداً، شيء بينهما فسد وتعذّر إصلاحه، حين ينكشف الرجل والمرأة على بعضهما تماماً تفسد العلاقة بينهما، لقد فضحا نفسيهما أمام بعضهما، العلاقة بين المرأة والرجل يجب أن تتستر إلى حد كبير بالغموض والكذب كي تستمر، الوضوح الناصع لدرجة تعريه كل الأسرار يفقدها زخم الاستمرار كان يمكن أن ينجحا بعلاقتهما لو لم تكتشف علاقته بالفرنسية، لو لم تضطره الظروف للاعتراف بكل شيء. لكن للأسف ما عاد بإمكان أي منهما أن يصدّق الآخر، كل منهما يقف على ضفة لا صلة لها مع شريكه، عسى الطفل المنتظر يقربهما من بعضهما ياه كم تتشوق لاحتضان هذا المخلّص الصغير، الذي يفكّها قطعة قطعة ويعيد تركيبها من جديد مضمخة بحبه.

عادت تراسل أهلها بعد انقطاع طويل، ونبشت عن عناوين أصدقائها وصديقاتها، وأخذت تمطرهم برسائل عذبة تتضح بالشوق وتشع بالأمل، إنها بحاجة لتفريغ حمولة روحها من الشوق والحب، إنها تشع حباً للكون كله، حتى الحيوانات، والحشرات الصغيرة التي تراها في الحدائق ترأف بها وتشملها بعطفها، ولا تهرسها بيدها أو بنعل حذائها كما كانت تفعل إنها أم الدنيا كلها، فلتدع الحيوانات المسكينة تعيش مستقبلها.

أحضرت ذات يوم قطة عرجاء صغيرة إلى بيتها شفقة عليها، وكادت تحتفظ بها لولا زوجها الذي حذّرها من الأمراض التي يمكن أن تنقلها القطط، لم تكف الرسائل ونوب الحنان الجارف لكل ما حاولها للتخفيف من احتقانات روحها بالحب، ليس لها من معين سوى الكتابة، أخذت تتدفق حبراً على الصفحات البيضاء، دون أن تكلّف نفسها أبداً بمراجعة ما تكتبه، لم يخطر لها يوماً أنها سترجع إلى هذا الدرج تتبشه،

مذهولة بما كتبته، هل كان الوحي يملي عليها أم هو صغير كان يوشوش في أذنها هذا الشعر الرائع، أم أن إلهاماً، ربانياً كان يخصّها بنعمته.

• • •

لا تتحقق شخصية المرأة تماماً إن لم تصبح أماً، تكتشف تلك المشاعر الجديدة الراسخة التي تشعرها أنها تستطيع احتواء الكون كله في صدرها، نسيت آلام الولادة لحظة وضعوا الصغير بين ذراعيها، للحال انفجر خزان حب هائل في صدرها وانسكب على الوليد، ما أجمله وما أصغره، لفّوه بشرشف أبيض، ووضعوا على رأسه قبعة قطنية رقيقة، بدا وجهه قرصاً أحمر تحفره عينان واسعتان شديدتا السواد، وقد غاب بياضهما، كان يحدق في النور مبهوراً من أول نظرة يطل بها على الدنيا، دمعت عيناها من الوجد، من أين ينبع كل هذا الحب للصغير؟ أهذه هي الأمومة؟ لو يتدفق هذا الحب من صدر الأمهات ألا ينتفي الشر من العالم؟ حين ألقمته صدرها لأول مرة شعرت أنه يلتهمها بشراهة كأنه يقول لها: أنت حياتي، من غير حنان حليبك أموت. كانت تمسح براحة يدها حبيبات العرق الصغيرة المتفصدة من فروة رأسه، وتلامس بحنان يوافيخه الطرية، ما أروعه، إنها تتشكل معه وبواسطته امرأة معطاءة، سخية العواطف أنساها حب الصغير كل الإساءات، واستطاع الحب وحده أن يجعلها تفهم وتدرك ما يعجز عنه العقل، العقل دوماً محدود يستند إلى معطيات وفرضيات، ليتوصل بعدها لاستنتاجات، أما القلب فقادر أن يعطيها انقشاعات مفاجئة تجعلها تقفز بدرجات كبيرة فوق حدود العقل. كانت تحمله بعد كل رضعة وتربت على ظهره برفق ليتجشأ، وكانت تطيل تأمله وهو نائم تصغي لحفيف أنفاسه الخافتة وتستسمحه لأنها عفّرت روحها وجسدها في دنس الخطيئة والشهوة، ولم تحفظ له طهارتها كاملة. إنها تعترف له بذنوبها، واحتقارها لنفسها

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وترجوه أن يسامحها، هو الكائن الوحيد الذي يهمها أن يحترمها ويحبها إنها تقدسه وتقدس كل ما هو جميل وطاهر من خلاله، كانت تشعر أن هذا الصغير يقرؤها بطريقة ما، ويحس عذابات ضميرها، لكنه سيغفر لها بالتأكيد، لأنهما واحد، كانت تؤمن أن حبها له قادر وحده أن يشفيها.

الزوج كان غائباً من احتفال حبها، إنه الوسيط في عملية الخلق، ذكر النحل الذي يموت بعد إلقاح الملكة، صحيح أنها غدت أكثر رقة ولطفاً مع زوجها، حتى اعتقد أنها بدأت تحبه، لكنها لا تستطيع أن تخدع نفسها، فهي لا تحبه، أكبر دليل أنها تمثل اللطف، والتمثيل يفضح زيف المشاعر، هو أيضاً يبدو أنه تعافى من خيبة حبه مع الفرنسية، في الحقيقة وجدا في الصغير هدفاً لحياتهما، وسعادة جديدة واعدة باستقرار حقيقي، ويلوح لهما بأنهما قد يتحابا من خلاله، لكنها ظلّت تغيّب زوجها كرجل وإنسان، إنه يعيش في الضواحي القصية من حياتها، إنه ديكور حياتها، لكنه لا يقترب أبداً من العصب الأساسي لوجودها، فهي والطفل مترابطان بحبل سري أبدي، تركت عملها في الصيدلية وتفرغت لوحيدها، كانت تلتقط له الصور في كل حركة يقوم بها،حتى تعبها معه بدا رائعاً وذا قيمة ولا يضيع هباءً، تعباً يترك نكهة العسل في حلقها، أنستها الأمومة المتدفقة كونها أنثى، لم يعد للجنس أي إغراء لديها، نسيته كأنها لم تتورط في لهيب عواطفه فيما مضى، اكتشفت في روحها ميلاً للعفّة ولم تعد تستسيغ على الإطلاق أن تتعرى بين ذراعي الرجل الذي يسمى زوجها، إنها لا تشعر بأي ميل نحوه، ولا نحو جنس الرجال، تساءلت: كيف يمكن لامرأة يمتلئ نهداها بالحليب أن ترغب برجل؟ في سرها تمنّت لو يجد زوجها عشيقات عابرات لترتاح من إلحاح غريزته، التي صار يمارسها بصفة أقوى الآن، كونه أبا الطفل الذي تعبده، إنها تسمح له أن يقربها بين وقت وآخر إرضاء للصغير كأنها تهمس

لوحيدها: لأنه أبوك فقط أسمح له أن يلمسني، أتقدّر حبي لك يا حبيبي الوحيد؟

البسمة الأولى كانت لها، فتحت عينيها ذات صباح لتراه يحدّق بها بعينيه الداكنتين المندهشتين أبداً، أضاءت روحها بابتسامته، أحست أنها تشع وتتألق كقمر في سماء داكنة وأسرعت إلى الكاميرا تلتقط له العديد من الصور، كانت تسجل في دفتر خاص سمّته دفتر حبيب على اسم صغيرها مراحل تطوره، وتحولت رسائلها للأهل والأصدقاء لوصف للصغير، لحركاته ونموّه، وكيف أنه يملأ دنياها، كانت تشارك حبيب دهشته في اكتشاف الحركة والألوان، وفي الزقزقة فرحاً بألعابه، وفي انشداهه بالموسيقى التي تستقطب اهتمامه كلياً، ملأت صوره جدران بيتها الصغير، صورته يبتسم وقد ظهر له سنّان صغيران، صوراً يبكي وأخرى يمسك مكعباً بلاستيكياً أحمر، وصورته في حوض الاستحمام الخاص به. وحتى بداية حزيران.

– كان عمر حبيب ستة أشهر – كانت تحس أن أيامها مأدبة فرح دائمة، انهمكت بشراء الهدايا للأهل والأصدقاء اللذين ستلقاهم مع طفلها الذي كانت تحدثه عن كل فرد من أفراد عائلته، متعرضة لسخرية زوجها الذي يذكرها أن الصغير لا يفهم كلمة مما تقوله، فترد: بل يفهم بطريقة ما، لا أعرف ما هي.

أين تتربص بنا المصائب؟ في أية زاوية من زوايا حياتنا تختبئ؟ هل هناك قدر لكل إنسان حقاً؟ ولماذا تأتي المصيبة مدمّرة وفوق طاقة صاحبها على الاحتمال؟ ولماذا تطبق عليه كفخ فيحس أنه بين فكي وحش؟ ما غاية المصائب؟ يقولون المصيبة التي لا تقضي عليك فإنها تقربك من الكمال؟ هذا يعني أن هناك احتمالاً أن تقضي عليك، وهو الاحتمال الغالب عادة، طافت بذهنها هذه التساؤلات الضبابية وهي تحمل

صغيرها إلى المستشفى إثر إصابته بترفع حروري شديد ودخوله في غيبوبة، كانت تعد حقائب السفر حين انتبهت أنه قد فات ساعة على موعد استيقاظه، نادته بحنان: حبيب، حبيب، اقتربت من سريره، فهالها تعبير الغياب على محياه، كانت عيناه نصف مغمضتين وقد لاح هلال من البياض من خلال أهدابه الكثيفة، وشفتاه منفرجتان عن آه خرساء، ووجنتاه تتوهجان بحمرة الحمى، جست جبينه، فسرت قشعريرة رعب في جسدها: إنه ملتهب بالحمى، حاولت إيقاظه، لكنه كان قد قطع أشواطاً من الغيبوبة، اتصلت بزوجها، لا تعرف ما الكلمات التي تلفظت بها، ولا كيف انطلقوا في سيارة إسعاف المستشفى، وفي غرفة الإسعاف أخذوه منها، جردوه من ملابسه، جسوا يوافيخه، وثنوا رقبته المتصلبة نحو صدره، ثم فحصوا منعكساته بمطرقة صغيرة، ثم ثنوه كما لو ينوون إعادته جنيناً إلى بطن أمه، عقّموا أسفل ظهره باليود والكحول، وغرسوا إبرة طويلة في ظهره، صرخت: ما هذا؟ لماذا يعذبونه. أخرجوها عنوة خارج الغرفة، كانت تشعر أن أنفاقاً من الظلال تفغر فاها لتبتلعها، كما لو أنها دخلت فجأة غابة الوحوش، أين أنا؟ أين هو؟ ما الذي حصل له، البارحة كنت ألعب معه وهو يصفق بيديه سعيداً، مقرباً دمية، مبعداً أخرى، مطلقاً أصواتاً لا يفهمها أحد سواي، كان سعيداً لأننا سنسافر، حدثته عن الطائرة، قلت له سوف ترى الغيم قريباً جداً، أشرت إلى الغيوم فلاحقها بنظرة وزقزق فرحاً، وعدته أن أنزهه كل يوم، وبأن نسبح معاً، وعدته أن أتركه يلهو بالرمل، وأننا سنشيد قلاعاً بيوتاً وأبراجاً، أنا مستعدة أن أقسم أنه يفهم كل كلمة أقولها، ما الذي جرى له، ماذا أصابه؟

أتاها الجواب بشكل ورقة أنيقة يفردها الطبيب على مكتبه ويقول بصوت محايد: إنه مصاب بشكل صاعق من التهاب السحايا... كررت

قول الطبيب بآلية وسألت: لماذا؟

ابتسم الطبيب قائلاً: أتقصدين من أين أتاه المرض!

قال الطبيب بلطف بالغ: هذه الأسئلة الفلسفية يطرحها الإنسان أمام الخالق وليس أمام الطبيب. لكنني للأسف لا أستطيع أن أقول لك لماذا أصيب بالتهاب السحايا، إنها عدوى أتته من جهة ما، للأسف الإصابة خطيرة، والجرثوم فتاك..

سألته: أين هو؟

قال: يؤسفني أن أخبرك أنه في غرفة العناية المشددة، فهو يحتاج لرئة اصطناعية بسبب شلل عضلات تنفسه. صرخت غير مصدقة ما تسمع: هل تتكلم عن حبيب؟ عن ابني حبيب؟ أخذت تتلمس رأسها وتعصر راحتيها كأنها تتأكد من المصيبة، لكن، اسمح لي أن أراه، أن أقبله، أن أسمعه يناديني ماما.

قال الطبيب: سترينه إنما من خلال الزجاج، لكن أرجوك حافظي على هدوئك.

سألته ذاهلة: كيف؟ كيف يحافظ الإنسان على هدوئه تجاه هذه الكارثة؟

من خلال الجدار الزجاجي رأته، تحفّ به الأنابيب، وخيمة الأوكسجين كما سمّوها، كان عارياً إلا من حفاضه ورأت جزءاً من فروة رأسه الحليقة وقد غرس في وريد بأعلى جبهته إبرة السيروم، كان صدره الصغير يعلو ويهبط بإيقاع رتيب مرهق، أحسته منهكاً ويتنفس عنوة، ألصقت وجهها بالحاجز الزجاجي وضغطت جبهتها إلى الزجاج كأنها تريد هرس الزجاج أو هرس رأسها، كادت تكسر عظم أنفها، فيما زوجها يقف بجوارها ودموعه تنسكب بصمت، سألته هامسة: أهذا هو حبيب؟ كيف سنتركه هنا وحيداً مستوحشاً؟

قال بصوت متهدج: إنهم يعالجونه.

طلبت منها الممرضة أن يغادرا أصرت أن تبقى، لكن زوجها تأبط ذراعها وقال: هيا تعالي، لا يسمحون لنا بالبقاء هنا.

كانت ممرضة بالغة اللطف تنتظر عند باب الغرفة، دعتها إلى صالون الانتظار وقدّمت لها القهوة، محاولة أن تبث الأمان في روحها المضطربة، وتطمئنها أن صغيرها يتلقى أفضل عناية، كان زوجها في مكتب طبيب الأطفال الذي يشرح له حالة الصغير، تقلّصت معدتها بقوة حين شربت القهوة، وضعت الفنجان جانباً وانفلتت بنشيج أخذ جماع روحها، كانت وحيدة مع ممرضات لطيفات حاولن تهدئتها، والصغير في الضفة الأخرى غائبٌ عن الدنيا تحت رحمة خيمة الأوكسجين والأنابيب التي تثقب جسده البض، ترى أين تهيم روحه؟ ترى ألم يشتق لرائحتها، لصوتها، لقبلاتها؟ لم تعرف كيف يكون عصب كيانها إلا في تلك اللحظات التي أبعدوه عنها رغماً عنها... ياه كيف سيقضي الليل مستوحشاً في تلك الغرفة:

سألت الممرضة: ألن يؤلمه ظهره من الاستلقاء المديد بهذه الطريقة؟

ردت الممرضة وهي تقدم لها قرصاً مهدئاً: لا، إنه ينام على فرشة طرية، عدا عن وجود ممرضة مختصة تقوم بتدليك عضلاته طوال فترة إقامته في العناية المشددة.

سألت: وكم يوماً سيبقى في العناية المشددة؟

قالت الممرضة: حسب الحالة، بعض الأطفال يخرجون بعد أيام، والبعض يقضون أسابيع فيما لو أصيب الدماغ. انقض عليها الذعر سألت وكأنها تدفع بلاء وشيكاً: وهل يمكن أن يصاب الدماغ؟

مسحت الممرضة على خدها بحنان وقالت: لا تخافي، حاولي أن

تهدئي، ستشعرين الآن بالراحة، فهذا القرص الذي ابتلعته مهدئ سريع الامتصاص.

كانت تتلقى اهتماماً زائداً من الممرضات بسبب المودة التي يكنّنها لزوجها، عبرت ذهنها فكرة لم يعد لها أي قيمة: ترى هل تعرف الممرضات علاقة الحب بين زوجها والطبيبة الفرنسية! تنبهت أنه لم يعد من قيمة لأي شيء على الإطلاق سوى أن يعود الصغير إلى حضنها معافى، هي ذاتها لا معنى لها دون أن تتوجه بكيانها كله إلى حبيبها الوحيد، إلى رجلها الحقيقي الذي ستخلص له إلى الأبد، بدا كل شيء خارجه ضباباً، عالماً ناقصاً بارداً لا يتمخض عن غاية، هذا الصغير هو الذي يهب دنياها المعنى والفرح والغاية، إنها لا تتحقق إلا به فكيف عساها تتحمل تلك الكارثة.

ألغي حجز الطائرة، واختنقت الهدايا في الحقائب، كانت تحدثه دوماً: لن نطير يا حبيب إلى الوطن والأهل، سنظل مرميين في بلاد الغربة، نستجدي جراثيم لا نراها كي تترك جسدك ولا تتلف دماغك من أين غزتك تلك الجراثيم الفتاكة يا حبيب؟ هل ينفع لو أقول ليتها أصابتني، ولم تصبك؟ وها أنت تدخل يومك الرابع في العناية المشددة التي أسميها العناية الإلهية، ولا يبدو أنك تتحسن، الأطباء الأنيقون الذين يتحدثون بصوت هامس رقيق إنما لا يحمل أي أمل لقلب أم نخرها الحب. أسألهم: ما النتيجة يقولون: الصبر، الانتظار. اجتمع عدة أطباء لمناقشة حالتك يا حبيب، نشروا صور دماغك على لوحة ضوئية، رأيت صور دماغك مقطعاً مقطعاً، قالوا بأن هناك تخرباً، وبأن البطينات متوسعة تمنيت لو أحطم اللوحة يا حبيب، وهم يشيرون بعصا معدنية صغيرة إلى مكان تخرب في دماغك وددت لو أقول لهم: اسكتوا أنتم لا تعرفونه، اسألوني أنا عنه، ولا تصدقوا الأجهزة الصماء أنا أتغلغل في

مسامه وفي تلافيف دماغه أكثر من الأشعة، اسألوا قلب الأم، ولا تصدقوا الأجهزة البلهاء، لكنهم لا يلتفتون إلي يا حبيب إلا ليشملوني بنظرة عطف، أنظر إلى نفسي في المرآة يا صغيري، لا أصدق أن هذه صورتي، صرت شبح امرأة، تغضن وجهي وغارت عيناي وتقلص فمي، الحزن يشوّه يا حبيب، خاصة إذا كان حزناً طافحاً من قلب أم، لا شيء في الدنيا يعادل قلب الأم ويتسع مثله يا حبيب، حاولت أن أسجل مرضك في دفترك يا حبيب، دفترك الذي سجلت فيه نموك يوماً بعد يوم، آه يا حبيب، لا أستطيع أن أسجل مرضك، ولا كلام الأطباء سجلت تاريخ دخولك المشفى وكتبت قربه (انكسار) لا أستطيع أن أصفك من خلال الزجاج، والأنابيب التي تثقب جسدك، يقولون لا تخافي، هذا أنبوب المعدة لتغذيته، أنبوب شفاف يدخل من أنفك، يلصقونه بورق لاصق. ويدخلون عبره الغذاء، أي سخف هذا! ألا تحلم يا حبيب بوجبة سميد بحليب، أكلتك المفضّلة، وبعصير التفاح بعده، ماذا عساك تفكر يا صغيري وأنت نائم منذ خمسة أيام، ببيجامتك الوردية مضمخة برائحتك، تنتشي روحي حين أتنشق ثيابك يا حبيب، جرس التلفون يصلصل دوماً يريدون الاطمئنان عنك، أجيبهم كالبلهاء، علينا بالانتظار والصبر – كما يقول الأطباء – ألبسوني رداءً أخضر معقماً، وقناعاً كتيماً على أنفي، وسمحوا لي باختراق حاجز الزجاج والاقتراب منك، يبدو أنهم يمسحون جسدك بصابون معطر، ورغم أنني وعدتهم ألا ألمسك، إلا أنني نزعت القناع بطرفة عين، وانهلت على قدميك تقبيلاً، كنت أعوي من الألم، وأحشائي تصدر قرقعة كأنها تتقطع، أجل يا حبيب، الألم الشديد يمزق الأحشاء، خيّل إليّ أنك تململت وفتحت عينيك، آه يا حبيب، اشتقت لعينيك، سألتهم ما هذا المرهم الذي يغطي فتحة أجفانك ويلتصق بأهدابك؟ قالوا إنهم يعصرون مرهماً معقماً في عينيك كي لا تجفا

بملامسة الهواء، سمعت أحد الأطباء يقول بأنك قد تغدو مشلولاً أو أبْلَهَ أو أعمى... وددت لو أصفعه، لكني وجدت نفسي أستعطفه بابتسامة كي يغيّر أقواله، لكنه لم يفعل.

حوارها مع الصغير ما كان يتوقف حتى في نومها، لأول مرة صارت تقصد الكنيسة، تشعل شموعاً وتركع تحت الأيقونات لتتحول إلى صلاة، في الحقيقة كانت هي ذاتها صلاة، إنها تقدم ذاتها لله وتبتهل قائلة: افعل بي ما تشاء، لكن ليعد الصغير كما كان. وصار ترددها لاسم الله يسبق أي كلام تقوله، كانت تطيل السجود أمام أيقونة العذراء تغمض عينيها وتسكب دموعها وتتمتم، حتى تغيب الكلمات وتصبح صلاتها أكثر عمقاً لدرجة تضعف قيمة الكلمات إلى أن تتوقف كلياً، وتظل روحها تردد إلى ما لا نهاية: يا الله، يا الله، يا الله.

كانت تشعر في لحظات خاطفة، كيف ينسكب فوقها حنان آسر له صفة الشفاء، فتنسى جرحها ويأتيها يقين بأنها ستخرج من الكنيسة إلى المشفى لتجده، وقد تعافى تماماً، وحالما يراها سيلقي بجسده في حضنها، كانت تخرج من الكنيسة لاهثة من الانفعال، وتقصد المشفى باحثة في الوجوه عن علامات تفاؤل، لكنها سرعان ما تنطفئ أمام نظرات الشفقة التي تحاول الممرضات تغليفها بالمودة والأمل الزائفين، وسرعان ما تعود أحزانها للتغلغل في روحها كما تتغلغل نقطة الحبر في ورق النشاف.

• • •

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ما كتبته نازك

بعد وفاة صغيرها

أنت لم تمت، أنا التي تشبع موتاً كل لحظة، لم يروك حياً ولا ميتاً يا طفلي الحبيب، يعرفونك من صورك فقط التي تزين جدران صالوناتهم، لن تتلقى الهدايا التي أعدوها لك، ولن تتمكن أن تناديهم تاتا، جدو... لكن لماذا خرّبت تلك الجراثيم اللعينة دماغك؟ وأنت لم تستطع المقاومة؟ أتذكّر كم أنك رقيقٌ ومسالم لدرجة لا تقاوم فيض قبلاتي التي تستهدف خدودك الطرية. سحبوا الأنابيب الداخلة والخارجة منك، سحبوا المفجّر من رأسك وسلموك لأمك جثة، أنت لا تعرف ماذا يعني أن تحمل أم جثة طفلها، أتعرف وددت لو أشق صدري بضربة سكين وأرمي رئتي الإسفنج خارجاً، والقلب المنخور بالحب، وأسكنك سجن أضلاعي لنتعفن معاً، ونورق معاً، ونزهر معاً، شجرة حب خالدة بين أم وطفلها، تذكرت الحبل السري، رأيتهم كيف قطعوه، وكيف لقطوا طرفه قرب سرتك بملقط، أتعرف لحظتها غمزتك، قلت لك وأنا أسمع صراخك الأول: لا تزعل هذا مجرد حبل ليفي، الحبل السري بيننا أوسع من الدنيا كلها، فلا تعتقد أنك انفصلت عن أمك، فهمت رسالتي لأنك سكتت فوراً، وضعوك قليلاً على بطني معتقدين أنهم بذلك يدخلون الطمأنينة إلى روحك المفصولة عن الحب الكوني، أجل يا حبيب داخل صدري يكمن الحب الكوني، وفي رحمي يتكون الخلق، أنا أبدعتك يا حبيب، وسرى نسغ واحد في جسدينا.

حبيب أنت ميت يا طفلي لأنهم يجمعون على ذلك، ألبستك

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الممرضة الشاب ذاتها التي دخلت بها المستشفى، لاحظت الكدمات على ظاهر يديك، قالوا بأن أوردتك صارت تعذبهم لأنها رقيقة جداً، فيضطرون لغرز الإبر فيها مراراً، وذلك الجانب الحليق من فروة رأسك مرضوض أيضاً، ثمة جرح عميق فيه مكان المفجّر، هذه هي عنايتهم الطبية يا حبيب، ثقبوا جسدك ولم يفلحوا في طرد كائنات مجهرية من دمك، أنا أيضاً زرقوني إبرة مهدئة يا حبيب وأخذوني في نزهة إلى غابة ساحرة، وفي حفرة صغيرة أنزلوا التابوت الأبيض الذي تغفو فيه، تحفّ بك سرب من أحلام الطفولة، شاهدت أحلامك يا حبيب، كنت تحلم بوجبة سميد مع الحليب، وتنفخ عليها لتبرد ثم تشرب بعدها الكثير من الماء وأنت تقول أح، أح، أح كنت أذكّرك أن تقول أح فيما لو نسيت، أقرفص بجانبك وأقول لك أح، أح، إلى أن تتذكر فنبدأ معاً نقول أح، ما ألذ أن نرتوي بعد العطش يا حبيب، لكن عطش الروح لا يرويه الماء! آه يا حبيب مجرد نقطة نقلتني من ضفة إلى ضفة، ضع نقطة على الحاء تصير أخ، تلوّيت قرب نعشك كدجاجة مذبوحة وأنا أقول آخ، آخ، وأنت تردد أح، أح، يا ماما، يا ماما، آه، لن أسمع هذه الكلمة بعد، فالماما ماتت مع ابنها. كنت أحلم بمجرد شفرة أقطع بها شراييني أسقي التربة التي تضم نعشك بدمي وأموت، فضاءات الحزن رهيبة يا حبيب، لو تعرف كيف تتفتح من كل صوب لتبتلعني، حبيب أسألك وحدك يا صغيري: ما الحكمة في أن تموت؟! أعطاني الطبيب النفساني كتاباً عنوانه (الشر والعالم) لأقرأه.. أعتقد أنني سأقتنع بفكرة موتك، المؤلف الأبله الحاصل على عدة شهادات عالية، يربط الشر الكوني والمرض واحد منه، باضطرابات الكواكب، صدقني قرأت الكتاب بتركيز رغم فجيعتي ثم رميته في القمامة، وأنا أنظر في صورتك تحدق بي، وعيناك ترسلان إلي شعاع حب، لم أجرؤ أن أسمع صوتك مسجلاً، مفرداتك

القليلة: ماما، بابا، كوكو، أح، ضو، ما أجملك وأنت تلفظ كلمة ضو، كنت تزم شفتيك أولاً ثم تمطّهما للأمام وبعدها تنجح في لفظ ضو، يبدو أن الواو حرف صعب على صغير مثلك، قل لي يا حبيبي، ما الحكمة أن تغيب هكذا فجأة؟! أسمعهم كيف يعزونني، البلهاء لا يعرفون أن لا تعزية لقلب الأم، ذكروا لي عشرات الحالات، بل مئات عن أطفال ماتوا، ويموتون كل يوم، حكوا عن الزلازل، التي تبتلع مدارس وقرى، وعن الفيضانات والمجاعات والحروب، ياه يا للإنجازات الحضارة المشرّفة يا حبيب!!

هناك في الضفة الأخرى من العالم، كانوا يستعدون ليعمدوك باسم الآب والابن والروح القدس، وكنا سنقيم حفلاً بعد المعمودية، ونوزع علباً فضية مملوءة بالسكاكر، أتريد أن تكون مسيحياً يا حبيب؟

يجب أن ترث دين والديك، حبيب هل تعرف، كان يمكن أن تكون ابن رجل آخر، رجل أحببته حتى العبادة، وتمنيت لو تنبت بذرته هو في رحمي، لكن... آه يا حبيب، لن تفهمني، لن تفهم أن الماما منافقة وجبانة، أم أنك فهمت لذلك آثرت الموت. والدك أيضاً جبان ومنافق، كلانا ضعيف الشخصية، لبسنا ما فصّلوه لنا، ومرّغنا كرامتنا الشخصية في الوحل، لذلك آثرت تركنا يا حبيب، أليس كذلك يا طفلي؟ لكن أنت شفيتني من عفن الماضي، وأعدت احترامي لذاتي، حبي لك خلقني من جديد، فلماذا تغادر محوّلاً إياي لجرح، ستظل شفتاه مفتوحتين إلى الأبد.. سأجلس قرب قبرك أعفّر نفسي بالتراب حتى أموت، يبدو أنني جبانة لا أملك شجاعة الانتحار.

كسرت جهاز الهاتف حين اتصلوا بي لي ليقولوا: احملي مجدداً وستعوضين بطفل ينسيك طفلك الذي مات. السفلة لا يعرفون أنني حملت من رجل أحتقره، لا يجمعني به سوى الغش، لذلك آثرت أنت النقي

كالضوء أن تغادرنا، سأحكي لهم كل شيء يا حبيب، الألم يحرر من الخوف، ومن مراعاة كل ما يطلبون مراعاته، سأطلق والدك، وسأبوح لهم بصوت جهوري أنني لست سوى محصلة آثام أفكارهم وبأنني كنت على علاقة مع شاب مسلم رائع، لا أزال أحبه، وبأنني أجريت عملية إعادة العذرية، أترى عفن والديك يا حبيب؟ أين تهيم روحك الآن، هل تراني يا حبيب؟ هل أنت ذلك العصفور الصغير الذي يحطّ أحياناً على النافذة، نافذة غرفتي في قسم الأمراض العصبية، إنهم يبذلون ما بوسعهم لشفائي من الانهيار العصبي الحاد، أنا لا أحترمهم لأنهم يتعاملون مع آلامي كما يتعاملون مع دمّلة لم يحن وقت شقها وتفريغها من القيح، أصرخ وأقول ألمي عليك معجون بكياني كله، وليس دمّلة سيلفظها جسدي. ألمي عليك يأخذ شكل كرات صغيرة حمراء متراصة، إنه دمي، دمي هو ألمي، وألمي هو دمي، كتبت هذه العبارة على الأوراق التي تحملها الممرضة وتسجل عليها حالتي العامة، بعد يومين زارني الطبيب ونصحني أن أكتب قائلاً إن الكتابة أفضل من كل الأدوية التي يعطونني إياها. قلت له وأنا أستحم بدموعي بأن في داخلي تمزقاً يتعذر إصلاحه يعود إلى ما قبل ولادتك بكثير.

الموت يا حبيب هو تحقيق للحب العظيم، الآن أتفرج على بركان الحب الملتهب يفور في صدري كم أنت بداخلي يا حبيب أكثر من كل الأحياء، سأكتب آثامي كلها لأتطهر، لأصير لائقة باحتضانك حين تجمعني بك هوّة الموت، لنصعد منها إلى أبدية الحب.

• • •

موعد مع الكبار

كان سائق كاتب البلاد بانتظاري، طالعني وجهه الجهم، تبادلنا نظرة انتهت بابتسامة قصيرة بمشقة، سألني عن حقيبتي، فقلت له إنني جئت بلا أثقال، كانت يداي تضغطان بثقة وحنان معاً على روايتي – كنزي – وأنا أكلم الشاب المتجهم، وكانت عيناه وحاجباه المقطبان أبداً وجانباً من جبهته تبدو في المرآة الأمامية للسيارة. أدهشتني الصلابة في نظرته، هممت أن أسأله لماذا هو متجهم دوماً، ففي كل المرات التي التقيته فيها كان تجهمه هو الذي يتقدمه، لكنني عدلت عن سؤالي حين تذكرت أنني بعد قليل سأكون بحضور الكبار، أهم ناشر، والكاتب الأكثر شهرة، أحسست بالتعالي على السائق المتجهم، لعله يحس بالغيرة كونه أدنى من الكبار، لكن سرعان ما باغتني شعور بأن سروري الأقرب للغرور كوني أعرف رجالاً مشهورين يدل على أنني إنسانة ضئيلة القيمة، ورغم أنني حاولت محو هذه الفكرة إلا أنها نجحت في تعكيري تماماً، فآمنت بصدقها. أخذ قلبي يطرق بقوة وأنا أحس أنني بعد دقائق سأضع روايتي بين يدي الناشر، كنت مصممة أن أنتزع ثقته، وأن أحاول قدر استطاعتي أن ألفت نظره لعمق ثقافتي ولأفكاري الذكية والجريئة، ولرؤيتي العميقة للحياة. أحسست بجوع كعادتي في كل انفعالاتي، ندمت كوني لم أتناول طعام الإفطار قبل سفري، بحثت في حقيبة يدي عن قطعة سكاكر، فوجدت قطعة من الشوكولا المحشوة بالبندق، وبعد أن قشرتها عدلت عن أكلها، فقد تلوث أسناني، وأنا أريد أن تكون صورتي أبهى ما يمكن أمام الناشر، نظرت إلى وجهي في مرآتي الصغيرة، ابتسمت راضية، كنت أرى نفسي بعين الناشر الذي

سيراني جميلة بالتأكيد – كما أحسست –.

أخيراً وصلت إلى مكتب كاتب البلاد، كان عبارة عن شقة مفرطة الأناقة، مملوءة بالتحف من كل أنحاء العالم، لكن كانت الجدران عارية إلا من لوحة كبيرة تمثل الكاتب مرسومة بالألوان الزيتية وهو يبتسم ابتسامة نصر ساخرة أحسسته يقول لي: ها أنا قد غدوت كاتباً مشهوراً رغماً عنك وعن كثيرين.

أحسست أنني أتعرض لأقسى امتحان في حياتي، حين استأذنني السائق ليقرع الباب، ويخبر الكبار أنني وصلت.

كان قد أغلق الباب وراءه، فلم أسمع حوارهم. خرج بعد دقائق بدت لي طويلة جداً، وقال بصوته الجهم دون أن ينظر إلي: تفضلي.

قام كاتب البلاد من وراء مكتبه، وتقدّم نحوي فاتحاً ذراعيه، يمشي متعثراً بسنواته الخمس والسبعين أسعدتني حفاوته الرائعة وزادتني ثقة بنفسي، قبلني كاتب البلاد وهو يقول: أهلاً بالكاتبة البهية قدّمني للناشر الذي كان يتأملني بعينين لطيفتين وابتسامة رسمها على وجهه حال دخولي، بالغت في إظهار السرور وأرسلت عيناي شحنات زائدة من اللطف والتودد للناشر قدّرت أنه يقترب من عقده السادس منتصب القامة، مبالغ في أناقته، وأعطاني انطباع أنه محصّن ضد الوقوع في الدهشة، كنت أعرف أنه جاب العالم، وكان اسمه مرتبطاً بأشهر الكتاب، حتى أنه لقّب بناشر المبدعين، كان يتباهى إضافة لثروته الهائلة، بثقافته، فهو ناقد يحسب له حساب، لكنه يمارس النقد الأدبي بمزاج.

وضعت روايتي في منتصف الطاولة لأسرّع في لفت الأنظار إليها، قال الناشر وهو يمشّط شعره الأجعد الكثيف بأصابع يده، إنها روايتك التي حدثني عنها صديقك طويلاً، يسعدني حقاً أن أطّلع عليها في الواقع قرأت بضعة صفحات منها، تلك التي أعطيتها لصديقنا العظيم.

ضج الكاتب بالضحك قال: بل أنا انتزعتها كيفما اتفق.

قلت بصوت مضمخ بالولاء للكبار: لم يشأ أن يأخذ الرواية كلها.

تابع كاتب البلاد ضحكته المتقطعة وهو يقول: المكتوب يظهر من عنوانه، سحبت فصلاً كيفما اتفق وقلت إنه يدل على مستوى الرواية.

استدرك قائلاً: ثم إنك لم تكوني قد أنجزتها بعد.

قلت: إلى حدٍّ ما، لقد عدّلت في أحد الفصول.

هزّ الناشر رأسه قائلاً: عظيم، عظيم.

نادى الكاتب سائقه المتجهم وأمره أن يعد لنا القهوة، سألنا الشاب بصوتٍ جاف كيف نشربها. وما كدنا نلفظ الجواب حتى سارع لإغلاق الباب وراءه.

سألني الناشر وهو يشعل سيجاراً: منذ متى تكتبين؟

ترددت في الجواب، كنت أحس أنني يجب أن أبحث عن قناع خاص لهذه المناسبة، سألت نفسي هل أقول له إنني مارست الكتابة منذ سنوات طويلة؟ أم أنني لم أبدأ بعد بشكل فعلي، إلا منذ خمس سنوات كما هو الواقع؟ لكني وجدت نفسي أجيب: أكتب بشكل فعلي منذ ست سنوات.

سألني: ماذا تقصدين بشكل فعلي؟

قلت: أعني الكتابة التي تصلح للنشر، من وجهة نظري.

– وهل نشرت بعض كتاباتك؟

– أجل نشرت العديد من القصص القصيرة في مجلات وجرائد محلية.

– ليس لديك عمل مطبوع إذاً؟

– لا، هذه أول رواية جاهزة للنشر.

كان يهز رأسه وهو يتأملني بنظرة لم أفهمها، أحسستها مزيجاً من السخرية والإعجاب في آن.

قال الكاتب ضاحكاً: يا سيدي، نازك طموحة أول رواية تريد أن تطبعها عندك.

امتعضت من تعليق الكاتب، وهممت أن أرد، لكن الناشر قال: لم لا، إن كانت واثقة من كتابتها، فلم لا، أنا أقدّر الطموحين، خاصة إذا كانوا أصحاب مواهب حقيقية.

شكرته من قلبي على رده، قلت له: أتمنى أن تطلع على الرواية، وتعطيني رأيك الذي أنتظره كحكم المحكمة.

ابتسم وهو ينحني لي باحترام قائلاً: أعوذ بالله، لست أنا من يقيمك، بل أنا أتشرف أن أقرأ لسيدة متميزة وجميلة مثلك.

ليس مثل الإطراء يجعل الأعصاب تسترخي، أمكنني أن أضع رجلاً فوق رجل، أدخّن سيجارة قدّمها لي الكاتب وهو يبالغ بالانحناء أمامي لإشعالها.

قال الناشر: في الحقيقة أعجبني أسلوبك جداً، إن نثرك حي، وإحساسك مرهف باختيار الكلمات وقدرتك على التعبير عالية.

أخذ نفساً عميقاً من سيجاره وتابع: كما أن كتابتك تتمتع بصفة رائعة، يتعذّب الكثير من الكتاب لبلوغها وهي التشويق، لا تظني أنني أجاملك، ولا تبالغي بالابتسام يا سيدتي الفاتنة، فأنا أتذوق الكتابة كما يتذوق شارب النبيذ، أنواع النبيذ، أدهشتني قدرتك العالية على خلق جو من التشويق، بصراحة لم أتمكن من ترك أوراقك حتى انتهيت من قراءتها، وأنا بشوق الآن لقراءة الرواية كاملة.

لم تسعني الدنيا من الرضا، أي ترف كبير هذا تدفق عليّ دفعة

واحدة، هذا ما كنت أقوله لنفسي وروحي تتمايل بنشوة داخل جسدي، كانت لذة تلك اللحظات طاغية، بحيث لم تترك لي مجالاً للتفكير والرد على الناشر.

قلت: أقدّم لك روايتي. بكل فخر إذاً، وأتمنى أن يكون لديك الوقت لقراءتها.

قال: بالتأكيد، سأخلق الوقت.

ياه، بطرفة عين، وجدت اسمي يملأ الجرائد، ولم لا، كل الكبار ابتدؤوا صغاراً، ثم كبروا، عوامل كثيرة تساعد الصغير ليكبر، الموهبة وحدها لا تكفي، هناك الحظ، الذي يعني تحديداً أن يتعهدك ناشر متنفذ، أخيراً يبتسم لي الحظ، ويتعهدني أشهر ناشر.

سألني الناشر وهو يقلّب صفحات الرواية: ألم تضعي لها عنواناً؟

قلت: لا، إن اختيار العنوان يربكني.

قال الكاتب: فعلاً، روايتي الأولى، هو من اختار عنوانها.

قلت: ثورة الحب.

قال الكاتب: أجل، يومها أحدث هذا العنوان ضجة، ولفت الأنظار إلى الرواية.

وجدتني أقول، لمجرد إحساسي أنني يجب أن أعلّق: الحب دوماً ثورة.

قال الناشر وقد أسعده أن ينساق الحديث إلى الحب: الحب هو قلب الحياة النابض.

قلت متصنعة انبهاري بتعبيره: فعلاً الحب قلب الحياة النابض، رائع هذا التعبير، هل تسمح لي باستعماله في إحدى شطحاتي الروائية.

لماذا أردت أن ألغي الرسميات بيني وبين الناشر، تنبهت كم يبدو

www.mlazna.com-RAYAHEEN

علي أنني متلهفة لصداقته، وبأنني ما عدت قادرة على الصبر، وأريد أن أجد روايتي مطبوعة بأسرع ما يمكن.

سألني الناشر بعد أن أدخل الشاب المتجهم صينية القهوة: اسمحي لي بسؤال؟

قلت: بكل سرور.

قال: حين حدثني عنك صديقنا الكاتب قال: سأقدم لك كاتبة موهوبة، امرأة حساسة مطلّقة، تخيلت أنني سألتقي بامرأة ودّعت الشباب، لكن لم أتوقع أن تكوني على هذه الدرجة العالية من النضارة والشباب والجمال، فلم لم تكرري تجربة الزواج؟!

قلت وأنا أتذكر كم مرة سئلت هذا السؤال، وكم مرة أجبت الجواب نفسه: لأن الزواج علّمني قيمة الحرية.

قال الناشر: معك حق. هل تعرفين أنني طلّقت مرتين، والزواج مؤسسة فاشلة تخنق الحب.

سألته: ولماذا تستغرب إذاً أن أبقى دون زواج؟

قال: لأنه يبدو لي غريباً ألا يكون هناك رجل ذكي نجح باصطيادك.

قلت وأنا أنتفخ غروراً: ربما لأن إغواء الرجل انحسر تجاه إغواء أقوى.

سأل الناشر باهتمام: إي إغواء تقصدين؟

قلت: الكتابة.

ضحكا معاً، سأل الناشر: وهل الكتابة بديل عن الرجل؟

قلت: في حالتي ربما، صدقاني، لا أحس بإغواء أكبر من إغواء الكتابة، أحسها غريزة، لا أعرف لماذا تتدفق اللغة من قلمي بشهوة

عجيبة، حتى أنني لا أتوقف عن الكتابة لأعرف حقيقة ما أكتب.

سأل الكاتب: حقيقة؟!

قلت: أقصد، تماسكه، معناه، أنا أحس بحاجة عميقة للكتابة، إنها تخلق لي نوعاً من التوازن.

قال الناشر: واضح أنك موهوبة جداً، من الصفحة الأولى التي قرأتها لك، قلت هذه المرأة موهوبة.

قال كاتب البلاد: جمال وشباب وموهبة، إن نازك تجمع المجد من أطرافه.

قلت: وبطانة من الآلام وراء كل ذلك.

قال الناشر: الألم هو محرك الإبداع.

قال الكاتب مقاطعاً: لا تغرقانا في سيرة الألم، الآن سننطلق إلى مطعم ظريف لنحتفل بمناسبة تعارفكما. اجتهدت طيلة وقت الغداء أن ألفت نظر الناشر لعمق ثقافتي، وقراءاتي الكثيرة والمتنوعة، كنت أربت على ظهر روايتي أطمئنها أنها قريباً سترى النور، وستذاع شهرتها في بلاد كثيرة، وربما يكون لها حظ في الترجمة، كل شيء حولي كان مترعاً بالخيال، المطعم الفخم، الخدم الذين يحتارون كيف يرضون الكاتب الشهير الغزل الرقيق من الكهلين المشهورين، موسيقى الستينات الحالمة، التانغو الساحر الذي أحبه، لم أتمالك عن سؤال النادل عن اسم الكاسيت البديع، قال: لا أعرف، لحظة وأحضره لك.

أحضر لي الكاسيت وقد كتب عليه بالإنكليزية: أشهر أغاني الأفلام.

قلت للنادل: أشكرك.

تدخل الكاتب قائلاً: خذيه، إنه لك.

ارتبكنا النادل وأنا قلت: لا داعي يمكنني شراء كاسيت مماثل.

أصر الكاتب: قلت خذيه، وأخرج من جيبه رزمة نقود تعادل – كما قدّرت – راتب النادل عن شهر وقال: إنها لك لقاء الكاسيت الذي أعجب سيدتي الجميلة.

أحسست بتدفق الدم إلى وجهي، وأمام نظرته التي تدل على عزم وعتب، اضطررت أن أشكره بلهجة الولاء والطاعة المفروضتين علي في موقف كهذا، في سري تمنيت لو يهبني هذا المبلغ الذي كنت بأمس الحاجة إليه، لكن سرعان ما زجرت نفسي بقوة وتحقير، إذ كيف يسيل لعابي على مبلغ كهذا وأنا أملك طموحاً أن أكون كاتبة ذات شأن.

كان الخمر قد أشعرنا أن تياراً واحداً يسري فينا، وحين اضطر كاتب البلاد أن يقصد المرحاض وهو بحالة نصف سكر، لاعناً تضخم البروستات، اشتبكت نظرتي مع نظرة الناشر طويلاً، نظرة ملتبسة محملة باضطراب وبذرة شهوة وقلق وتحدٍّ مبطن أيضاً، من أين تولد كل هذا المزيج لا أعرف، حاولت أن أداري ارتباكي بابتسامة، وبدا من الصعب فك اشتباك نظرتنا، أحسسته يسبر عمق أعماقي ويحاول أن يقدّر ثمني، أجل هذا ما أحسسته تماماً، إنه فعلاً يحاول أن يثمنني، لكن هل يثمن كتابي أم جسدي؟ وجدته يمدّ لي بطاقته، ويقول: اسمعي، أنت امرأة رائعة حقاً، أريد أن ألتقيك على انفراد، بعد غد سأسافر إلى بيروت لحضور مؤتمر الناشرين العرب، سيستمر ثلاثة أيام، يسرني أن تقبلي دعوتي، سيكون أمامنا وقت لا بأس به لنتعارف، صدقيني لم يسبق أن أدهشتني سيدة مثلك.

قلت وقد خلخلني كلامه: لكنني سأسافر مساءً و...

قال: أرجوك لا تترددي، إنها فرصة لأعرفك أكثر ولمناقشة طباعة روايتك، أريد أن أتزود منك قبل أن أبدأ جولتي في اثنتي عشرة عاصمة

عربية وأوروبية على التوالي.

قلت متملصة من الموافقة: لكن لو لم تعجبك روايتي؟

قال وهو يرنو إلى وجهي كأنه يشرب من نضارته ويتأملني بافتتان: كيف تقولين هذا؟ أمسك يدي وضغط عليها قائلاً: هذه اليد لا يمكن إلا أن تبدع أدباً رائعاً.

تقلص قلبي ويدي أسيرة يده، لكنني تحاملت على نفسي كي لا أسحب يدي، وقلت لنفسي: احتملي قليلاً ريثما تسير روايتك إلى المطبعة.

أسعفني رجوع كاتب البلاد، مرّ الوقت مع الكبار وأنا أحس أنني مرمية خارج نفسي وبأنني أشبه بمهرج، أبتسم واضحك وأفكر، ومع ذلك أبقى تعيسة حتى النخاع.

حين أوصلني سائق كاتب البلاد إلى المحطة لأسافر، بدا لي تجهم وجهه يصلبني ويقيّمني وأحسست بطريقة مبهمة وملتبسة أنني أحمل عاري على كتفي، كان الثقل الذي أحسه يرزح على ظهري هو بالتأكيد ثقل عاري المرتقب، ألم تكن المعادلة بيني وبين الناشر سافرة: سافري إلى بيروت واقضي برفقتي ثلاثة أيام، أطبع لك الرواية.

لكن ألا يحتمل أن يكون هناك تفسير آخر..؟!

طوال طريق العودة كنت أتحايل على تفكيري بشتى الوسائل لأوجل حكمي على نفسي.

• • •

كنت مصممة أن أسافر إلى بيروت دون أن أسمح له باستغلالي، بمعنى لن أكون عشيقته أبداً. ستجبره موهبتي أن يطبع الرواية، لكني لن أدفع جسدي بالمقابل أبداً. وصلت الفندق الفخم في بيروت عصراً، فندق

مفرط الفخامة، رجال أنيقون يلبسون لباساً موحداً، مؤلفاً من بنطال أسود وجاكيت خضراء بأزرار ذهبية، وقمصان بيضاء بياقة منشاة مع ربطة عنق سوداء، وقبعة أشبه بقبعة شرطي خضراء ذات حواف مذهبة، رجال بكامل أناقتهم وظيفتهم الوقوف لساعات عند الباب الخارجي للفندق لاستقبال النزلاء، فما أن ترجلت من التكسي حاملة حقيبتي حتى هبّ اثنان منهما ليحملا الحقيبة عني، اتجهت إلى موظف الاستقبال أسأله إن كان هناك حجز باسمي، كانت بشاشته جزءاً أساسياً من وظيفته، ظهر اسمي على شاشة الكمبيوتر أمامه، قال: أهلاً بك سيدة نازك، وأعطاني بطاقة بلاستيكية لفتح باب الغرفة. في المصعد المخملي الواسع أحسست أنني أصعد إلى السماء، الجو المعطّر بعطر البنفسج جعلني أدخل بحالة نسيان تدريجي لكل العالم في الخارج، أحسست أنني أسيرة قصر رائع، وبأنني بلحظة أتحوّل إلى أميرة لدي حشَم وخدم، أحسست بخجل من الرجل الطويل الأنيق الذي يحمل حقيبتي، استأذنني ليفتح باب الغرفة بالبطاقة، مرّرها برشاقة في القفل المعدني، ونبهني بلطف كيف يجب استعمالها: يجب أن تكون عمودية، وأن تمرر باتجاه السهم الأخضر، أضاء النور في الغرفة وأشار إلى البرّاد الصغير الذي يحوي كل ما تشتهيه النفس من الحلوى والمشروبات الروحية، كانت غرفة ساحرة حقاً، بستائرها المخملية الخضراء المنشاة، وسريرها المزدوج المغطى بمفرش مخجر رائع من الساتان الأخضر المزهّر، بزهور المرغريت الصفراء والبيضاء، وقفت أمام المرآة الدخانية، أحدّق بوجهي المشرق بسعادة جديدة، أزحت الستائر المخملية الثقيلة، فبدا الأوتستراد يعجّ بالناس يمشون ويقودون السيارات، وكأنهم يذرعون الآفاق بلا جدوى، كم كنت مفصولة عنهم وغير معنية بهم، إنني الآن مشروع كاتبة، سأقفز إلى عالم الشهرة، كما يقفز طفل فوق سور الحديقة الواطئ،

كنت أكرر هذه الحقيقة لنفسي لأصدقها، دخلت الحمام المضيء بالنظافة، نظرت بدهشة إلى صنبور المياه ذي الشكل العجيب، الأشبه بقرن ذي انتفاخين جانبين، حاولت جاهدة تحريك الانتفاخين ليجري الماء، لكن عبثاً، أحسست بخجل كوني أجهل استعمال هذا الصنبور. حاولت جاهدة فك لغز صنبور المياه، وصرت أعالجه بغضب ونزق، إلى أن تدفق الماء بغزارة دون أن أنتبه للحركة التي أدت لتدفقه، حاولت تخفيف تدفق الماء، لكن عبثاً، وخلال برهة كادت المغسلة تطوف، أحسست بفزع وأنا أشعر أن الماء يكاد يغرقني إن لم أهتد لطريقة إغلاق الصنبور.

عكست المرآة وجهي متعكراً بالفزع والغضب وانفلتت الشتائم من بين أسناني المتكززة من الغضب، كانت يدي تعالج الكرة المعدنية السحرية بيأس ملحّ، لدرجة حاولت انتزاعها فتوقف تدفق الماء فجأة. اهتديت أخيراً لحل اللغز، ضغط الكرة للداخل يجعل الماء يتدفق، وجرها إلى الخارج يجعله يتوقف، ضحكت من قلبي وأنا استعيد عراكي مع تكنولوجيا صنابير المياه، كانت الصوابين المعطّرة ملفوفة بورق شفاف من النايلون، ومرتبة بأناقة على جانبي المغسلة في سلّة من القش يبطنها قماش أشبه بالشاش أخضر اللون، لكني كنت قد أحضرت معي صابونتي المفضّلة كامي حمراء اللون، اتصلت لأسأل عن الناشر فأبلغتني عاملة المقسم أنه لم يصل بعد، عقدت الأمر أن أبهره، وألا أسمح له بلمسي، لكن بدت صلابتي في نظر نفسي مهددة، خاصة وأنا اشعر بفخامة الغرفة تحفّ بي لتذكرني أنني ضيفته.

أحسست باسترخاء ونعاس بعد أن أغرقت جسدي بالماء الفاتر، تمددت على السرير الخرافي وأنا أحس بحالة خدر لذيذ، وامتزجت رائحة جلدي المعطّر برائحة العطر المنثور في الأثير، كان بخار النظافة يفوح من السرير، أغمضت عيني إعياء، لكم كنت راغبة بالنوم،

بدا لي النوم هو المتعة التي لا تضاهى في الحياة، وأغواني الاستسلام له لدرجة رغبت برفع سماعة الهاتف والطلب من عاملة المقسم ألا تحوّل لي أية مكالمة، لكني كنت أعرف أنني هنا لأجله، لأجل الرجل الذي سأمتطي شهرته لأصل إلى شهرتي.

فجأة انقض علي شعور قاس بالندم، ما الذي أتى بي إلى هذه الغرفة المترفة؟ ترى هل يتطلب نشر رواية مواعيد خاصة في فنادق فخمة بين الكاتب والناشر؟ دفعني الندم للجلوس منكمشة ومتصلبة من التوتر بعد أن كنت على وشك الغرق في النوم، بدا الناشر هو الشيطان مجسداً، وصممت وأنا أكز على أسناني أنني لن أستسلم له أبداً، ولو اضطررت أن أفر من الفندق، فلتذهب الرواية إلى الجحيم، المهم كرامتي... أجفلت من رنين الهاتف، كنت أعرف أنه هو، لقد وصل، كان لا مفرّ من الرد، حمدت الله أنه لا يرى تعبير وجهي المتجهم والمتعكر بشدة، لدرجة أحسست ملامحي تتنافر مع بعضها وتعطي صورة مشوهة لوجهي، أتاني صوته رشيقاً متلهفاً وسألني عن ساعة وصولي وإن كنت مرتاحة في الغرفة، شكرته باقتضاب عاجزة عن اختلاق جملة مجاملة واحدة.

قال لي: إن غرفتي قريبة من غرفتك، هل توافينني؟

قلت وقد جمعت كل شجاعتي: أفضل أن نلتقي في الصالون، أرغب أن نتحدث عن روايتي.

هل قرأتها.

- بالطبع.

- وهل أعجبتك؟

- جداً، سوف نتكلم مطولاً عنها، حسناً، كما ترغبين سألقاك في الصالون.

كنت أفكر وأنا ألبس استعداداً للقاء الناشر، أنني يجب أن أوقّع العقد هذا المساء، أو غداً، وبأنني يجب أن أفرض عليه أن يعاملني ككاتبة مجتهدة، كنت أدرك حماقتي في قبولي دعوته إلى بيروت، لكن ألم يسيّرني حدس أكيد أنه لن يطبع روايتي إن لم أقبل دعوته؟ فما معنى الندم الآن؟ وأنا قبلت أن ألبي دعوته بكل ملابساتها.

كان بانتظاري في الصالون الكبير، هب لاستقبالي بحفاوة، قبل يدي وجلسنا متقابلين يحدّق في وجهي بسرور بالغ، أقحمته في الحديث عن روايتي مباشرة.

قلت له: أنا متلهفة لأسمع رأيك، هل أعجبتك الرواية؟

- طبعاً، أتعرفين بعد أن انتهيت من قراءتها، فكرت أنك تبدين ككاتبة متمرسة وصاحبة خبرة، جرأتك رائعة، فيها تحدٍّ وإيمان عميق بواجب قول الحقيقة، كأنه غاية بحد ذاته، كأنك تملكين ضعفاً تجاه الحقيقة، وميلاً للاعتراف كي تتخلصي من عبء الحوادث التي مرّت معك.

- أجل الكتابة تقربني من كل الحوادث التي مرّت معي، وتخلصني من وجعها في آن.

- لكن روايتك أشبه بسيرة ذاتية، ولا زلت في عمر مبكر على كتابة السيرة الذاتية.

- إنها تجربتي مع الحياة حتى هذه اللحظة.

- كتابتك مؤثرة جداً، لا أخفيك أنني بكيت حين قرأت وفاة صغيرك.

أطرقت وأنا أغرق داخل غيمة سوداء، قال برقة: آسف جداً.. لكن...

رفعت إليه عينين قاتمتين وقلت: عمر هذا الجرح خمسة عشر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عاماً، أتعرف لا يمر يوم دون أن أفتكر حبيب.

– لكن لِمَ لم تتزوجي وتنجبي أولاداً، وأنت متدفقة الحنان والأمومة لهذه الدرجة.

– لم أعد أستطيع، بل لم أعد أرغب، لماذا علي أن أنجب طفلاً أحبه وأنميه يوماً بعد يوم ثم يموت، لقد احتجت لسبع سنوات حتى تمكنت من طلاق زوجي، أظنك تسمع عن صعوبة الطلاق عند المسيحيين، الهجر أولاً، الذي يستمر سنوات طويلة، ثم إن زوجي لم يكن راغباً بالطلاق.

– وكيف عشت هذه السنوات السبع؟

– فررت إلى السعودية، عملت مدرّسة خمس سنوات لأتمكن من شراء بيت صغير، قررت الانفصال عن أهلي، ثم اخترت عملاً مكتبياً لأنني كرهت التدريس.

– ألم تغرمي بشاب خلال هذه المدة؟

– ألاحظ أن أسئلتك شخصية جداً!

– عفواً، لكني أحب أن أفهمك فهماً متكاملاً.

– وهل لهذا الفهم علاقة بالقضية بيننا؟

– سأل: أية قضية؟

– قلت: طباعة الرواية.

لم يجب، ابتسم، قال: أحب أن أبوح لك بحقيقة، لا يجب أن تغفلي عنها.

سألت باهتمام: ما هي؟

قال: كاتب البلاد يحس بغيرة شديدة منك، وقد حدثني عنك كمتطفلة ترهقينه باتصالاتك ورسائلك، وقال إن موهبتك دون الوسط، وتحتاج

لصقل وجهد كبيرين، لتصير كتابتك مقبولة، سكت ليتفرج على وقع المفاجأة علي، لكني كنت أترك كلماته تنزلق على جلدي دون أن أمتصها تابع كلامه: قال لي بأنه مضطر أن يقدمك لي، لأنك لجوجة، ولأنه وعدك بذلك، وقال أيضاً: يا أخي، لن تخسر شيئاً، استمع لها، وعدها أنك ستقرأ روايتها، ثم انسحب من أمر الطباعة وكنت سأفعل ذلك فعلاً، لكن كل قراراتي تغيرت حين رأيتك، غمرتني فجأة بحضورك الأنثوي وقلت لنفسي هذه المرأة مختلفة، صدقيني منذ زمن طويل لم أتجاوب مع امرأة، لم تلفت امرأة نظري وتنتزع إعجابي العميق مثلك، وحدك نجحت في تحريك رداراتي تجاهك.

حرفت الحديث إلى موضوع الرواية فقلت: لكن الرواية أعجبتك أليس كذلك؟

– طبعاً، أنت كاتبة موهوبة، تكتبين أفضل منه بكثير أقصد كاتب البلاد، يلزمك فرصة ذهبية، ناشر مثلي، – ضحك ضحكة نصر – وتابع الموهبة هذه الأيام لا تكفي وحدها لشق الطريق، كم من الموهوبين ينتظرون فرصاً للنشر، خاصة وأنه غدا مكلفاً جداً.

وجدتني أسأله: أستغرب موقف كاتب البلاد، لقد أعطته الحياة أكثر مما يستحق، نجاحاً أدبياً ومادياً واجتماعياً، تجاوز الخامسة والسبعين، فلماذا لا يساعدني؟ أليس من واجب الكبار أن يتعهدوا الصغار؟ لماذا يحس أنني أشكل خطراً عليه؟ ألا تكفيه شهرة كتبه؟ ثم أي مجال للمنافسة بيننا، ألا يكفي أن عمره ضعف عمري على الأقل؟

قال: معك حق في كل تساؤلاتك، لكن يصعب عليك أن تفهمي نفسية المشهورين، صدقيني يستحيل أن تجدي مشهوراً على حقيقته، إنهم يتعاملون مع الناس من خلال أقنعة، إنه يحس أن ولادة كاتبة تطرح مواضيع حساسة وجريئة مثلك يجعل السجادة تنسحب ببطء من تحت

قدميه، قد تظنين أنني أبالغ إذا قلت لك أنه يغار منك، ويخشاك في آن.

– لكنه حصل على النجاح الكبير، أكثر بكثير مما يستحق، فليتركني أحقق طموحي.

قال: أتعرفين، أصرّ أن يسمع وعدي له أنني لن أطبع لك الرواية أبداً، لذلك سيشعر بطعنة مؤلمة حين سيجد أنني أخلفت بوعدي، ولم أبال برأيه.

انفجرت غاضبة: عجباً كم هو حقود وأناني، لكن من يتفرج عليه كيف دللني أثناء الغداء، يقول ما أروع هذا الإنسان، ما أعظم هذا الكاتب الكبير الذي يتعهد كاتبة ناشئة...

قاطعني محاولاً امتصاص غضبي قائلاً: المهم علاقتي الآن معك، لم يعد له علاقة معنا.

اقترح أن نقصد المطعم في الطابق الأخير للفندق، وقال بأنه يحس بجوع لأنه لم يتناول غداءه، من الطابق الثالث عشر للفندق كنت أطل على بحر بيروت الهادئ والساحر، كنا وحيدين، فلا يزال الوقت مبكراً للعشاء، قال لي بصوتٍ رخيم: أريد أن أحس أن المكان مخصص لنا نحن الاثنين فقط.

طلب كل أنواع المازوات وزجاجة نبيذ، شرب نخبي، وشربت نخب الرواية التي سيطبعها. أخذ يحدثني كم كان سبباً في شهرة الكثير من الكتاب، وكم يبذل جهوداً ليكون توزيع كتبه ممتازاً، سألته عن الرواية الأخيرة، قيد الطبع لكاتب البلاد، فقال إنها رواية هزيلة تشف عن شخصية صاحبها المرهقة.

قاطعته: لماذا تطبعها إذاً؟

– لأنه مشهور، صار له جمهوره، الكثير من قرائه سيشترون عمله الأخير، وأظن معظمهم سيخيب أمله.

كنت سأقول له: إذاً أنت يهمك مجرد الربح، لكني فضّلت أن أسأل:

– لماذا لا يتوقف عن الكتابة إذاً؟

ضحك قائلاً: إنه آلة، لا يستطيع التوقف، لأنه سيشعر بالهزيمة، الكتابة وجوده وكيانه، كما أنه صريع غرور العظمة، تذكرت حين قال بأن النساء يتباركن بقبلاته.

أمسك يدي بحنان أثناء العشاء، فسحبتها بعد هنيهة، ابتسمت بامتعاض، قال هامساً:

– نازك أنا أحتاجك.

ساد صمت مكهرب بيننا، قلت ماذا تعني؟

– لقد أحببتك منذ رأيتك، صدقيني.

قلت مدارية ارتباكي ومحاولة تبديد جديته بالمزاح: أتحب من النظرة الأولى؟

– هذا ما حصل لي عندما رأيتك، أرجوك لا تسخري من عواطفي، أنا فعلاً أحبك، وسأجعل منك كاتبة مشهورة أنا أعرف كيف أجعل لعاب الناس يسيل وراء قلمك.

سألت مبهورة: كيف؟

ضحك كاشفاً عن أسنان مصفرة من التدخين قال: لن أعلمك سر المهنة، النشر مهنة تحتاج لعقلية خاصة، غاليمار، اشهر ناشر في فرنسا، يكفي أن يوجد اسمه على رواية حتى يضمن الكاتب بيع آلاف النسخ خلال أيام.

سألت: لكن غاليمار يطبع لكتاب ممتازين أصلاً.

قال: ليس بالضرورة، طبعاً معظم طباعاته جيدة، لكن هناك كتب أقل قيمة بكثير، بل يصح أن نسميها تافهة يطبعها.

– ولماذا يطبعها؟ – – لاعتبارات عديدة، لا يوجد إنسان في العالم يتصرف وفق قناعاته المطلقة، الحياة تتطلب مسايرة وتنازلات، ثم إن موضوع الشهرة لا يزال مبهماً، أنا أنشر كتباً منذ أربعين عاماً، حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أتكهن مئة بالمئة إن كان الكاتب الفلاني سيلاقي صدى جماهيرياً أم لا، أظن الناس تضجر من نمط معين من الكتابة، فترغب وتهلل لنمط جديد، قد يكون أدنى مستوى من النمط الأول، لأقرّب فكرتي إلى ذهنك، حين كتبت فرانسواز ساغان روايتها الأولى وهي في العشرين من عمرها، (مرحباً أيها الحزن) نجحت نجاحاً باهراً، مع أنها رواية هزيلة في الواقع، وبالتأكيد ساغان كاتبة مهمة الآن، لكني أتكلم عن الدوي الذي أحدثته روايتها الأولى، من ورائه؟ الناشر بالتأكيد.

قلت: أذكر هذا الكتاب، كنت في الصف العاشر حين صدر، وقد قرأته بنهم، لكن أظن أن ما أعجبني في الرواية هي الحرية، حريتها في طرح أفكارها، تحديداً في التحدث عن عشيقها الذي تلتقيه في الغابة المراهق تشده رواية تتحدث عن الحب والحرية.

– هذا صحيح، لكن في الوقت الذي صدرت فيه روايتها هذه، صدرت العديد من الروايات التي تفوقها أهمية، فلم تحدث هذا الدوي، والسبب يتعلق بالناشر أولاً وقدرته على خلق ضجة إعلامية.

– أريد أن أسألك عن كاتب البلاد. ما سبب شهرته برأيك؟ ثم ما رأيك بأدبه؟

سأجيبك عن السؤال الثاني أولاً، وأتمنى أن يكون الحديث بيننا، إنه كاتب متوسط الموهبة محدود الذكاء، وثقافته دون الوسط.

قاطعته: أأنت من تقول هذا الكلام؟

قال: هذه هي الحقيقة، والأدب الذي يكتبه في السنوات الأخيرة،

رديء وتافه، لكنه من حيث لا يدري، بدأ بداية موفقة جداً، عزف على الوتر الحساس الذي يشغل الناس ويشكل هاجسهم: الجنس.

تذكرين روايته الأولى التي تدور أحداثها في كهف يلتقي فيه رجل وامرأة يمارسان الجنس، إنها رواية تلهب مشاعر جيل من الشباب يدمرهم الكبت النفسي والجنسي والعاطفي، هذه الرواية الجنسية حرثت له طريق المستقبل، فهم اللعبة وأسباب نجاح روايته، ولا أخفيك أنني ربحت أرباحاً هائلة من بيعها، لكن ماذا فعل كاتبنا الذكي، صار يكرر نفسه، ظل هاجس الجنس هو الخط الأساسي في كتابته، الذي يتغير هو الرداء الخارجي للرواية، الشخصيات، الأحداث، لكن العصب الأساسي هو الجنس.

– وهل هذا كافٍ ليحقق كل تلك الشهرة؟ ثم لكي تستمر شهرته؟

– لا أظن شهرته مستمرة كما تقولين، لقد هوجم نقدياً كثيراً، باختصار هذا الكاتب قادته فطرته إلى معرفة كيف يشق طريقه إلى الناس، كما أن الظروف خدمته، فقد ساعده صديق طفولته الذي غدا نائباً له أهميته، وأظن لولا صديقه النائب لما حقق هذه الشهرة.

كنت أسمع أن هناك علاقة جنسية بينهما، لكني تحاشيت السؤال في هذا الموضوع كي لا أفتح نافذة على موضوع الجنس سألته:

– وأنت، متى بدأت عملك معه؟

– أنا عقدت معه اتفاقاً بعد النجاح المدوّي لروايته الأولى، صرت أطبع كتبه وأوزعها وأعقد ندوات ولقاءات صحفية معه، وأقيم حفلات توقيع كتبه، إضافة للدعم الكبير من النائب صديقه.

– إنها تجارة إذاً، ترويج سلعة. – – إلى حدٍّ بعيد هي كذلك. – – بغض النظر عن قيمة الكتاب؟ – – الناشر يهمه الربح، والحد الأدنى من جودة الكتاب، فأنا لا أقبل طابعة كتب رديئة أو تحت سوية معينة. – –

أعرف هذا عنك، لكني أحس بخيبة أمل حقاً، فيمكن للكتاب الجيد أن يضيع في ركام الكتب الرديئة. - - هذا صحيح، هناك كتّاب من الدرجة العاشرة، يحققون شهرة وحفاوات نقدية أكثر من كتّاب من الدرجة الثانية والثالثة. - - وما السبب؟ - - لأنهم بوق لشخصيات متنفذة، منذ أيام دعيت لحفل توقيع ديوان شعر لشاعرة مغمورة، تطبع ديوانها الأول، قدّمه لها كاتب مهم، وفوجئت بازدحام أهم الشخصيات الثقافية والفنية في حفل توقيع كتابها، وحين قرأت شعرها، لم يساورني شك أنه هلوسات مجنونة، لا يمت للشعر بصلة بل ليس له علاقة باللغة كتعبير عن حالة. - - شيء مؤسف حقاً، لا شيء أكثر رداءة من تسليع الثقافة والفن. - - معك حق، لكن تأكدي لا يصح إلا الصحيح دوماً. - شرب نخبي وقال متوداً راغباً بتغيير الحديث: أرى أن هذا الحديث عكّر الوجه الجميل.

قلت مفتعلة ابتسامة: إنه لا يبهج على أي حال.

صب النبيذ في كأسي وقال: اشربي، اللعنة على حديث النشر، والناشرين.

فجأة انقض علي سؤاله المباغت: لماذا فكّرت بالنشر عندي؟

فشلت في مداراة ارتباكي، لكن لم يكن بإمكاني التملص من الجواب بصراحة.

قلت: لأنك الناشر الأكثر شهرة، والأحسن سمعة، ثم...

قرّب مني وجهه وسألني: ثم ماذا؟

قلت: كل من تعامل معك، حقق شهرة.

- تقصدين كاتب البلاد؟ - - إنه أكبر مثال. - - أنت أعظم أهمية منه بكثير، أنت موهبة عظيمة. - - أسكرني كلامه قلت له: أرجوك لا تجاملني. - - قال: أنا لا أجامل أبداً. وهذا معروف عني، ألم تسمعي

بقصتي مع الشاعرة الخليجية. - - قلت: لا. - قال: دخلت مكتبي، وقدّمت لي نفسها أنها شاعرة، وبأنها تريد أن تطبع ديوانها عندي، قلت بأن من عادتي أن أطّلع على ما أريد طبعه، أغضبها جوابي فقالت بأنها مستعدة أن تدفع سلفاً المبلغ الذي أحدده.

لكني أصررت أن أقرأ شعرها أولاً، يا للرداءة، لا تتخيلي قبح لغتها، ورداءة صورها، حين زارتني ثانية، أبلغتها رفضي، وقلت صراحة رأيي بكتابتها، جن جنونها وحاولت أن تغويني بالمال، وصل ما عرضته علي إلى نصف مليون ليرة، تصوري، كانت تريدني أن أشن حملة دعائية لتسليط الأضواء عليها، معتقدة أنني ساحر، قادر أن أحول الرديء إلى ممتاز، وحين رفضت لمحّت أنها يمكن أن تؤذيني فهي قريبة أمير، لم أبال بتهديدها طبعاً، وحذرتها من زيارتي ثانية.

أخذ الناس يتوافدون إلى المطعم، كانت كل طاقاتي الذهنية تحوم حول فكرة متى سنوقّع عقد طبع الرواية. كنت مستعدة أن أعطيه كل الحقوق لمجرد أن يقوم بطباعتها وتوزيعها، كانت كرامتي لا تسمح لي أن أندلق أكثر من حدٍّ معين، وكنت أنتظر مبادرته ليطلب مني أن نكتب العقد، لكنه كان يريد أن يتمتع بحضوري قدر ما يستطيع، كنت أتمنى أن تنقضي الأيام الثلاثة بلمح البصر، أحسست حضوره ثقيلاً ومقيتاً، وجدت نفسي أسيرة شعور عارم بالاشمئزاز الذي يجبرني أن أجلس ساعات مع رجل يكبرني بربع قرن ويغرقني بنظرات شهوته المقززة.

همست لنفسي لأهدئها: الرواية، الرواية.

انفلت غضبي أقوى: اللعنة على الرواية، وعلى كاتبتها.

قال لي: تعالي معي إلى غرفتي، فأنا لا أحب الازدحام.

خفق قلبي جزعاً، كنت أحس أن اللحظة التي أتحاشاها تقترب، قلت له: لكن، هل يسمحون هنا، أن تدخل امرأة إلى غرفة رجل؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

سأل: ولم لا؟

– أظن، هذه الزيارات مشبوهة، ربما يعتبرونها دعارة، وقد سمعت أنهم يركّبون كاميرات سرية في إحدى زوايا الغرفة لالتقاط صور خاصة للشخصيات الهامة. – اتسعت عيناه بسخرية وقال: يا لك من ساذجة، إن مهمة الفنادق الفخمة، هي تأمين اللقاءات الغرامية للشخصيات الهامة.

كانت غرفته غارقة في الظلام حين دخلنا، شعرت أن هذا الظلام متماد مع ظلام داخلي سبقته في الضغط على زر الكهرباء، وقع نظري على حقيبة ثيابه التي لا تزال مقفلة، جلست على الأريكة بحالة استنفار، وبوضعية الدفاع عن النفس ضد أي هجوم مباغت، تأملت ظهره المنحني يفتح الحقيبة بدا لي عجوزاً، تمنيت لو يعتبرني بمثابة ابنته، لكني كنت أعرف عبث تمنياتي، فهو يشتهيني بكل طاقة شيخوخته، كززت على أسناني وأنا أقول لن أدعه يلمسني، ولو انطبقت السماء على الأرض، التفت إلي فجأة وبيده علبة مخملية خمرية اللون، جلس على حافة السرير مقابلي، وقال: هذه لك.

فتحت العلبة، كانت ساعة سويسرية رائعة، قلت: لكن هذه الساعة غالية جداً، وقدّرت أن ثمنها يعادل كلفة طباعة الرواية، فكرت أن أعيدها له وأقول: بثمنها يمكنك أن تطبع روايتي، فخذها، أنا لا أريد أن أسبب لك تكاليف باهظة، لكني فكرت بانكسار أن ما سيدفعه لي في الفندق الفخم، يفوق كلفة طباعة الرواية أيضاً، إنه سخي على ما يسعده، ليس سخياً مع مصلحتي، هذا ما أحسسته فيما راحة يده الرطبة تمسح على شعري بحنان وهو يقول بصوت نافذ الصبر: كله رخيص عليك.

كان يتأملني بعذوبة أربكتني قائلاً: ما أجملك.

قلت له: أنت تطريني كثيراً.

قال: بل لا أقول إلا الحقيقة.

شكرته على الساعة، سألني وهو يفتح البراد ماذا تشربين؟

قلت وأنا أرمق زجاجات الكحول الصغيرة، وزجاجات العصير والكولا: أشرب كولا لو سمحت.

قال: ألا ترغبين بشرب البيرة؟

قلت: لا، لقد شربت نبيذاً كفاية.

صب الكولا في كأس، والبيرة في كأس آخر، عاد يجلس على حافة السرير قبالتي، كنت أشم رائحة الغواية والإثم في الأثير، وأشعر أنني أطل على جرف عميق لا قرار له، سرى نمل في شفتي أظنه يرجع لنظراته الكاوية المتركزة على شفتي، امتدت يده ثانية لتمسح شعري وتطيّره قائلاً:

– ما أجمل شعرك. – لم أشعر بقدرة على مقاومته، رغم أنني كنت أتخيّل أنني سأنتفض وأفرّ إلى غرفتي، طلب بصوت أقرب للتوسل أن أجلس إلى جانبه، وجدتني أذعن، ومن غير أن أنظر إليه، سألته بصوت فاقد الصبر: متى سنكتب عقد طبع الرواية؟

قال وهو يعتصرني بين ذراعيه: حالاً...

غمرتني رائحة جلده المضمخ بالعطر، أمكنني أن اشعر بمتانة عضلاته، تملّصت منه بصعوبة وأنا أقول بما يشبه الرجاء: لو سمحت. وانتفضت واقفة، لكنه استعاد جسدي بسرعة قائلاً بما يشبه الأمر: لا تكوني بخيلة، لقد أحببتك جداً، وخاصة بعد أن قرأت روايتك، لماذا لا تعيشين عواطفك؟ لا تتصوري كم أقدّر النساء اللاتي يعشن عواطفهن بصدق.

لم أجرؤ على الاعتراف أمامه أنني لا أرغبه، وبأنه لا يفتنني أبداً

كرجل، ولا أريد منه سوى أن يطبع لي الرواية، عدت إلى مكاني أجرع الكولا بجرعات كبيرة متجاهلة نظراته الحارقة، فكرت أنني رغم الزمن الطويل الطويل الذي لم يلمسني فيه رجل، فإنني أرفض أن يلمسني رجل لا أحس نحوه بحب أو بإعجاب عميق على الأقل، جسدي يتكهرب من اللمس، لا أستطيع أن أفهم الشهوة كشيء مستقل بعيد عن الروح والعاطفة، في كل مراحل حياتي كانت نشوة الروح هي التي تحركني وتحتوي نشوة الجسد في داخلها، لكن هل أسأله الآن متى ستطبع لي الرواية؟ إنه مستاء من سلوكي بالتأكيد، فأنا لم أشأ أن أعيره جسدي، يا لي من حمقاء! فلأهبه بضعة قبلات كعربون على طباعة الرواية، ماذا سأخسر؟! رفعت نظري إليه بحذر، فوجدته مقطباً ومطرقاً، أحسست أنه لن يطبع الرواية، وضعت كأس الكولا من يدي وسألته بغنج: إيه هل أنت زعلان؟

قال: وهو لا يزال مطرقاً: لا.

قلت: أنظر إليّ إذاً.

تعمدت أن تشع عيناي باللطف، تأملني بعمق، وشهوته تنمو ثانية بعد ثانية، شدّني من يدي بقوة وطرحني على السرير، وانقض علي يفترسني، وسمعت تقطع أزرار فستاني، كدت أختنق من هجومه المباغت المحكم، لدرجة أحسست بلا جدوى مقاومتي، لكنني تمكنت بجهد أن أتخلّص من فكه المفترس ويديه الأشبه بأخطبوط يهرسني، انتفضت واقفة وأنا ألهث مستجدية الهواء أن يدخل حتى آخر نقطة في رئتي، صرخت مذعورة: ما هذا! ما هذا!

قال: ما بك؟ لماذا تنتفضين هكذا؟

قلت وأنا أحاول تسوية ملابسي: لكن، من تظنني؟!

قال: لا أفهمك! ماذا تقصدين؟ أنت امرأة وأنا رجل، كنت أعتقد

أنك ترغبينني، بدليل أنك لبيت دعوتي إلى بيروت.

صرخت: لكني لبيتها لطباعة الرواية.

حلّ صمت مسموم بيننا، ظلّ صدى كلمة رواية يترجع في الفراغ بيننا دوائر تخنقني أكثر وأكثر، انتظرت أن يقول: حسناً، سنكتب الآن عقد طبع الرواية، لكنه لم يقل شيئاً كان يلهث غضباً وشهوة.

قال: سنتكلم غداً، يفضل أن يخلو كل منا إلى نفسه الآن.

خرجت من غرفته حطام امرأة، حاولت فتح باب غرفتي بالكرت، فاستعصى، كررت المحاولة مرات ومرات، حتى فتح الباب أخيراً، تهاويت على السرير، وأجهشت ببكاء عاصف، كنت أبكي بعيون كل النساء.

• • •

عكست المرآة صورتي منتهكة، أجل هذه هي الكلمة الأكثر مطابقة لحالتي، كنت مجفلة مما حدث أدهشتني السهولة التي لها صفة الشرعية التي دفعته لاقتحام جسدي، إنه يبادر دون أن يخطر بباله أنني يمكن أن أرفض، يتصرف وكأنني أنتظره منذ زمن لأتلقى بركاته، كانت تلك المباغتة الواثقة والتي يبدو أنه يمارسها بعفوية صاحب الحق والمتعوّد، قد تركتني بحالة شلل، حتى أنني لم أستوعب قبلاته النهمة. إن شهرته تعطيه الحق في ابتلاع الآخرين، واستهلاكهم، ياه، كيف استباحني بهذه الطريقة؟ كنت راغبة بالصراخ والتكسير، سميته القنّاص، إنه ينقضّ على الفريسة كما ينقضّ النسر على الأرنب، لكن لماذا لبيت دعوته وسافرت إلى بيروت؟ لماذا أبالغ في أناقتي أمامه؟! ألم أقبل أن أدخل غرفته وأجلس معه؟ لماذا أخدع نفسي، أليس واضحاً منذ البداية، أنه يريدني كامرأة، مقابل أن يشهرني ككاتبة؟

أحسست أنني أنفصل إلى امرأتين، امرأة الطابق العلوي، وامرأة

الطابق السفلي، أصغيت للحوار بينهما وأنا ممددة على السرير العريض شبه مشلولة.

قالت امرأة الطابق السفلي: لماذا لا تستسلمين له، إنه رجل جذاب، رغم أنه في الستين، لكن جسمه مشدود وجميل، والله لقد جفّت روحي من الحرمان العاطفي، وتشقق جسدي من الحرمان الجنسي لماذا لم تسترخي، بين ذراعيه، فهذا حق لجسدك عليك، ثم أنت تعرفين أن في أعماق كل أنثى حنين صميمي للانصهار برجل، الله هو الذي شكلنا هكذا، فلماذا لم تسمحي لحنيني أن يلتقي بحنينه، قالت امرأة الطابق العلوي باحتقار: حنين لرجل! قولي الشهوة البهيمية لرجل، فأنت لا يهمك سوى اعتصار اللذة، كما كنا نعتصر العسل من زهر العسل ونحن أطفال.

ردت امرأة الطابق السفلي: ولم لا، إن الشهوة شيء مقدس، إنها النار الوحيدة التي لا تخبو لأنها لو انطفأت لانقرضت الحياة. الشهوة هي الحياة.

قالت امرأة الطابق العلوي: أنت تثيرين تقززي حقاً، الحياة أرقى من شهواتك البهيمية بكثير، الحياة إحساس وفكر وفن...

أجابت امرأة الطابق السفلي: حسناً أنت الموهبة والعقل المفكّر، وأنا الشهوة والجنس، أنا الغرائز التي تحتقرينها أنت، الغرائز التي لا تبدع أدباً، لكنها ستساعدك في النشر، وهو الآن يفتح لك طريق الشهرة، أنا من ستمد لك الجسور، اتركيني أخرج من القمقم، لماذا تسجنينني في الحرمان والإهمال، ألم تزجيني في غرفة مشبعة بالشهوة مع رجل جذاب يحرقني بالرغبة، وأنا أنهكني الحرمان والسعي للقاء نصفي الآخر، فلماذا لم تسمحي لي أن أنصهر معه، أن أتحد معه بأجمل اتحاد في

الكون، اتحاد رجل مع امرأة؟ لماذا تعلّمت أن تحتقري الغرائز وأن تضعي ألف شرط لتنفلت من قمقمها الأخلاقي الزائف، تقولين كلاماً غامضاً لا أفهمه، الاحترام، الحب، التفاهم، ما قيمة هذه الأمور حين تنطلق شرارة الشهوة الخالدة؟

– تقول امرأة الطابق العلوي اخرسي، إن شبقك يثير قرفي، لقد احتجت لأيام طويلة كي أطهّر نفسي من دنس شهوتك. – تضحك امرأة الطابق السفلي وتقاطع امرأة الطابق العلوي قائلة: لماذا سافرت إلى بيروت إذاً.

ترد امرأة الطابق العلوي: لأكتب عقد الرواية معه.

تضحك امرأة الطابق السفلي: أتضحكين علي! أنا لا يخفى عني شيء، أنا امرأة الطابق السفلي أرفع عيني دوماً لأتفرج عليك، أنت يا من تسكنين فوقي، وتلجمين انطلاقتي، هل تعتقدين أنني مغفلة ولا أعرف كل شاردة وواردة في ذهنك؟

سألت امرأة الطابق العلوي المرأة باستخفاف: وما الذي يدور بذهني يا عبقرية؟

قالت امرأة الطابق السفلي: لا تسخري أرجوك، سأقول لك حقيقتك تماماً، أنت انتهازية تريدين أن تطبعي روايتك وأن تمتطي شهرة كاتب البلاد وشهرة الناشر معاً، ولا مانع لديك من استخدامي كعشيقة تستغلينها كما تريدين، مقابل أن يصدح اسمك مالئاً الآفاق، لكن في هذه الحالة من حقي أن أمارس رغباتي بشكل طبيعي وبدون تدخّل منك.

قالت امرأة الطابق العلوي بقرف: اخرسي يا بلهاء، اخرسي يا دون، ما أنت سوى امرأة تعيش لنزواتها.

ثمة دموع غزيرة تتساقط، صعب علي تحديد مصدرها، أهي دموع

امرأة الطابق العلوي أم دموع امرأة الطابق السفلي!

• • •

حين استيقظت صباح اليوم التالي، كان قنوطي يتربص بي، عجبت أنني نمت حتى العاشرة صباحاً، لكنني تذكّرت كيف شربت الكحول من الزجاجات الصغيرة المنضدة بأناقة على رفٍّ داخل البراد. لا أعرف كم شربت، لكنني تذوقت محتوى الزجاجات كلها التي ساعدتني أن أغرق في النوم، كنت أحس أن إحساسي بالراحة إحساس مزيف، فعلى بعد خطوات يتربص بي القنّاص، عجبت كونه لم يتصل بي، لعله يعطيني الوقت الكافي للراحة، أم لعله يتظاهر أنه متضايق مني وينتظر مبادرتي، قررت ألا أتصل به، كان جسدي رخواً، تحاملت على نفسي لأدخل الحمام، بدوت في مرآة الحمام شفافة كشبح ولم أجد نفسي جميلة كما وجدتها في تلك اللحظة، كانت عيناي سارحتين في المطلق، وبشرتي صافية كالأسيل، كان كل شيء فيّ مسترخياً ومنعتقاً عن الدنيا، لكني شعرت أن قلبي صليب، أصلب عليه جسدي، قررت ألا أستحم كنوع من التصميم على أنني لن أسمح له بلمسي، تشكل قراري دفعة واحدة، سأحزم حقيبتي وأستعد للسفر، سألقاه وأفاوضه إن كان سيطبع روايتي التي أعجبته، والتي سيربح بالتأكيد بعد نشرها، وأنا لا أريد أي أجر أو ربح، وبالمقابل لن أكون عشيقته أبداً، ولن أسمح له بلمسي، وإن لم يرضَ فسأتركه مع نظرة احتقار. تذكّرت وأنا أمشط شعري جملة قرأتا ذات يوم وتأملت بمعانيها طويلاً: ما يمتع الرجل قد يكون سماً للمرأة.

تجاوزت الساعة الحادية عشرة صباحاً، ولم يتصل تلبسني شعور المشردة، وأنا المرمية في بيروت في فندق فخم، لا أعرف أحداً، دفعني نفاذ الصبر للاتصال به، لم يكن في غرفته، سألت عاملة المقسم إن كان

أحد قد ترك لي رسالة، أجابتني الموظفة بلطف زائد أن لا. ما عدت أطيق المكوث في الغرفة، نزلت إلى الصالون الواسع، أتمشى غريبة بين غرباء، كنت أحاول أن أتحاشى النظر إلى نفسي في المرآة كي لا أواجه عيني، كنت أعرف مقدار القنوط والحزن فيهما، جلست على مقعدٍ وثير من الجلد وطلبت نيسكافيه مع حليب، أشعلت سيجارة وأخذت أنفث دخانها بعصبية وأنا أبحث عنه بعيني، أخذ تشاؤمي يتشكل ذرّة بعد ذرة، كنت أحدس أن هذا اليوم سيكون مترعاً بحزن عميق، هربت بنظري إلى الخارج لألتمس الدفء من البحر، عساه يبدد وحشتي، لكنه كان خالداً ومتعالياً، وغير معني بتفاهات البشر، وكانت أمواجه المتلاحقة التي لا تيأس من صراعها الأبدي – أو غزلها – لصخور الشاطئ، ترجّع لي شيئاً فشيئاً ماضي، بدت حياتي سلسلة من السراب المخلوط بالواقع، ولم ينتبني إحساس قوي أنني مدمّرة النفس كما أحسست وأنا أحدق إلى البحر بافتتان، صرخت متألمة أسأل الموج: ما الذي قذفني إلى بيروت، ليعصرني رجل غريب بين أحضانه؟!!

انتفضت فجأة كأنما لدغني عقرب، واتجهت بخطوات مصممة صوب عاملة الاستعلامات سألتها عنه فقالت إنه منذ التاسعة صباحاً في قاعة المحاضرات، حيث باشر اتحاد الناشرين العرب نشاطاتهم، وأشارت إلى سلم في آخر الصالون قائلة: انزلي طابقاً، ستجدين قاعة فسيحة هي قاعة المحاضرات.

كنت قد فقدت قدرتي على الاحتمال، والساعة تتجاوز الواحدة ظهراً، في نهاية الدرج كانت طاولات مفروشة بقماش أخضر مصفوف عليها أقداح شاي وقهوة وعصير، وخدم بكامل أناقتهم بشوشون يقدمون المشاريب للناشرين. لمحته منهمكاً في الحديث مع رجال حوله، تأملته بحقد وكره، وقد تجسدت أمامي صور افتراسه لي ليلة البارحة، لكني

www.mlazna.com-RAYAHEEN

اتجهت نحوه بتصميم على وضع اللمسات الأخيرة للوحة النهاية، وأعتقد أنه لمحني لكنه تجاهلني، حتى صرت على بعد خطوات منه، استقبلني بحفاوة، وقدمني لثلاثة من زملائه الناشرين، ككاتبة موهوبة ينتظرني مستقبل باهر، وجدت نفسي أعزله عما حوله وأسأله غاضبة وبصوت هامس: لماذا لم تتصل بي؟

قال متلذذاً بغضبي: لم أشأ أن أزعجك.

رمقته بألم وقلت: كنت تستطيع أن تترك لي رسالة.

قال: كنت سأتصل بك حالاً لتوافيني إلى المطعم.

قلت: لا أريد أن أتناول غذائي مع الناشرين.

سألني: لماذا؟

قلت: لا أحب أن أكون متطفلة على بشر لا علاقة لي بهم.

ضحك وقال: بل أنت على علاقة مع شيخهم.

قلت: ألا تستطيع أن تعتذر منهم؟

قال: ليس من اللائق، فهو الغداء الأول بعد افتتاح المؤتمر.

قلت: حسناً سأنتظر مكالمتك بعد الغداء.

قال: نازك، أراك متوترة جداً، تعالي نشرب قهوة أو عصيراً.

قلت بجفاء: لا أريد.

لكن صديق له، باغتني وقدّم لي كأس عصير أناناس، وسأل الناشر: أهي الكاتبة الموهوبة التي حدثتني عنها.

قال: أجل، السيدة نازك، قدّمت لي رواية هامة جداً.

سألني: وما موضوعها؟

استرخت أعصابي، وتدفق التفاؤل في صوتي، قلت بنغمة مختلفة كلياً: اسأل صديقك؟

قال الناشر: نازك واحدة من الكتّاب القلائل الذين يعبّرون عن الحياة بصدق ونزاهة، إنها تملك رؤية عميقة ومدهشة في آن لكل التفاصيل التي يشكل اجتماعها نسيج الزمن، إنها قادرة أن تمرّغ نفسها بالحياة، وتترك مسافة بينها وبين الأحداث.

كنت منتشية بسماع هذا المديح الذي اعتبرته موافقة صريحة على طباعة الرواية، أسفت كوني لقيته بسحنة غاضبة متذمرة، تأسفت له بعينين باسمتين، غمزني وكأنه يتواطئ معي على أشياء نتفق عليها، غاص قلبي وأنا أؤكد لنفسي أنني لن أسمح له بلمسي.

قال صديقه: طالما تعهّدك شيخ الناشرين، فأنت محظوظة، ستمسكين العصا السحرية وتقفزين بطرفة عين إلى عالم الشهرة.

قال متضاحكاً: من يسمعك تتحدث عني يقول إنني ساحر، نازك ستصنع مجدها بموهبتها. أنا لست سوى وسيط.

قال الرجل: وسيط! كأنك اكتشفت لغزاً، كم من المواهب ماتت لعدم توفر الوسيط. أطرقت بحزن وأنا أحدث نفسي: معه حق، كثير من المواهب الأصيلة ماتت لعدم وجود وسيط. كنت أتفرج على حشد الرجال المرموقين، متحلقين في تجمعات صغيرة يتحدثون بحماسة عن أزمة الناشرين وأزمة الكتاب، وكنت أصغي بذهن مرهق لحديث ناشري السندبادي عن رحلاته إلى العواصم العربية والأجنبية وإقامة معارض لدار نشره الأكثر شهرة كنت أفكر وأنا أصغي إليه بالحظ، كشيء مستقل، قادر على تغير مسار حياة البشر، لم أكن قد عرفت في أية مرحلة من مراحل حياتي ضربة الحظ، بل خبرت جيداً ضربات النحس، وكانت ثقته الزائدة بنفسه التي تفوح في الهواء تصيبني بضيق وتسمم روحي، كان شيء أكبر من الغيرة يوتر أعصابي، شيء أشبه بالذعر من أن يمضي العمر دون أن يرشّني الحظ بحفنة من كيسه الممتلئ بكرات

النجاح الصغيرة، كنت أحاول أن أجد جواباً منطقياً وعملياً لسؤال أرّقني طويلاً: لماذا يصيب الحظ ناساً دون ناس؟ ولماذا تضيع مواهب أصيلة لأن الحظ لم يمدّ لها يده، فيما مواهب دون الوسط تأخذ دوياً عظيماً وتمجّد وتكرس لها صحف ونقاد وأدباء؟!! هل هناك انكشارية ثقافية؟! من مسؤول عنها وكيف تشكلت؟ كنت ألحق تناسل الأسئلة في ذهني، حين تأبط ذراعي الناشر، وابتعد بي خطوات قائلاً: سأتملص منهم بحجة التعب، فقد حاضرت اليوم ساعة عن أزمة الكتاب، كانوا مسرورين جداً، ستقرئين خطابي غداً في العديد من الصحف والمجلات، وستنقل محطات تلفزيونية عديدة كلامي، المهم انتظريني في غرفتك تمام الثالثة.

هممت أن أقول، سنتحدث عن الرواية ونكتب العقد أليس كذلك؟ ورغم أن الكلمات تشكلت صحيحة في حنجرتي، ووصلت إلى فمي، ودوّرها لساني، وأفلتت من بين أسناني، إلا أنني لم أجرؤ على لفظها، كان أمامي ساعة ونصف من الانتظار القلق، أعدّ الدقائق والثواني.

كل لحظة في ساعة الانتظار هذه، كانت تبعثر أعصابي إلى رماد، لم أكن مسرحاً لصراع الأمل مع اليأس كما كنت وقتها، كان خيالي ينقسم إلى مسرحين ومخرجين وعالمين، أحدهما وردي يصوّر لي أنني وقّعت عقد الطباعة مع الناشر بشروطي، ودون أن أدفع جسدي عربوناً، والآخر رمادي يصوّر لي عودتي مهزومة إلى مدينتي البائسة مثلي، أحمل روايتي التي ماتت حروفها من القهر والألم. كان الفاصل بين مسرح الأمل المتألق، ومسرح اليأس الغارق في الداكن، خيط رفيع أو وشاح شفاف، لم يكن شيء أشد إنهاكاً من اصطراع هذين العالمين، حتى فكّرت أن أقتحم المطعم وأقف وسط الناشرين وأسألهم جميعاً بنفاذ صبر: ألستم مسؤولين عن طباعة روايتي؟!

بعد أن هدني الإرهاق، وأحسست بالتدمير المتزايد لأعصابي، رسم

العقربان لحظة اللقاء، عقرب أفقي تماماً، والآخر عمودي تماماً، لا أحد ينحني قليلاً أو يتنازل قليلاً لأجل الآخر، واحد مصمم على اتجاهه الأفقي، والآخر يريد أن يثقب السماء باتجاهه العمودي، سمعت نقراً على الباب، فقمت أفتح، كان هو، داريت ارتباكي الشديد بأن فتحت البراد وسألته إن كان يرغب أن يشرب شيئاً قال: لا، سنشرب قهوة ما رأيك.

قلت: حسناً، سأطلب قهوة لك فقط، فأنا أفضل شرب العصير.

سألني: ألم تتناولي غدائك؟

قلت: لا، لا أحس بجوع.

قال: لقد تملصت منهم هذا المساء، سأصحبك إلى مكان ساحر اسمه الأكواريوم، هل سمعت به؟

قلت: لا.

قال: إنه فندق قريب جداً من البحر، إطلالته رائعة، ومن الطابق الثالث عشر حيث المطعم تكون بيروت كلها منبسطة تحت نظرك، سأتملى من وجهك الجميل وأنت تتأملين بيروت والبحر وتأكلين المأكولات الشهية...

رفعت سماعة الهاتف، وطلبت القهوة، كنت أحس بخوف أن يداهم غرفتي رجال مجهولون، يقبضون علي بتهمة الدعارة، في أعماق ذاكرتي كنت أحفظ أهم حكمة في الشرق: إذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما، لكني تذكرت سخريته من مخاوفي، وكيف أن هذه الفنادق الفخمة، تحمي لقاءات المرأة والرجل.

قال لي محاولاً طرد القلق الذي أذيعه في الجو: تحدثت عنك أمام العديد من الناشرين، قلت لهم إنني سأنشر رواية رائعة لكاتبة مغمورة، وبأنك سوف تكونين خلال فترة قصيرة، إحدى أهم الشخصيات الأدبية

في العالم العربي.

استرخت مفاصلي، استحلبت طعم السعادة، ياه، ما ألذه، رفعت إليه عينين سابحتين في الرجاء، سألته بلهجة مستميتة: هل ستطبع الرواية.

تأملني طويلاً ببرود أولاً، ثم بشبق ملأ الغرفة، قال: تعالي إلى جانبي، أريد أن أريح رأسي على صدرك.

قلت: لكنك لم تجبني، هل ستطبع الرواية؟

قال: ألم تفهمي من كلامي أنني سأطبعها، ألم أقدمك لزملائي ككاتبة سأنشر روايتها الرائعة.

قلت: متى سنكتب العقد إذاً، لماذا لا تحدثني عن التفاصيل.

أغمض عينيه متململاً وقال: حبيبتي نازك، لا تكوني غبية، المرأة الجميلة يجب أن تكون ذكية، تعالي، كان لا يزال مغمض العينين حين فتح ذراعيه لاستقبالي، كان يجلس على مقعد وثير، وأنا على المقعد المقابل، أحسست الفراغ بيننا صلب يستحيل اختراقه، وجدتني أقول بخشونة: لا، لن أقترب لا أستطيع، بل لا أريد.

اضطره كلامي ليفتح عينيه اللتين تشع منهما قسوة مخيفة، كانت شفتاه مزمومتين بحقد، قال:

أنا لا أفهمك، ما الذي ينتابك؟

قلت، وقد قررت أن أغامر: أريد أن يكون ما بيننا علاقة عمل فقط.

استمر يحدق بي بقسوة قائلاً: تريدين استغلالي إذاً.

شهقت مذعورة: أنا أريد استغلالك؟! قلت الجملة بطريقة تفهم تماماً: أنت من يريد استغلالي.

قال: اسمعي: أنا أفهم النساء أمثالك، لقد قرأت ما كتبته بروية، أنت

موهوبة فعلاً وكاتبة متميزة، لقد قرأت روايتك التي تشعين منها، قرأتك جيداً، فقد نجحت في التحلل من كل عفن الماضي، من عفن التربية الساذجة، عاشرت حبيبك المسلم، وتزوجت بذكاء بعد أن أجريت عملية إعادة العذرية، برافو هكذا تتصرف الفتاة الذكية، وحين أهملك زوجك، اتخذت عشيقاً تونسياً تمتعت بين ذراعيه، وندمت كونك لم تمدي جسور علاقة وثيقة مع الفرنسي، أظن اسمه غيّوم...

صرخت ليكف عن جلدي بكلماته: كفى، كفى، لا أريد أن أسمع كلمة زيادة.

أدهشته حالة الهياج الشديدة التي انتابتني قال: حسناً لن أكمل، فأنت أدرى بما كتبت، لكن أن تمثلي الشرف معي، فلا، لن أسمح لك أن تستغليني.

كنت قد تجففت من الانفعال، لم يعد لساني رطباً ليدوّر الكلمات، امتلأت رئتي بمادة أشبه بنشارة الخشب، جعلتني بحاجة للسعال، وتقشع سخام كلماته.

وجدتني أقول له دون أن أعمل تفكيري بما سأتفوه به: لكن ما كتبته خبرة حياتية، تجربة إنسانية، أتعرف ماذا تعني هذه الكلمات، تجربة حياتية إنسانية، - كنت أقول هذه الكلمات مشدّدة كأنني ألخّص سنوات عمري عبرها – ماذا فهمت أنت يا حضرة الناشر المثقف، أنا لست عاهرة، لست عاهرة.

قال، وكأنه يتعمّد ألا يفهم كلامي: اسمعي أنا لا أحب أن يستغفلني أحد، لقد لبيت دعوتي إلى بيروت، لنقضي أياماً جميلة.

صرخت: لن تلمسني، أفهمت، قلت لك ما بيننا عمل، أنت اعترفت أنني كاتبة جيدة، فلماذا لا تطبع روايتي، ستدر لك أرباحاً.

انتفض واقفاً، اتجه صوب الباب بخطوات واسعة، استدار إليّ

ورشقتني بنظرة من نار وهو يقول: بعد دقيقة ستكون روايتك في مكتب الأمانات.

صفق الباب وراءه قبل أن أتمكن من الرد بكلمة، للحظة كدت أركض خلفه أصرخ وأشتم لكنني وجدت نفسي أتجه بهدوء وثقة تلبستاني فجأة، كأن نبياً شفاني من شيطان كان يلبسني، وقفت أمام المرآة، طالعتني نازك حرّة، نظيفة، نقية، غمزتها، ورفعت إبهامي علامة النصر، كانت السعادة تقطر نقطة بعد نقطة في روحي، تذكّرت جدتي حين كانت تقطر زهر الليمون، جمعت أغراضي، وبصقت على الموكيت الفخم الذي يفرش أرض الغرفة كان مبرقشاً بدنس الأقدام العاهرة التي تبالغ في الاهتمام بالنظافة لتخفي دنس الأعماق.

أسرعت أستلم روايتي بشغف كبير، أدهشني أنني نفخت عليها مراراً حين تسلمتها، لدرجة أن الموظفة سألتني: لكن، لا غبار عليها!

ضحكت وأنا أقول بسري: لقد علق بها ما هو أقذر من الغبار.

كان البحر يقترب مني – هكذا أحسسته – ويحييني عبر موجات قصيرة متلاحقة، هبّت لاحتضاني لكنها تعرقلت بصخور الشاطئ، كنتُ سعيدة أتنفس رائحة كرامتي، فكرت أنه سيكون أمامي وقت مستفيض كي أتأمل زيف المشاعر الكثيرة التي كنتُ أعتقد أنها مشاعري، وضلال الأفكار العظيمة التي كنت أؤمن بها وأعتقد أنها أفكاري، أدركت الحقيقة متأخرة ربع قرن على الأقل، كنت بحاجة لربع قرن كي أفكّ نفسي وأعيد تركيبها من جديد، لأتأكد الآن أنني كنت دوماً طاهرة ونقية، وكانوا – هم – الوجوه التي أحبها وتعذبني بحبها المشروط، والوجوه التي أرادت امتصاص نداوة شبابي وأنوثتي وجعلي سلعة، أضلل بين مفهومي الحرية والعهر، كانوا جميعاً يحفون بي، محاولين إسقاطي في شرك حبهم أو مطامعهم.

لكني الآن حرّة كغيمة، نقية كدمعة. ربت بحنان على روايتي التي أوسدتها حضني – وأنا أجلس في المقعد الأمامي للسيارة، كنت أحس أنني أربت على كتف امرأة حرّة ونقية تصالحت مع نفسها ومع العالم، ولم تعد تشعر كما كانت تشعر دوماً بأنها امرأة من طابقين.

انتهت

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^